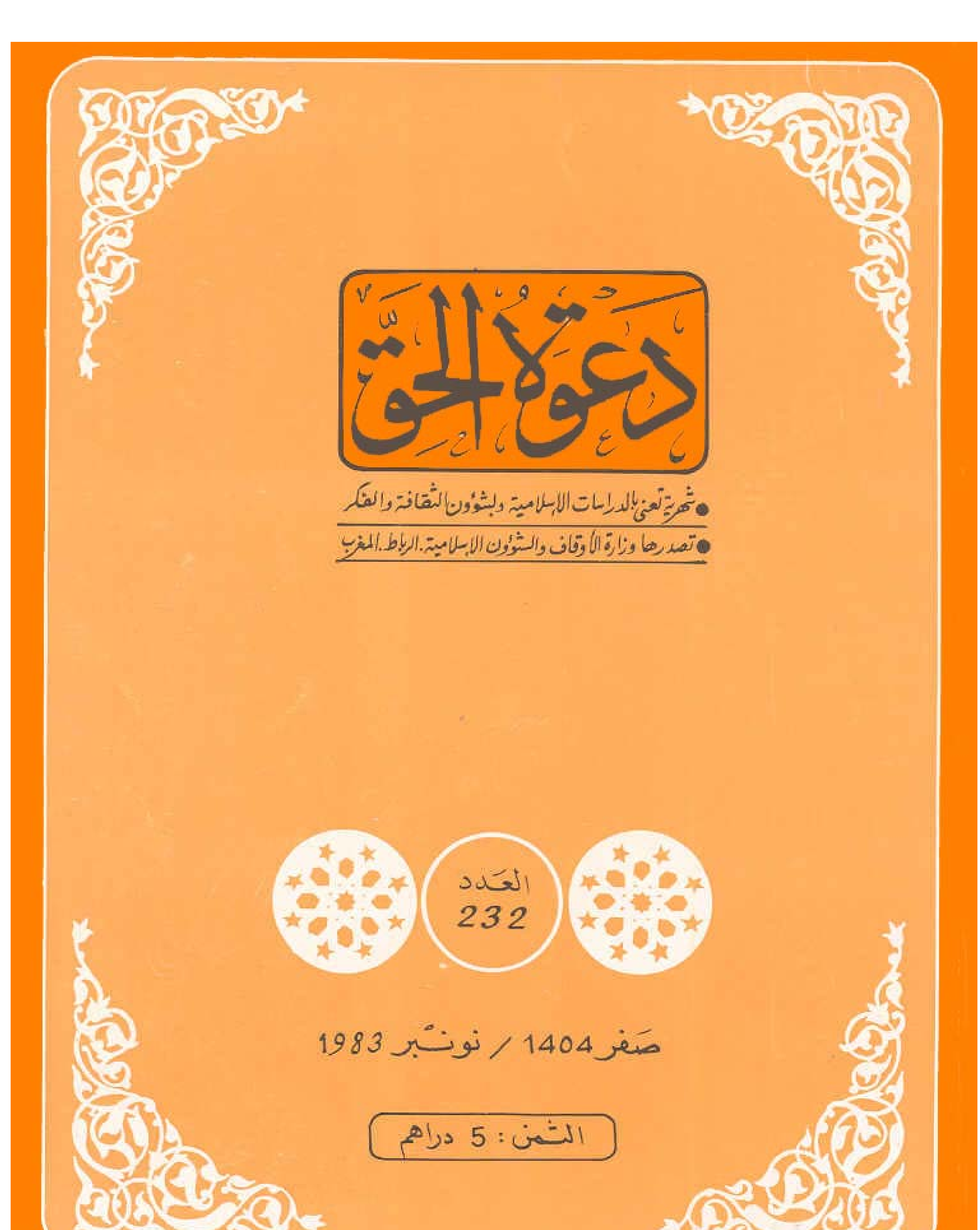

دعوة الحق
شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية. الرباط. المغرب
العدد
232
صفر 1404 / نونبر 1983
الثمن : 5 دراهم

بسم الله الرحمن الرحيم

بمناسبة الأعياد المجيدة للاستقلال

تنظم

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

المعرض الثالث لمطبوعاتها

من 19 صفر إلى 28 منه 1404

25 نونبر إلى 4 دجنبر 1983

بمتحف البطحاء بفاس.

بمناسبة المعرض، وتشجيعاً للطلبة والمثقفين والمهتمين، تنظم مكتبة الأوقاف عرضاً خاصاً تخفض فيه أثمان المطبوعات بنسبة 30 %



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها:
جلالة المغفور لــه
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957 م

التحرير:
الهاتف: 601.85

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

*

الاشتراكات:
في المملكة المغربية: 55 درهما
في البلاد العربية: 67 درهما
في العالم: 77 درهما

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

هذا العدد

•• يتضمن هذا العدد ابحاثا متنوعة في الفكر والثقافة والادب والتاريخ والتراجم، روعي فيها الاصالة في الفكر، والدقة في العرض، والعمق في التناول، والوضوح في الاداء، تمشيا مع الخط الواضح المستقيم الذي اختطته لنفسها هذه المجلة منذ صدور عددها الاول في يوليوز سنة 1957.

• ومن المواد التي يسعد المجلة نشرها ماكتبه الاستاذ الكبير الباحث محمد بن تاويت عن دكتور طه حسين. وقد وعد الاستاذ بن تاويت ان يكتب للمجلة سلسلة مقالات عن اساتذته الكبار في كلية الاداب جامعة فؤاد الاول (القاهرة). وقد نشرت له «دعوة الحق» المقال الاول عن د. احمد امين، وتنشر له اليوم مقالا عن د. طه حسين. وفي العدد القادم، ان شاء الله، تنشر له مقالا ثالثا عن العبادي. وثلاثتهم كانوا قمما في الفكر والادب والثقافة العربية الاسلامية.

•• ولاشك ان مثل هذه المقالات الانطباعية عن اعلام النهضة في الوطن العربي من شانها ان تضع امام الاجيال الجديدة من خريجي الجامعة وطلاب الدراسات العليا والباحثين مادة ادبية وثقافية وفكرية ثرية وغنية ودسمة تجلي الحقائق المتصلة بفترة هامة من تاريخ الفكر العربي الاسلامي الحديث.

ونحن نامل ان يواصل الاستاذ بن تاويت الكتابة عمن عرف من الاعلام الكبار اثناء اقامته الطويلة في مصر للدراسة والعمل في اواخر الثلاثينيات واوائل الاربعينيات.

• والقصد من نشر هذه المقالات هو اثراء حوار الاجيال، والاسهام بحظ وافر في الكشف عن الاوجه المختلفة للشخصية الادبية عند هذا الرهط الكريم من رجال الفكر والادب والجامعة الذين وضعوا اسس النهضة وتحملوا عبء الريادة العقلية في وقت مبكر.

•• ومن ابحاث هذا العدد القيمة الممتازة ماكتبه الدكتور عبد الهادي التازي عن (العلاقات الدولية في الاسلام) تعليقا على الخطاب الهام والحاسم الذي القاه جلالة الملك الحسن الثاني في الامم المتحدة، وهو بحث من الاهمية بمكان انتهى فيه كاتبه الى النتيجة التالية : (ان الاسلام يشجب الاتفاقيات السبعية ويدعو الى بناء المواثيق على اساس ان لا تكون امة اربى من امة)، وهو من موضوعات الساعة التي تفرض نفسها على الراي العام الدولي. وقد اتى الكاتب الدكتور التازي بالقول الفصل في هذا الموضوع.

• ولا نستطيع ان نقدم جميع مواد هذا العدد في هذا الحيز، ولنترك للقارىء حرية الاختيار... فهو المخاطب، والمجلة له، ونحن له عاملون.



بسم الله الرحمن الرحيم

مهام أساسية أمام الفكر الإسلامي

•• لعل من سمات المجتمعات القوية القادرة مايصطلح عليه في التنظير الاجتماعي الحديث بالاقتحام الحضاري، الذي يقوم على اساس الغزو الفكري، والهجوم العقلي. وليس من فرق بين (الفتح) و (الغزو) في هذا المجال. فالاسلام، او لنقل الفكر الاسلامي، فتح افاق الدنيا المعروفة في القرن السابع الميلادي، او ان شئنا الدقة بادرنا الى القول بان الفتح تم اولا بالاسلام كعقيدة ودين وايمان ويقين، ثم مالبث ان انقلب الى غزو بالفكر والراي والنظر. فكان نتاج هذا كله هوما نعبر عنه اليوم بالفكر الاسلامي، وهو الفكر الناتج عن العوامل والوسائل والادوات الانفة الذكر.

• وحينما يتحول الفتح الى الغزو، تستكمل الدورة الحضارية حلقاتها، وتتولد القوة الفاعلة القادرة على العطاء الخصب، والتاثير الايجابي العميق في جميع مجالات النشاط الانساني. وبذلك تنتج حالة شديدة الخصوبة هي التي تقود الى قيادة الحضارة والفكر، فتكون السيادة للذين اتقوا وفكروا واعملوا عقلهم في ملكوت الله.

•• وليس شك ان من المهام الاساسية للفكر الاسلامي الحديث الخروج من الدائرة الضيقة التي وضعته داخلها عوامل وظروف التخلف والتقهقر، واجترار عطاء السلف، والقصور، والعجز عن الاضافة اليه او حسن الاستفادة منه، على اقل تقدير.

• ومن الحقائق المسلم بها في عقيدة المسلمين ان لاشيء يعلو فوق القران وحديث رسول الله، وان النصوص المقدسة هي كتاب الله الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وما صح من حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام، بالطرق والمعايير التي اجمع عليها علماء الامة، والتي بلغت القمة

في الضبط والدقة والتوثيق. وما خرج عن هذا النطاق، فهو فكر واجتهاد، وهو عطاء بشري، وجهد انساني، يندرج تحت ما عرف عندنا بالفكر الاسلامي قديمه وحديثه.

•• ومتى كانت هذه القاعدة اساس النظر والتحليل، ومنطلقا للتعامل مع الكون والانسان، وما يصدر عنهما من احداث وردود فعل ومضاعفات،سهل فهم طبيعة الفكر الاسلامي، والوقوف على كنه وظيفته، ومعرفة حدوده وافاقه، وادراك مراميه ومقاصده ومهامه.

• ان مواجهة مشكلات العصر، بالشجاعة الادبية المدعمة بالثقة بالنفس، في مقدمة المهام المنوطة بالفكر الاسلامي، من اجل الوصول الى ايجاد الحلول، وخلق البدائل، واقرار الصيغ الملائمة لروح العصر، من جهة، ولجوهر الدين ولاصالة تاريخ هذه الامة من جهة اخرى. وبذلك يرتقى الفكر الاسلامي الى مستوى التنظير لقضايا العصر مما يكسبه الريادة والسبق، ويجعله فكرا متحركا في اتجاه الغد، انطلاقا من مقومات وقيم واصول، هي مصدر قوة على مر الازمان. وهو الامر الذي يجعل صفات الجمود والهمود والتحجر والتزمت تنتفى بانتفاء الاسباب المؤدية اليها الموجبة لها.

•• ان صلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان حقيقة مسلم بها لا يرقى اليها الشك. ولكن المطلب الملح الذي يفرض نفسه على المسلمين في كل عصر هو جعل هذه الصلاحية الدائمة واقعا ملموسا، لا نقول يتطور مع مقتضيات الحاجة، وطبيعة الحياة المعاصرة، ولكن نقول يقبل ان يتحاور مع ذلك كله على نحو يحقق اهداف الدين السامية، وغاياته النبيلة في اسعاد بني الانسان، واحاطة حياته بسياج من الضمانات الواقية له من السقوط والامتهان.

• وتلك من المهام المستعجلة للفكر الاسلامي في العصر الحاضر تمليها الحاجة الى الخروج من وهدة التخلف وهوة العجز الى حيث القوة والمنعة والقدرة على فرض الراي، واثبات الوجود، والدفاع عن الحقوق والتاثير الفاعل في الحضارة والفكر والعلاقات الدولية.

•• ولا يمنعنا هذا من التساؤل : اي فكر اسلامي نريد ؟ هل نريده فكرا منفتحا ؟ ام فكرا منغلقا ؟ هل نريده فكرا يقوينا ويشد من ازرنا ويقودنا الى الامام ؟ ام نريده فكرا يزيد من ضعفنا ويخذلنا ويشدنا الى الوراء ؟

• اننا مطالبون، ابتداء، ان ننبذ كل التقسيمات والتسميات التي ما انزل الله بها من سلطان. فليس صحيحا او سليما ان نقول بالفكر الاسلامي اليميني، او بالفكر الاسلامي اليساري، طالما ان الاسلام دين الله، ولا يمين ولا يسار في الدين، وانما هي قوالب ومقاييس وصيغ ابتدعناها ابتداعا. وانما الصحيح ان نقول بالفكر الاسلامي القائم على الفهم الصحيح والسليم لطبيعة الدين، ورسالة الاسلام في الحياة، مما يقتضي التسليم، جملة وتفصيلا، بحكم القران وتوجيه الحديث الصحيح. فلا تفريط في هذين المصدرين. فالخير والتقدم فيهما وليس في غيرهما. فلا اجتهاد مع نص، كما يقول فقهاء الامة. وانما الاجتهاد، واعمال الفكر، ومجاهدة النفس، وشجاعة المواجهة والحركة والاقتحام فيما لم يرد فيه نص من قران كريم او حديث نبوي متفق عليه. وفي هذا الاطار يجوز - بل يجب وجوبا مؤكدا - افراغ الوسع، ما استطعنا الى ذلك سبيلا، من اجل ان نثبت لانفسنا، وللناس اجمعين احقيتنا، لا لنحيا فحسب وانما لنصنع الحياة وفق سنة الله وبمقتضى توجيهاته البالغة الحكمة في كتابه العزيز وسنة رسوله الكريم.

•• فالفكر الاسلامي - من هذا المنظور - يقف امام اختيارين اساسيين: فاما ان يواجه العصر بالعقل والفطنة والمعرفة والعلم، وصحوة الضمير، ويقظة القلب، وتفتح الوجدان، وهي امور يدعو اليها الدين ويحث عليها. واما ان يظل حيث هو في موقف العجز وموقع القصور، وفي هذه الحالة ينحرف المفكرون المسلمون - او الاسلاميون الامر سيان - عن المحجة البيضاء.

ولن يحسب انحرافهم ابدا على الاسلام، لان هذا الدين في خط تصاعدي، وفي تقدم مستمر، لانه دين الله، وهو وحده الحق، وما عداه باطل وقبض الريح.



على هامش خطاب جلالة الملك أمام الجمعية العامة لهيأة الأمم المتحدة :

• العلاقات الدّولية في الإسلام

• الإسلام يشجب الاتفاقيات السّبعية

ويدعو إلى بناء المواثيق على أساس أن لا تكون أمة أربى من أمة!

• القرآن يضرب المثل بحمقاء مكة : ريطة . لكل الذين يحلمون بعمر طويل لاتفاقياتهم الجائرة

للدكتور عبد الهادي التازي

لقد أثار جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب أمام الجمعية العامة لهيأة الأمم المتحدة يوم 27 أكتوبر 1983 موضوعا يفرض نفسه بكل الحاح بالنسبة لعالمنا المعاصر.. ولقد كان يتحدث ـ في هذا الصدد ـ من منطلق تجربة وممارسة طويلة مع التاريخ القديم والحديث.. ولذلك فقد كان لخطابه صداه الكبير لدى ممثلي سائر أعضاء الأمم المتحدة الذين يصلون اليوم الى 150...

وان الذي يهمنا اليوم من النطق الملكي هذه الافادة التي أوردها بصفته رئيسا لمؤتمر القمة العربي ورئيسا للجنة السباعية كذلك. علاوة على انه رئيس دولة ضرب تاريخها الدولي ومدرستها السياسية في جذور التاريخ.

قال في معرض حديثه عن المأساة اللبنانية :

«علينا أن نطلب اما من الولايات المتحدة الامريكية... أو من الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة النظر من جديد في الاتفاقية اللبنانية الإسرائلية. ذلك لسبب واحد. ان هذه الاتفاقية يمكن أن نسميها اتفاقية سبعية (بضم الباء) كما يقول الفرنسيون !

! تلك الاتفاقية التي

تجعل أن السبع يتفق ويلتزم مع الخروف ! وهذا شيء لا يعقل بل لا يمكن من خلال اتفاقية مثل هذه أن يطمئن كل ذي ضمير... وأن يرتاح كل ذي روح سياسية وذكاء وتفهم سياسي.

وانكم لتتذكرون ان سنة الف وتسعمائة وخمس وسبعين وقعت اتفاقية في الجزائر بين ايران والعراق وكانت تلك الاتفاقية بدورها اتفاقية سبعية. ذلك لما كان لا يزال انذاك من تفوق تكنولوجي وعسكري على الجمهورية العراقية. ولم تلبث تمر بضع سنين حتى مزق العراقيون اتفاقية الف وتسعمائة وخمس وسبعين نظرا لعدم توازنها ونظرا لانها كانت اتفاقية سبعية. وها نحن بهذه الكيفية وعلى هذا الاساس نعيش مأساة الحرب العراقية الايرانية بين دولتين اسلاميتين شقيقتين جمع بينهما التاريخ والحضارة وسيجمع بينهم التاريخ والحضارة والدين.

لذا فيما يخص العرب بكيفية خاصة أناشد كل ذي نية صالحة وحسنة وأناشد كذلك خصمنا بنفسه... لمراجعة هذه الاتفاقية التي عقدت مع لبنان... لا يمكن لدولتين ان تبنيا مستقبلهما على الاتفاقيات السبعية التي تقضي بان يعيش السبع مع الخروف في امن وامان...

هكذا خاطب جلالة الملك المنتظر العالمي الذي تتلخص رسالته العالمية في احترام الاتفاقيات وتعزيز القانون الدولي. ومن ثمت فقد كان الحديث عن «الاتفاقيات السبعية» حديثا في الصميم ومن الصميم سيما وقد كان للعاهل المغربي دوره المعروف الى جانب والده رحمه الله في الاجهاز على اتفاقية الحماية الفرنسية التي كانت مثلا من الأمثلة العديدة للعقود التي يحرص عمالقتها على الاستئثار بحصة الاسد فيها.. أو نصيب السبع كما يقولون...

ومن وجهة النظر الاسلامية ينبغي أن نلتفت قليلا الى ما تتضمنه بعض الآيات الشريفة حول هذا الموضوع بالذات : موضوع الحرص على تحقيق العدل بين المتعاقدين أو العلاقات الدولية في الاسلام.

لقد كان من المتأكد بالنسبة لتعاليم الإسلام الحنيف أن ترتكز المعاهدات في فصولها وبنودها على أساس متين من الصدق أولا والوفاء ثانيا... والا كانت أدل على فساد النية وكانت أقرب الى الفشل منها الى النجاح...

نعتقد ذلك لأن الدين الإسلامي يقرر مبدئيا هذا وبثبته... ويدعو في صراحة إلى أن المعاهدات يجب أن تجاري الحق وتحاذيه وتتنكب سبيل الدس وتجافيه.

هذا هو القرآن يقول (سورة النحل. الآية 92) «**ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ان تكون امة هي اربى من امة**».

لا تكونوا كتلك الخرقاء المغفلة : ريطة بنت عمرو بن كعب... كانت تنقض غزلها أنكاثا بعد أن تحكم فتله !

احذروا المخاتلات والدخل في العهود فيما بينكم... لا تكن مرتكزة على حب التغلب والهيمنة والتسلط وان **تكون امة اربى من امة** !! هكذا يقرر كتاب الاسلام الأول في أمر الاتفاقيات. ولما أن الموضوع مهم. ولما أن المخاطبين به أحوج ما يكونون الى تقريره في أذهانهم. فقد رأينا أن هذه الآية الكريمة تتبع بآية أخرى تؤكد على الموضوع : «ولا تتخذوا أيمانكم (عهودكم) دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم».

وهكذا يزداد الأمر وضوحا بالنسبة للذين يحاولون أن يركبوا الدخل (بتشديد الدال المفتوحة وفتح الخاء) في عهودهم...

وحتى يزداد الأمر بيانا أشاد القرآن الكريم بأهمية الكسب المعنوي في بناء المواثيق على الصدق والعدل : «ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ان ما عند الله هو خير لكم ان كنتم تعلمون ما عندكم ينفد. وما عند الله باق».

الكسب المدسوس لا يساوي إزاء العهود الشريفة العادلة جناح بعوضة. لكن الكسب الصحيح هو الذي يبقى نافعا مدى الأيام...

ولعل من المفيد أن نستعرض امامنا في هذه العجالة بعض المواثيق التي تعرضت للزلزال بعد أن كان بعض الاطراف فيها يعتقدون انها باقية الى الأبد ويحلمون إزاءها بعمر طويل !

أمامنا في التاريخ الإسلامي مثلا : معاهدة الحديبية... لنقرأ بنودها فقد كانت بحق شاقة لم يكد أصحاب رسول الله أن ينصاعوا لها لولا ما رأوه من اذعان هاديهم الأمين. لقد كان شق على الكفار حشد النبي صلى الله عليه وسلم لقومه قاصدا مكة مع أن الباعث لهم لم يكن

الا أن يعتمروا وليس أن يستعمروا، لكن أنصار الباطل ساءت نيتهم كالعادة فقرروا ما قرروا ثم حالوا بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين مبتغاه...

وأخيرا انعقد ـ كما نعلم ـ «صلح» على شروط معروفة في وثائق الاسلام السياسية كان بعضها يرمي الى خنق الاسلام والحيلولة دون انتشار النور... لكن معاهدة ترتكز على أساس كهذا الأساس ليست مضمونة الاستقرار حتما... لقد كان من الشروط «أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك الا رددته الينا» ! وهو شرط قاس على الاصحاب كما نرى، كان من ضحاياه عدد من الناس... أبو جندل، وأبو بصير...

ولقد قبل النبي صلى الله عليه وسلم الاتفاقية التي فرضت عليه فرضا وكان طبيعيا أن ينقاد المؤمنون الى رئيسهم... لكن هل كنا نضمن لتلك المعاهدة حياة أو عمرا ؟ ذلك ما نترك الجواب عليه للواقع أيضا... لم يمض على تلك المعاهدة زمن يسير حتى انهار صرحها وتقوضت أركانها، لافقط لأن قوم الرسول صلى الله عليه وسلم عملوا على نسفها وبذل جهدهم في سبيل تقويضها ولكن لأن فصول المعاهدة كانت جائرة، والجور أقرب الى الانحدار والانهيار.

وكيف كان ذلك ؟ لقد انتحرت المعاهدة من تلقاء نفسها وأمست صريعة لا حراك بها في أعقاب الظروف التي زامنتها...

وهكذا يمكن القول في معظم الاتفاقيات التي مرت بنا في تاريخ العالم القديم والحديث مما كان يتخذ صفة السبعية ويعتمد على أن تكون طائفة أقوى من الأخرى...

أمامنا ـ كما قلت، معاهدة الحماية التي أصبحت خبرا بعد كان... وأمامنا اليوم «اتفاقيات سبعية» أخرى تتصل بالثغور المغربية المحتلة وهي «تلك الاتفاقيات» التي تنتظر بدورها ان تنهار وتصل الى نهايتها كما كان الشأن بالنسبة الى سوابقها في الشمال والجنوب !!

وبعد فقد أعاد خطاب جلالة الملك الى ذاكرة الناس مبدأ في التعامل، ما كان أحرانا باتخاذه شعارا حتى نتجنب كل الاحتكاكات والتوترات والاصطدامات...

د. عبد الهادي التازي

منهج نقد المتن
عند علماء الحديث النبوي

•• صدر عن دار الآفاق الجديدة ببيروت كتاب جديد للدكتور صلاح الدين الأدلبي بعنوان : (منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوي).

الكتاب كان في الأصل أطروحة تقدم بها صاحبها لدار الحديث الحسنية لنيل دكتوراه الدولة في العلوم الإسلامية ••

المغرب وقضية فلسطين

في ضوء
أعمال لجنة القدس

للأستاذ قاسم الزهيري

> «تعتز فلسطين بقدسها وبأماكنها المقدسة الأخرى، وبأنها في قلب الوطن العربي استحقت مع بقية أجزاء هذا الوطن شهادة التاريخ لها بأن فضلها على رقي البشرية فكريا وروحيا أجل شأنا من أي بلد آخر حيث انطلقت منها الرسالة الأخلاقية فعمت أجزاء واسعة من العالم».
>
> فليب حتى

إن الحديث عن فلسطين بقدسها يثير كوامن النفس ومشاعر الألم والأمل، واليأس والرجاء، والتسامح والفداء.. ذلك أن فلسطين والقدس ليسا من المدائن التي تمر في ذاكرة الانسان مرورا عابرا، بل هما مهوى أفئدة مئات ملايين المؤمنين وملتقى الديانات السماوية الثلاث. على أرض فلسطين نشأت أعرق الحضارات، وفي سمائها ارتفع صوت مؤذني المساجد إلى جانب قرع أجراس الكنائس في اطار من التسامح والعدل الذي اتسم به الحكم العربي الاسلامي عبر أربعة عشر قرنا من العهد العمري إلى الآن الا في فترات متقطعة من الحكم الصليبي.

ومدينة القدس ـ مهبط الأنبياء ومسرى خاتمهم صلوات الله عليهم ـ تشكل جزءا من اقليم فلسطين ترتبط به ارتباطا عضويا وتتفاعل معه. كما أن فلسطين شكلت ولا تزال جزءا من الوطن العربي الكبير وشاركت في صنع أحداثه وساهمت في ثقافته وحضارته. «وما من مدينة في التاريخ استأثرت باهتمام العالم والبشرية عامة كما

---

(1) هيىء هذا البحث بطلب من اللجنة الدولية المكلفة بممارسة الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني ليلقى في الندوة الثامنة المنعقدة بجكارطا في الفترة مابين 9 الى 13 مايو 1983.

استأثرت به مدينة القدس. هذا الاهتمام النابع من وجدان الانسانية وقيمها الروحية والحضارية».

هكذا بدأ حديثه عن القدس الدكتور سالم الكسواني في ندوة عمان عن الاسراء والمعراج يوم 20 / 5 / 1979.

فلا غرابة أن تكون فلسطين بقدسها لما تتمتع به من مكانة دينية وتاريخية محط أنظار المستعمرين قديما وحديثا ممن خاضوا غمار حروب طاحنة من أجلها. ولا غرابة كذلك أن تستنهض همم العرب والمسلمين في مختلف أنحاء العالم. وتبرز القضية الفلسطينية وفي مضامينها قضية القدس في مقدمة قضايا العالم المعاصر لتستقطب اهتمام الرأي العالمي منذ 1948 الى اليوم في مواجهة المطامع التوسعية التي تتستر وراء أهداف «دينية وتاريخية» للوصول الى مآربها ولم تتوان أي منظمة عالمية او اقليمية منذ أزيد من ثلاثة عقود من اتخاذ موقف في هذه القضية التي أصبحت تهدد الأمن والاستقرار وتحدث توترات تنذر بشر مستطير.

وأود أن اتحدث عن الدور الذي قامت به لجنة القدس المنبثقة عن منظمة المؤتمر الاسلامي والتي يرأسها عاهل المغرب جلالة الحسن الثاني وما حققته من انجازات على مدى أربع سنوات خلال الدورات السبع (2) التي عقدتها، وذلك حيث سنحت لي فرصة حضور نشأة هذه اللجنة والإسهام في تسيير شؤونها حيث كنت أمينا عاما مساعدا لمنظمة المؤتمر الإسلامي مكلفا بدائرة الإعلام والسياسة لمدة أربع سنوات. وأنتهز الفرصة لأتطرق في حديثي إلى اهتمام المغاربة على مر التاريخ بالقدس وما كان لها من مكانة رفيعة عند المسؤولين من مختلف الدول التي تعاقبت على الحكم في المغرب.

تأسست لجنة القدس، كما هو معلوم، بتوصية من المؤتمر السادس لوزراء خارجية الدول الإسلامية الذي انعقد بجدة من 3 إلى 6 رجب 1395 الموافق 12 إلى 15 يوليو 1975. وحددت أهداف اللجنة فـي :

- بحث تطور وضعية القدس.
- متابعة تنفيذ القرارات المتخذة من لدن المنظمة الإسلامية بشأنها.
- متابعة التوصيات المتخذة من لدن مختلف المنظمات الدولية. بشأنها.
- إجراء الاتصالات بالمنظمات الدولية بهدف تأمين حماية وأمن القدس.
- حث الدول الأعضاء في المنظمة الإسلامية وحث المنظمات الدولية على القيام بالمساعي الكفيلة بمواجهة جميع التطورات المتعلقة بالوضع في المدينة المقدسة.

تتألف لجنة القدس من أربع عشرة دولة من أعضاء المنظمة الإسلامية عن طريق الانتخاب لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد، وهي المملكة العربية السعودية، جمهورية بنغلاديش، جمهورية غينيا الشعبية الثورية، جمهورية أندونيسيا، جمهورية إيران الإسلامية، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، المملكة الأردنية الهاشمية، الجمهورية اللبنانية، المملكة المغربية، جمهورية باكستان الإسلامية، فلسطين، جمهورية السنغال، جمهورية السودان الديمقراطية، الجمهورية العربية السورية بالإضافة إلى الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

في اجتماع المؤتمر العاشر لوزراء خارجية الدول الإسلامية الذي انعقد بمدينة فاس من 11 إلى 15 جمادى الثانية / 8 إلى 12 مايو 1979 قدم وزير خارجية المملكة العربية السعودية التماسا باسم جلالة الملك خالد بن عبد العزيز رحمه الله طالبا من جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب أن يتفضل بقبول رئاسة لجنة القدس «لما اشتهر به جلالته من حميد الخصال ومضاء الإرادة وقوة العزم للدفع بهذه اللجنة إلى الأمام إلى أن ينعقد مؤتمر القمة الإسلامي الثالث المتوقع بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري». وطلب الأمير سعود الفيصل أن يقدم المؤتمر مساندته لمناشدة الملك خالد حتى يتقبل جلالة الحسن الثاني رئاسة اللجنة.

---

(2) عقدت لجنة القدس دورتها الثامنة يوم 30 سبتمبر 1983 بنيويورك برئاسة جلالة الملك الحسن الثاني رئيس اللجنة. وخصصت الدورة لموضوع المستوطنات الاسرائيلية في القدس والاراضي العربية المحتلة ومواجهة محاولات اسرائيل الرامية الى استعادة علاقاتها بالدول الافريقية.

فثنى المؤتمر بالإجماع على الملتمس السعودي. وقبل العاهل المغربي الرئاسة معلنا أنه «يعتبر قضية القدس الشريف قضيته الأولى وقضية كل مواطن مغربي وكل مسلم في جميع أنحاء العالم». لقد جاء إسناد رئاسة لجنة القدس إلى العاهل المغربي منسجما مع مواقفه من قضية فلسطين عامة والقدس على وجه الخصوص. حيث كان أول من بادر عندما ارتكب الصهاينة جريمة إحراق المسجد الأقصى في 21 أغسطس 1969 إلى الدعوة لعقد أول قمة إسلامية في الرباط وانبثقت عنها منظمة المؤتمر الإسلامي. وكان جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز أكبر داعية للتضامن الإسلامي.

وصادق المؤتمر الإسلامي العاشر بفاس على اختصاصات جديدة بالإضافة إلى ما كان للجنة القدس من صلاحيات لزيادة فاعليتها، من جملتها :

- أن تصبح على مستوى وزراء خارجية الدول الأعضاء برئاسة جلالة الحسن الثاني.
- أن تقوم بوضع وتنفيذ برنامج سياسي وإعلامي في العالم غير الإسلامي بهدف دعم قرارات المنظمة الإسلامية على مختلف المستويات للمحافظة على عروبة وإسلام المدينة المقدسة وعودتها إلى السيادة العربية.
- أن تخول اللجنة الصلاحيات اللازمة لأخذ ما تراه من الإجراءات الكفيلة بتحقيق أهدافها.

ثم إن مؤتمر القمة الإسلامي الثالث الذي اجتمع بمكة المكرمة والطائف من الفترة ما بين 19 و 22 ربيع الأول 1401 الموافق من 25 إلى 28 يناير 1981 أشاد بالمجهودات التي قامت بها لجنة القدس. وجدد بالإجماع الرئاسة لجلالة الحسن الثاني فصرح العاهل المغربي بالغ التأثر : «أجدد العهد أمامكم وفي هذه الأرض الطاهرة على أن أبقى ساهرا على أعمال هذه اللجنة قلبا وقالبا إلى أن تصل إلى الهدف المنشود».

وفعلا منذ أربع سنوات من 12 مايو 1979 - قامت لجنة القدس برئاسة جلالة الحسن الثاني بمنجزات في منتهى الأهمية مما طوق الخلاف العربي - الإسرائيلي وأسهم في دعم قضية فلسطين والقدس الشريف عربيا وإسلاميا ودوليا بقدر ما زاد في عزلة الكيان الصهيوني، وذلك وفق استراتيجية دقيقة سهر على تخطيطها وتنفيذها عاهل المغرب بنفسه. وسنتعرض لأهم منجزات لجنة القدس في أثناء هذه الفترة لإلقاء نظرة إلى الوراء على الطريق الذي قطعته القضية وما تبقى لها من مجهود على درب تحرير فلسطين والقدس الشريف. ونود أن نشير قبل ذلك إلى أن ما يقوم به الحسن الثاني على رأس لجنة القدس ليس في الواقع إلا استمرارا لما قام به المغرب منذ أقدم العصور في سبيل فلسطين والقدس الشريف مما سجله التاريخ. وقد كان جلالته على صواب حين صرح في كثير من التواضع ردا على تنويه مؤتمر القمة الثالث بأعماله : «لا يمكنكم أن تتصوروا مدى تأثري لأن ما قيل في شأني شيء لا أستحقه. ولكن شعبي المسلم المؤمن يستحق اعترافكم له بما عمل وبما سيعمل».

حقا ارتبط تاريخ المغاربة بالقدس الشريف منذ الفتح الإسلامي حين أكرم الله هذه المدينة بجعلها أولى القبلتين مدة ستة عشر شهرا واختارها لإسراء ومعراج نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم. وهو القائل : «لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد، المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا». وقوله عليه السلام : «من أهلّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر». فلا عجب أن يتوافد فيمن توافد عليها على مر العصور وامتدادها عشرات الزائرين والعابدين من الديار المغربية وأن يسهم أبناء المغرب في الأحداث التي جرت على أرضها ويخلطوا دماءهم بدماء أبنائها صيانة لعروبتها وتأكيدا لإسلامها.

ففي عهد دولة المرابطين حل بالقدس الشريف فخر المغرب القاضي أبو بكر بن العربي الذي رافق والده الإمام عبد الله في سفارته إلى المستظهر بالله العباسي من قبل يوسف بن تاشفين عام 309 هـ - 1097 م. ثم توالى على بيت المقدس أعلام مغاربة نذكر منهم الشيخ صالح بن حرزهم والقاضي بدر الدين بن سعيد ومحمد بن سالم العزي والرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة وأبا الحسن الواسطي وأبا عبد الله بن سالم الكناني وعلي بن أيوب المقدسي وشمس الدين الخولاني ومحمد بن نباتة والمقري صاحب نفح الطيب.

ومن مظاهر اهتمام المغاربة بالقدس والمسجد الأقصى بلاؤهم الحسن في الحروب الدينية التي خاضها المسلمون لمدة قرنين ابتداء من أواخر القرن الحادي عشر

في سبيل استردادها من الصليبيين. خاصة في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي وافق حكم دولة الموحدين وسيطرة أبي يوسف يعقوب المنصور على بلاد المغرب بمعناه الشامل وعدوة الأندلس. وكانت الدولة المغربية إذ ذاك تتوفر على أسطول عظيم في الوقت الذي كانت الدول النصرانية تحتل سواحل الشام وبيت المقدس وتتصدى لأسطول صلاح الدين. وقد استنجد مؤسس الدولة الأيوبية بيعقوب المنصور لإعانته بوحدات بحرية لمنازلة الأفرنج في عكا وصور وطرابلس الشام ووجه قائد جيشه الأمير أبا الحزم عبد الرحمن منقذ الشيرزي إلى فاس حاضرة الدولة الموحدية طالبا أن تقوم القوات المغربية في البحر لمنع إمداد الحملات الصليبية المستقرة بالشام بالذخيرة والعتاد. فجهز يعقوب المنصور أسطولا قوامه مائة وثلاثون مركبا كان له أثر بالغ في وقف الزحف النصراني على الشام حسب رواية ابن خلدون. ومعلوم أن هذا العدد من المراكب كانت بحاجة إلى مجموعة من البحارين المدربين فضلا عن المتطوعين والمرشدين والمجاهدين من صناع وعمال وفقهاء، أمثال يوسف بن محمد المعروف بابن الشيخ الذي جاهد بالمغرب مع الموحدين وبالشام مع صلاح الدين.

ويذكر الرحالة ابن جبير الذي زار بلاد المشرق ثلاث مرات وألف رحلة عما شاهده بها أن المغاربة من شمال افريقيا والأندلس تطوعوا في جيش بطل الإسلام نور الدين زنكي محرر الرها والذي استشهد في ساحة الجهاد وأبلوا البلاء الحسن في القتال واستولوا على حصون كثيرة وقلاع عديدة حتى أزعجوا الصليبيين.

وإلى الأفضل علي بن صلاح الدين الأيوبي وخليفته على دمشق والقدس يرجع الفضل في إنشاء الحي الذي يحمل اسم المغاربة ممن آثروا البقاء في فلسطين بعد أداء واجب الجهاد. حيث خصص لهم هذه البقعة التي اعتادوا أن يتجمعوا عندها وأنشأ لهم حارة في أقرب مكان من المسجد الأقصى يحدها من الجنوب سور المدينة ومن الشرق حائط الحرم الشريف ومن الشمال طريق باب السلسلة ومن الغرب حارة الشرف كما ورد في الوقفيات الثابتة شرعا. ولم يكن هذا الوقف كافيا لإيواء المغاربة فاقتنوا أراضي وعقارات داخل مدينة القدس وخارجها. كما حبس كثير من الفضلاء المغاربة المحسنين أوقافا على أبناء بلادهم لينتفعوا بها، منها الوقف المنسوب لحفيد الإمام أبي مدين شعيب المعروف بأبي مدين الغوث دفين مدينة تلمسان. وكان الحفيد يحمل اسم جده، والوقف يشتمل على أراض وبساتين عديدة في قرية عين كارم المعروفة. وكان لحفيد أبي مدين الغوث وقف ثان بمدينة القدس نفسها يحد من جهته الشرقية بالحائط الغربي المعروف بحائط البراق الذي حمل الرسول صلوات الله عليه من مكة المكرمة إلى بيت المقدس. وجزء من هذا الحائط هو الذي اتخذه اليهود مبكى لهم زاعمين أنه بقية سور الهيكل الذي دمره هو ومدينة القدس القائد الروماني طيطس للمرة الثالثة سنة 70 للميلاد. وفي نص الوقفين وصف دقيق لهما وشروط المستحقين للانتفاع بهما ووجوه الانتفاع. كما تهتم الوثيقتان بناظرهما المكلف بالعمارة والإصلاح والصيانة مما يحفظ للوقفين البقاء وينمي ريعهما.

ومن المناسب أن نشير عرضا وبإيجاز إلى ثورة عرب فلسطين 1929 المعروفة بثورة «البراق». قام اليهود في فلسطين إذ ذاك بأول محاولة لتغيير الوضع القانوني والطابع الديني للقدس الشريف بإدخال المقاعد والكراسي ثم ستارا حاجبا إلى ساحة البراق بمناسبة عيد الغفران. وكان الهدف من مبادرة اليهود الاستيلاء على الحائط الغربي للمسجد الأقصى المبارك. فمنعتهم سلطات الانتداب. ولكنهم قاموا معززين بأعضاء «هاغاناه» الإرهابية بالزحف في اتجاه حائط المبكى ورفعوا العلم الصهيوني. فكان عملا استفزازيا صادف احتفال المسلمين بعيد المولد الشريف وكان يوم جمعة. فاندلعت تظاهرات غاضبة تطورت إلى اضطرابات واسعة النطاق على امتداد فلسطين

كلها سقط في أثنائها ضحايا من الجانبين. فأثار اليهود ضجة ضخمة في العالم الغربي كان من نتائجها تأليف لجنة دولية برئاسة وزير خارجية سابق للسويد وبموافقة عصبة الأمم. وبعد بحث مستفيض للوثائق الثبوتية والإنصات إلى الشهود أصدرت اللجنة في شهر ديسمبر 1930 قرارا بالإجماع جاء فيه :

اولا : للمسلمين حق الملكية وحدهم دون منازع في امتلاك الحائط الغربي كجزء لا يتجزأ من منطقة الحرم الشريف.

ثانيا : ملكية الساحة أمام الحائط الغربي تعود أيضا للمسلمين وكذلك حي المغاربة المجاور والمقابل الذي يعتبر وقفا ثابتا مطابقا للشريعة الإسلامية ويعود ريعه للأعمال الخيرية.

ثالثا : يحق لليهود الوصول بحرية إلى البراق لأغراض العبادة في جميع الأوقاف على أن يخضع ذلك لشروط معينة.

نعود إلى الأوقاف المغربية التي ألمحنا إليها والتي لم تكن فريدة من نوعها، حيث تحدث الرحالة ابن بطوطة والعلامة المقرى وأبو القاسم الزياني وغيرهم عن عقارات ومدرسة للمالكية ومساجد تنسب للمغاربة في القدس كالوقف المنسوب للمجاهد الشهير الشيخ عبد الله المصمودي المغربي ويتعلق بثلاث دور وما يناسبها داخلا وخارجا. وقد وجدت وثيقة الإثبات في شأنه وتنص على تحبيسه على المغاربة المحتاجين، المقيمين منهم بالقدس والعابرين.

واجتهدت الدولة المرينية التي خلفت دولة الموحدين بالمغرب - ويرجع إليها الفضل في تشجيع الثقافة والعلم - في تنمية الأوقاف المغربية في الحرمين الشريفين والقدس. وكان ملوك هذه الدولة أنفسهم ينسخون المصاحف بخط أيديهم ويبعثونها لمكتبات الرحاب المقدسة تعبيرا عن تعلقهم بها، فلم يكن قدس من الأقداس في الحجاز أو فلسطين خلوا من مصحف بخط يد هؤلاء الملوك.

واستمرت صلة الدولة المغربية بعد ذلك بتلك الرحاب الشريفة ليس فقط لما تتمتع به من قدسية ولكن لأن المغاربة كانوا يتعلقون بها ويعتبرونها جسورا بين بلادهم وبين منبع الرسالة ومنزل الوحي وكان السلطان أبو العباس أحمد المنصور وهو أعظم ملوك الدولة السعدية يستقبل في قصر «البديع» بمراكش عاصمة المغرب إذ ذاك العديد من علماء مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف. وظل الشأن على ما كان عليه في العهود السابقة حيث بقيت القدس مزار المغاربة يقصدونه جيئة وذهابا «يقدسون ويخللون» على حد تعبيرهم - أي يزورون مدينة السلام والخليل - سواء كان اتجاههم نحو الحجاز للقيام بمناسك الحج أو نحو استمبول عاصمة الخلافة في مهمات سياسية.

رابعا : استمر اهتمام الدولة العلوية بالقدس الشريف منذ تسلمت الحكم في القرن السابع عشر فوسعت أوقاف الحي المغربي حيث اكتظت جوانبه وأصبح يشكل القلب النابض لهذه المدينة. ولم يتوان ملك من ملوكها حتى في أحلك الظروف التي مر بها المغرب عن ابتعاث الوفود المحملة بالهبات كل سنة إلى القدس الشريف لإسعاف المحتاجين من القائمين على الرحاب المقدسة أو من سلالة المغاربة الذين اختاروا فلسطين دار قرار على مر الحقب والأجيال. ولم تنقطع هذه الصلة بوقوع المغرب تحت الحماية الأجنبية حيث واصلها جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله وسلفه المولى يوسف فدأبا على توجيه الهبات السنية إلى الرحاب المقدسة في المشرق وفي مقدمتها القدس الشريف. ومما قام به والد الملك الحسن الثاني في أعقاب زيارته لبيت المقدس أواخر الخمسينات فرش المسجد الأقصى بالزرابي المغربية. وقد شاهدناه مفروشا بها عند زيارتنا للقدس الشريف قبيل الغزو الإسرائيلي.

وعندما سقطت فلسطين في يد الصهيونية وقام بها الحكم الإسرائيلي سنة 1948 سطت عصابات على جانب من أوقاف حفيد أبي مدين الغوث وهو الجانب الذي يقع خارج المدينة بقرية كارم حيث الأراضي الخصبة كما أسلفنا. ويتعلق الأمر بما ينيف عن أربعين عقارا بما فيها دور السكنى ومخازن التجارة. ويمكن تصور فداحة الشعور بالأسى عند المواطنين المقيمين بالقدس وما حولها يشاهدون أملاكهم التي تناقلوها أبا عن جد تقع تحت هيمنة الصهاينة. ولم يكن في وسع الدولة المغربية وكانت إذ ذاك تحت الحجر الأجنبي أن تقوم بأي إجراء فعال. لكن تظاهرات شعبية قامت في المدن والقرى معبرة عن سخطها لانتهاك الوقفيات كما قامت تظاهرات قبل ذلك تضامنا مع الشعب الفلسطيني في كفاحه وتعبيرا عن الشعور بالتعلق بأولى القبلتين والحرم الثالث.

ثم صادرت الدولة الصهيونية البقية الباقية من أوقاف المغاربة بعد احتلال القدس بكامله يوم 7 يونيه 1967 تمهيدا لضمه فأخلت الأوقاف من سكانها بالتدريج مستعملة

كل وسائل الضغط والعنف. ثم قامت بنسف الحي المغربي مستعيضة عنه بساحة عامة قريبة من حائط المبكى. وفي ظرف بضعة أيام أتت المعاول على مائة وثمان وثلاثين بناية بما فيها زاوية وجامع ومكتب ادارة الأوقاف وبيوت عوائل مغربية شهيرة. ولم تمض سنة على هذه الكارثة المهولة حتى عمدت إسرائيل إلى إصدار قرار يقضي باستملاك عدد من الأراضي والعقارات التي سبق أن اوقفها المحسنون المغاربة في القدس. ولا زلنا نذكر يوم قام موشي دايان وزير الدفاع الإسرائيلي غداة غزو القدس عند حائط المبكى قريبا من الحي المغربي وصرح : «لقد أعدنا توحيد المدينة الممزقة عاصمة اسرائيل. لقد عدنا إلى هذا الهيكل الأقدس ولن نبارحه أبدا مرة أخرى». وهو تصريح يذكرنا بتصريح مماثل للجنرال البريطاني اللنبى عند غزوه للقدس في أثناء الحرب العالمية الثانية إذ قال : «الآن سوينا حسابنا وأنهينا الحروب الصليبية». كما يذكرنا بتصريح للجنرال الفرنسي غورو أمام ضريح صلاح الدين عند دخول جيشه إلى دمشق : «ها نحن أولاء عدنا يا صلاح الدين».

بعد نهب الأوقاف المغربية في القدس أعد المغاربة القيمون عليها جردا كاملا أودعوه المكاتب الرسمية ولا زال موجودا. كما سجلوا اعتراضهم على القرارات الإسرائيلية الجائرة في حق تلك الأوقاف منبهين إلى أن القانون الدولي لا يجيز لسلطات الاحتلال أن تستملك أي جزء من الأراضي التي تحتلها. خاصة وأن ما بها من عقارات وأوقاف تخضع لأحكام الشريعة الإسلامية وشروط من أوقفوها، فلا يسوغ تفويتها بأي ذريعة كانت. وأعلن المغاربة كذلك احتفاظهم بحقهم في اتخاذ الإجراءات القانونية الكفيلة بإبطال مفعول القرارات المتخذة من طرف سلطات الاحتلال. لكن هذه أصمت أذنها واستمرت في هدم العقارات وإزالتها من الوجود.

ولعل من المناسب أن نثبت هنا نص وثيقة تاريخية ترجع إلى مائتي سنة وتبين الفرق الشاسع بين معاملة المسؤولين في بلادنا للمواطنين من أتباع الديانة الموسوية وسلوك السلطات الإسرائيلية إزاء المواطنين المسلمين الذين هاجر أجدادهم إلى فلسطين منذ القرن الثالث عشر الميلادي فاختاروا واختار أباؤهم من بعدهم القدس الشريف دار قرار. هذه الوثيقة عبارة عن أمر أصدره جد العائلة المالكة السلطان محمد بن عبد الله إلى عماله. وها نص الوثيقة :

«نأمر من يقف على كتابنا هذا... من سائر خدامنا وعمالنا من القائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود بسائر ايالتنا بما أوجبه الله من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام. حتى لا يلحق أحدا منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام. ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام. وأن لا يعتدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم. لا في أنفسهم ولا في أموالهم. وأن لا يستعملوا أهل الحرف إلا عن طيب أنفسهم. وعلى شرط توفيتهم بما يستحقون على عملهم. لأن الظلم ظلمات يوم القيامة. ونحن لا نوافق عليه. لا في حقهم ولا في حق غيرهم ولا نرضاه. لأن الناس كلهم في الحق سواء. ومن ظلم أحدا منهم أو تعدى عليه فإننا نعاقبه بحول الله. وهذا الأمر الذي قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقررا ومعروفا ومحررا. ولكن زدنا هذا المسطور تقريرا وتأكيدا ووعيدا في حق من يريد ظلمهم. وتشديدا ليزيد اليهود أمنا إلى أمنهم. ومن يريد التعدي عليهم خوفا إلى خوفه صدر به أمرنا المعتز بالله في السادس والعشرين من شعبان المبارك سنة 1198 هـ».

نص هذه الوثيقة غني عن التعليق. سار على نهجه والد الملك الحسن الثاني بطل التحرير محمد الخامس طيب الذكر حين رفض رفضا باتا أن يضام اليهود المغاربة في عهده أو تمس مصالحهم بسوء في أثناء الحرب العالمية الثانية حين حمل إليه ممثل الحكومة الفرنسية الجنرال نوجيس. وكانت فرنسا تحت الاحتلال النازي. مشروع تدابير استثنائية جائرة لتطبق على أولئك اليهود أسوة بمثلها كانت تطبق على اليهود الفرنسيين.

نعود إلى لجنة القدس للتحدث في كثير من الإيجاز عما قامت به من الأعمال برئاسة جلالة الحسن الثاني. وبتوجيه منه. وقد لا يتسع المقام لاستقصاء هذه الأعمال والنتائج المترتبة عنها. فنكتفي باجتزاء أهمها : لقد عقدت لجنة القدس. كما مر بنا. سبع دورات بفاس ومراكش والرباط. ودورتين طارئتين احداهما بالدار البيضاء. والثانية باسلام اباد. ودورة قمة ثلاثية للمنظمة وللجنة القدس.

وكانت الدورة السابعة العادية تتويجا لأعمالها حيث انعقدت بمراكش يومي 6 و 7 ربيع الثاني 1403 هـ / 21 و 22 يناير 1983 وشاركت فيها اللجنة السباعية العربية المنبثقة عن مؤتمر القمة العربي بفاس الذي سبق انعقاده في سبتمبر 1982 واعتمد خطة عربية تكفل تحقيق السلام القائم على العدل في الشرق الأوسط وكان له دوي كبير في العالم أجمع.

يمكن التأكيد بأن لجنة القدس في شكلها الحاضر توفقت في تطويق مشكلة فلسطين والشرق الأوسط من جميع جوانبها ووضعت استراتيجية متكاملة حرصت على تنفيذها سياسيا وإعلاميا، عربيا وإسلاميا ودوليا، فأتت النتائج على مستوى المجهود المبذول. لقد واجهت اللجنة ظروفا في غاية الصعوبة وتحديات في منتهى الخطورة قابلتها بما يلزم من الانضباط والحزم. من ضمن التحديات إقدام الكيان الإسرائيلي على ما أسماه بالقانون الأساسي بضم القدس الشريف وجعله عاصمة موحدة وأبدية لإسرائيل. وذلك في صيف 1980، وشروع اسرائيل كذلك في غزو لبنان في يونيو 1982 وما قامت به وشجعته من مذابح في مخيمي صبرا وشاتيلا، ومضاعفة زرع المستعمرات اليهودية في الضفة الغربية بما فيها القدس الشريف وقطاع غزة.

وقد صادقت لجنة القدس على برنامج عمل اسلامي :

- أكد على اعتبار قضية فلسطين قضية الأمة الاسلامية الأولى وعدم جواز التنازل من لدن أي طرف من الأطراف عن هذا الالتزام في أي ظرف من الظروف مع التعهد بتحرير كل الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة منذ عدوان 1967 بما في ذلك القدس الشريف وعدم قبول أي شروط أو أي بديل بالسيادة العربية على المدينة المقدسة.

● والتزم باستعادة الحقوق الوطنية الثابتة للشعب العربي الفلسطيني بما في ذلك حقه في تقرير المصير والعودة وإقامة الدولة الفلسطينية على ترابه الوطني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني مع مواصلة دعم هذه المنظمة وتعزيز استقلالها ودعم صمود الشعب الفلسطيني ونضاله كذلك داخل الوطن المحتل وخارجه حتى يتم تحقيق استعادة حقوقه الوطنية الثابتة، مع الالتزام باستخدام جميع الإمكانات العسكرية والسياسية والاقتصادية والموارد الطبيعية لدعم الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني في مواجهة الكيان الصهيوني.

- والتزم برنامج لجنة القدس بتكثيف السعي لكسب المزيد من التأييد العالمي لقضية فلسطين ومواصلة العمل في نطاق منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة، وملاحقة محكمة العدل الدولية واليونيسكو والجمعية العمومية وغيرها لاستصدار قرارات في إدانة اسرائيل وممارساتها الرامية لانتهاك الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني وتحمل مسؤوليتها في مواجهة الرفض الإسرائيلي المستمر لتطبيق القرارات الأممية.

- والتزم أيضا برفض أية تسوية لقضية فلسطين والصراع العربي - الإسرائيلي لا تكفل المبادئ المتقدمة.

- وطالب بتعزيز علاقات الدول الإسلامية بالخارج وتوثيق اتصالاتها مع دول أمريكا اللاتينية وحاضرة الفاتكان واتحاد الكنائس العالمي والمقامات والمؤسسات المسيحية لضمان وقوفها إلى جانب السيادة العربية الكاملة على القدس وتأييد الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني.

- كما حث برنامج العمل الإسلامي على مطالبة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بتغيير موقفها نحو قضية فلسطين والحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير واعتبار دعم الولايات المتحدة المتواصل للكيان الصهيوني موقفا عدائيا تجاه العالم الإسلامي وتحديا لمشاعر المسلمين.

وفيما يتعلق بقضية القدس، التزم برنامج لجنة القدس بالخصوص :

- بمجابهة القرار الإسرائيلي بالضم وعدم قبول أي وضع من شأنه أن يمس بالسيادة العربية على القدس وتطبيق المقاطعة السياسية والاقتصادية على الدول التي تعترف بالقرار الإسرائيلي أو تقيم سفارات في القدس، وتوجيه الدعوة في هذا الشأن إلى جميع دول العالم والمجموعة الأوربية لاحترام الشرعية الدولية.

- وقيام الدول الإسلامية عبر وسائل الإعلام بالتعبئة النفسية باتجاه الجهاد لتحرير فلسطين والتأكيد على تغطية رأسمال صندوق القدس ووقفية هذا الصندوق للقيام بمواجهة الاحتياجات الضرورية والملحة إلى غير ذلك من القرارات

التي تضمنها برنامج العمل الإسلامي وتكفلت لجنة القدس بمتابعتها والسهر على تنفيذها.

هذه القرارات. فما هي الأعمال والمنجزات ؟

بذلت لجنة القدس برئاسة جلالة الملك الحسن الثاني نشاطا مكثفا على جميع المستويات لمواجهة التحديات التي كانت تتمثل في مبادرات الكيان الإسرائيلي داخلا وخارجا. وركزت بالأخص على العمل الدبلوماسي في المحافل والمجموعات الدولية لفضح الكيان الصهيوني والسعي لإحباط مخططاته وعزله مستعملة كل الوسائل المتاحة لها من اتصالات ووفود وبعثات ومذكرات وغيرها من الوسائل. لقد توجه الملك الحسن الثاني على رأس وفد إسلامي إلى حاضرة الفاتيكان وباريس حيث اجتمع بقداسة البابا يوحنا بولس الثاني والرئيس السابق جيسكار ديستان والرئيس الحالي فرنسوا ميتران. ثم توجه جلالته إلى الولايات المتحدة الأمريكية على رأس وفد عربي كذلك لشرح خطة السلام العربي. كما وجهت لجنة القدس المذكرات والوفود لبعض الحكومات التي كانت تنوي نقل سفاراتها إلى القدس تلبية لرغبة الحكومة الإسرائيلية ودعت الجمعية العمومية ومجلس الأمن للانعقاد بشأن الممارسات الإسرائيلية وقرار الكنيست بضم القدس. إلى غير ذلك من المبادرات.

وكان لعمل اللجنة نتائج إيجابية نذكر منها موقف قداسة البابا من قضية القدس الشريف عند زيارته للأمم المتحدة في خريف 1980 واستقباله لوفد فلسطيني في بداية سنة 1983 كما أن السياسة الفرنسية عرفت تطورا ملحوظا لصالح القضية الفلسطينية، وكذلك موقف الجماعة الأوربية كما أسفرت عنه مختلف دوراتها وخاصة اجتماعها الأخير في بروكسيل غداة اجتماع اللجنة السباعية بالمسؤولين البريطانيين.

ومن النتائج المهمة صدور قرار مجلس الأمن بشأن ضم القدس يوم 20 أغسطس 1980 خلال اجتماع طارئ تحت رقم 418. وجدير بالذكر أن المجلس الذي كان منعقدا لبحث هذه القضية أجل اجتماعه انتظارا لقرارات لجنة القدس. ثم اتخذ قراره المتقدم «شجب فيه بأشد العبارات مصادقة إسرائيل على القانون الأساسي حول القدس» وقرر عدم الاعتراف به وبالإجراءات الأخرى التي اتخذتها اسرائيل لتغيير طابع القدس ووضعها القانوني. وطلب من الدول التي اقامت سفارات في القدس أن تسحبها. هذا. بالإضافة إلى قرار سابق اتخذه مجلس الأمن تحت رقم 465 حول المستوطنات الإسرائيلية وقرار تحت رقم 476 حول الممارسات الإسرائيلية، في الضفة الغربية وقطاع غزة.

«إن وجود القدس عاصمة لفلسطين هي وحدها الكفيلة بأن تجعل منه مكانا يتعايش فيه اليهود والمسيحيون والمسلمون في كنف الإخاء إلى جانب مقدساتهم مرددين آيات الثناء والشكر لله الواحد الأحد».

ومن المبادرات المهمة التي اتخذها عاهل المغرب الحسن الثاني بوصفه رئيسا للجنة القدس ورئيسا لمؤتمر القمة العربي الثاني عشر الذي صدرت عنه خطة السلام العربية استدعاء اجتماع مشترك للجنة القدس واللجنة السباعية المنبثقة عن القمة العربية. وبذلك أكسب العاهل المغربي بعدا جديدا للخطة حيث وافق الاجتماع على بيان وتوصيات جاء فيها :

«تأكيد دعم الدول الإسلامية القوي لجهود الدول العربية في سبيل تحقيق أهداف الأمتين الإسلامية والعربية بخصوص قضية القدس الشريف وفلسطين... والاتفاق على أن خطة السلام العربية التي اعتمدت من طرف مؤتمر القمة العربي بفاس تعتبر منطلقا جديدا للتحرك العربي الإسلامي من أجل الوصول إلى حل شامل ودائم وعادل في الشرق الأوسط على أساس الحق والعدل». ودعت اللجنة المشتركة في التوصيات إلى العمل المشترك بين اللجنة السباعية العربية ولجنة القدس بما يحقق الأهداف العربية والإسلامية. وإلى وضع خطة لمواجهة الأخطار المتمثلة في استمرار الاستيطان الإسرائيلي والقيام بتحرك دولي لشرح خطة السلام العربية وكسب التأييد لها من لدن دول عدم الانحياز ودول العالم الثالث عامة، وحاضرة الفاتيكان واتحاد الكنائس العالمي وغيره.

●●●

هذه أعمال ومنجزات تعتبر تعبيرا عن صمود الشعب الفلسطيني وثباته ورافدا من الروافد في طريق النضال الذي يخوضه بجميع فئاته وتعينه فيه شعوب ومنظمات وإرادات مخلصة. إن قصة نضال الشعب الفلسطيني مع الصهيونية في عصرنا هذا تحكي قصة كفاح كل الشعوب المناضلة. في سبيل وجودها وإثبات ذاتها ضد العنصرية والتسلط الأجنبي. وتلخص آماله آمال الأمة الإسلامية والعربية في الحرية والتقدم والسلام العادل. لقد بدا بما لا

جدال فيه أن إسرائيل بتعنتها ورفضها الجلاء وإصرارها على زرع المستعمرات وتغيير الطبيعة المادية والبشرية والحضارية لفلسطين والقدس إنما تسعى لإغلاق سبل السلام.

إن القدس الأسيرة وكل الضفة الغربية وغزة لتعاني المرائر تحت معاول التشويه بالرغم عن صمود أهلها وما يستهدفون له من ضغط وحرب نفسية وفقدان الهوية الوطنية والتاريخية، فالكيان الصهيوني يريد أن يشطب عشرات القرون من التاريخ والتراث والحضارة واقتلاع شعب بكامله من أرضه وحرمانه من ممارسة تقرير مصيره. «إن إسرائيل أرادت وتريد الأرض العربية والسلام، أرادت وتريد بقاء الشعب الفلسطيني مشردا خارج وطنه أو أسيرا في ظل الاحتلال لا تحقيق الأمن والتعايش الإنساني».

ومن ثم فإن الطريق ما يزال طويلا.. وما يزال شاقا. ولا سبيل إلى بلوغ منتهاه إلا بصمود الشعب الفلسطيني في الكفاح ومضاعفة البذل والتضحية بمزيد من الإيمان والإرادة كي يسترد كيأنه وحقوقه الإنسانية والقومية، يؤازره ويدعمه في تحقيق هذه الغاية كافة ذوي النيات المخلصة.. وإنه لبالغ مطامحه بمشيئة الله أحب من أحب وكره من كره.

قاسم الزهيري



جوامع المغرب ومساجده

نماذج رائعة للفن المعماري المغربي

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

لعل أول بوتقة انصهرت فيها مع الأيام مظاهر الفن المعماري الشرقي المغربي هي مدينة فاس التي أقامها المولى ادريس عام 192 هـ بالموضع المعروف بجراوة وقد أحاط عدوة الأندلس بسور فتح في جوانبه عدة أبواب وجهز المدينة بجامع للخطبة وهو (جامع الأشياخ).

وقد إتجه المرابطون خاصة نحو هندسة المساجد التي لم يعد يخلو منها ربض ولا زقاق لاسيما في فاس كما اهتموا ببناء القلاع على غرار الحصون الأصلية مع الإقتباس في آن واحد من الأندلس، وأول ما تجلى هذا الإقتباس في فاس حيث استقدم يوسف بن تاشفين من قرطبة جملة من صناع طوروا مساجد المدينة وسقاياتها وحماماتها وخاناتها كما استقدم علي بن يوسف المهندسين الأندلسيين لبناء قنطرة (تانسيفت).

ثم جاء الموحدون فاستطاعوا بفضل ما أبدعوه من روائع تبوؤ المقام السامي في تاريخ الفن الإسلامي لاسيما في عهد يوسف الذي عاش في اشبيلية حيث زينها باروع البنايات والمؤسسات العمومية ثم جاء ولده يعقوب المنصور فكان أبدع بناء في تاريخ المغرب الفني وقد تجلت هذه البدائع خاصة في اشبيلية والرباط ومراكش ومناراتها (خيرالدا وحسان والكتبية) وأصبحت مراكش ببناياتها وقصورها وحدائقها اشبه ببغداد في الشرق كما اشبهت مدينة فاس دمشق في روائها الفني وطبيعتها الخلابة.

وقد خلف بنو مرين الموحدين في الربوع الافريقية فكان للفن المريني ميسم خاص اذا قورن بالفن عند (بني عبد الواد) في تلمسان والحفصيين في تونس في حين واصل بنو نصر في غرناطة تقاليد الفن الأندلسي.

غير أن الطابع العام لم يتغير وكذلك الإتجاه الفني الذي انصرف عنه بنو الأحمر الى زخرفة القصور في حين تجلى عند المرينيين في اقامة المدن المحصنة والمساجد والمدارس.

وقد لاحظ ابن مرزوق في مسنده أن إنشاء المدارس كان في المغرب غير معروف حتى انشئت (مدرسة الحلفائيين) بمدينة فاس (مدرسة الصفارين) عام 760 هـ ثم (مدرسة العطارين) و (مدرسة البيضاء) ثم (مدرسة الصهريج) ثم (مدرسة الوادي) ثم (مدرسة مصباح).. ثم انشأ أبو الحسن في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط مدرسة، فقامت عند ذاك مدارس لايواء الطلبة في تازة ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وانفا وازمور وأسفي واغمات مراكش والقصر الكبير والعباد (تلمسان) والجزائر وقد اقام بنو مرين كذلك «من اسفي الى جزائر بني مزغانة وأول إفريقية محارس ومناظر إذا ظهرت النيران في اعلاها تتصل المراسلات بينها في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة».

ولكن ما هي ميزات الفن المريني ؟ أن الجامع الكبير في تازة وكذلك مسجد أبي يعقوب المريني في وجدة يحتفظان أحيانا بتلك الفخامة التي يتسم بها الفن الموحدي ولكنهما يضيفان رقة الأشكال وتشعب الرسوم وتداخل التسطيرات والتوريقات والمقربصات والزليجات ويلاحظ في المدرسة العنانية بفاس تشابه واضح في الهندسة والترخيم مع مدارس الشرق.

وهذه المدرسة هي مدرسة ومسجد في آن واحد مجهزة بمنارة ومنبر للجمعة ومنجانة ذات ثلاث عشرة من الطسوس (شعار كل ساعة فيها أن تسقط صنجة في طاس وتفتح طاقات).

ومن خواص الفن المريني النقش على الخشب والادهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه وترصيع المنارات بالزليج.

اما في عهد السعديين الذي بدأ الفن المعماري يتحجر فيه نسبيا فانه يمتاز (بقصر البديع) الذي وصفه (الأفراني) بانه يفوق قصور بغداد روعة وجمالا ورغم هذا التحجر لايمكن أن يعتبر هذا الفن سوى امتداد للفن المغربي الأندلسي مع مميزات جديدة حيث أن المنصور الذهبي استقدم الصناع والمهندسين من مختلف البلاد وحتى من أوروبا.

ومن المآثر السعدية الباقية بعض مساجد مراكش (المواسين والقصبة وباب دكالة) وقبور السعديين الرائعة وجناحان في جامع القرويين.

وقد كفل العلويون امتداد هذه التقاليد الفنية فجهز مولاي رشيد مدينة فاس بالحصون على غرار بني مرين وأقام مدرسة الشراطين.

أما هندسة المساجد فقد كانت مزيجا من هندسة الدول السالفة.

ومن حيث هندسة البناء الدينية يظهر أن الفن المسيحي لم يترك أثرا يذكر في البلاد حيث أن المغرب نقل عن المشرق طريقته في الزخرفة التي تزدان بها مساجده ومختلف مؤسساته الدينية. وهي الطريقة الإسلامية التي أثارت أعجاب مهندسي الكنائس الرومانية في فرنسا. وظهرت آثارها فيما شيدوه بها من معابد خلال القرون الوسطى.

نعم يقال أن ذلك الاشعاع الفني الإسلامي لم تتعد آثاره نطاق الجزئيات (ريكار) ولكن كم يكون فن القرون الوسطى المسيحي جافا وباهتا كما يقول الأستاذ ريكار نفسه لو أنه خلا من هذه الجزئيات ومن روعة الوانها وجمال خطوطها.

وأول مملكة عربية تركزت في المغرب هي مملكة (نكور) الواقعة بالريف على شاطىء البحر الأبيض المتوسط وذلك في عصر الوليد الأموي بامارة (صالح ابن منصور الحميري).

وقد غزا الإسلام منذ العقود الأولى للفتح قلوب صنهاجة وغمارة فاتجهت الجهود إلى بناء رباط في عهد الأمير (سعيد بن صالح) يحتوي على مسجد بمرافقه يحتوي تصميمه الهندسي من جامع (الأسكندرية) وكان الاسلوب المعماري بسيطا تبعا للفن الشرقي الإسلامي الذي كان لا يزال اذ ذاك في فجر انبثاقه فجامع عمرو بن العاص (عامل مصر) مثلا خال من كل زخرفة وتنصيق كالقربصة والنقشين الخشبي والمرمري وسائر العناصر المعمارية الدقيقة التي امتاز بها الفن العربي في العصور التالية.

ومن هذا الطراز مسجد (أغمات غيلانة) الذي أسس عام 85 هجرية والذي يظهر أنه أول مسجد بناه المسلمون بالمغرب بعد أن حولت المعابد التي بناها المشركون إلى مساجد وجعلت المنابر في مساجد الجماعات (2) وبدأت افريقيا تتطور روحيا وفنيا على نسق الشرق الإسلامي.

وقد لاحظ الكاتب الفرنسي (جورج مارسي) وهو من كبار مؤرخي الفن الإسلامي - أن بلاد البربر أسست منذ القرن السابع الميلادي. فكانت عبارة عن مرحلة في الطريق الكبرى التي تصل الهند بجبل (البرانس) باسبانيا والتي يطرقها علاوة على رسل الخلفاء وسفرائهم ثلة من الحجاج والطلبة والفنانين والتجار (3) فلا يسعنا والحالة

1) صالح بن منصور الحميرى افتتح اقليم نكور زمن الوليد بن عبد الملك ونزل تلمسان وعلى يديه اسلم بربرها من صنهاجة وغمارة. وسعيد بن ادريس هو الذي بنى مدينة نكور (المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب للبكرى الجزائر 1911 م ص 91 - 92.

2) المغرب لابن عذارى ج 1 ص 37.

3) مقدمة (كتاب الفن الاسلامي).

هذه ان تستهين بآثار عهد الإسلام المتديمة والمنبعثة بواسطة هذه المسالك ومن ابرز مظاهر هذا الاشعاع الفني انبثاق مساجد وجوامع تتسم بطابع عربي أصيل وتوجد خاصة بافريقية العناصر الأولية للفن الإسلامي.

ويمكن أن تعتبر مدينة فاس أول مركز عربي تفتق في البلاد المغربية وأصبح بعد ذلك حسب كوتيي مظهر اعجاز في ميدان التكيف بالطابع الشرقي. ذلك أن الفن اتخذ مناهج جديدة منذ العصر الأموي في كل من الشرق الأدنى والمغرب العربي بفضل مرونة حساسية العرب ومداركهم الابداعية. فهناك عوامل حدت العرب في الأندلس والمغرب وكذلك بمصر الى الاستيحاء في زخارفهم من معطيات الهندسة وهذه العوامل هي اهمالهم للاشكال والصور المستمدة من الطبيعة وتعمقهم في دراسة الرياضيات وسعة مواهبهم واذواقهم.

وقد تبلور هذا الاتجاه مع مرور الاعصار وتهذبت أطرافه ورقت حواشيه وتنمقت معالمه.

وكان لفاس أثرها القوي حتى في افريقيا وبذلك أمسى مهد الإسلام بافريقيا تابعا لمدرسة برابرة الغرب الإسلامي (4) ويرجع فضل هذه النهضة الى المولى ادريس الثاني الذي امد حاضرة العلم باولى مؤسساتها.

وقد اقام المرابطون عددا كبيرا من المؤسسات الدينية في المغرب الأوسط جوامع جزائر بني مزغنة وندرومة وتلمسان (5) وكذلك في المغرب مدرسة الصابرين بفاس وجامع ابن تاشفين بمراكش (6) وتدل الحفريات الأثرية الأخيرة على ان في الامكان تحديد موقع هذا المسجد العتيق في وسط المدينة وقد كشفت مصلحة الفنون عن قبة مرابطية هي (قبة البردعيين) قرب (جامع ابن يوسف) بمراكش.

اما في فاس فان جامع القرويين المؤسس عام 245 هـ قد وسعت جنباته في عهد المرابطين على الشكل الذي مازال عليه الى الان كما يتجلى ذلك من الوصف الوارد في (القرطاس) و (زهرة الآس) وقد بني جامع القرويين طبقا لتصميم أصيل فصحونه موازية للقبلة على غرار (مسجد الشرفاء) الذي بناه (المولى ادريس) بفاس وكذلك (جامع ابن طولون) بالقاهرة وجامعي بعلبك ودمشق.

والمواد الأساسية للبناء كانت تشكل في القرن الثالث الهجري من الآجر والجبص والطوب والطوابي فسور (جراوة (7) مثلا بني بالطوب عام 257 هـ وكذلك (رقادة) بافريقية عام 294 والبصرة المهدمة عام 368 هـ هذا بينما استعمل البناؤون الجص والمرمر والآجر في جامع القرويين لدى تجديد بنائه عام 252 هـ على يد الأندلسي محمد بن حمدون (8).

وقد اكد المؤرخ الفرنسي طيراس (9) لدى حديثه عن الفن المرابطي أن عليا بن تاشفين فاق والده بكثير في المؤسسات المعمارية مع ان يوسف نفسه كان من كبار البناة والمؤسسين وقد اندثرت اعلام جميع ما اقامه من قصور ومساجد في مراكش باستثناء قبة البردعيين (قرب جامع بن يوسف) ومسجد تلمسان (عدا منارته) ومعظم اروقة جامع القرويين الزاخر بروائع الفن الأندلسي المقتبس طبق الأصل من الفن الأندلسي بما كان ينطوي عليه في القرن الخامس الهجري من رقة ورشاقة وروعة زخرف ومع ذلك فان اسهام المرابطين في الفن كان مهما لايخلو من تجديد فالفنان لايمكن أن يستيغ ويقتبس الا ما تمكن تقريبا من الكشف عنه (10) ولنا على ذلك دليل قوي في النفوذ الشامخ الذي بسطه المرابطون في الأندلس وافريقية وذلك في العمل البناء الذي حققوه في هذا الجزء من المغرب الاسلامي وقد لاحظ (كودار) (11) عن حق أن اقامة المرابطين لصروح اكبر امبراطورية أسست في العالم حيث امتدت من الأندلس الى اجزر الباليار) الى انهر النيل النيجر) لتنم لدى الفاتح المرابطي عن تفتح مدارك قوية.

وبعد انهيار دولة المرابطين اعتلى اريكة العرش زعيم المصامدة الموحدين (المهدي بن تومرت) المنحدر من الأطلس الكبير ثم خلفه (عبد المومن بن علي) الذي وصفه

---

4) (الفن الاسلامي) جورج مارسي ج 2 ص 469.
5) هذان الجامعان الاخيران هما نهاية في البساطة الخلابة وهما خاليان من كل كتابة تنم عن مؤسسهما غير ان تاسيسهما يرجع في الغالب الى ابن تاشفين (الهندسة المعمارية الاسلامية في المغرب مارسي ص 191).
6) ورد في معجم ياقوت (ج 5 ص 184) ان عدد الحمامات 180.
7) تقع (جراوة) حسب الادريسي قرب مليلية على مسافة ستة اميال من البحر (مختصر النزهة ص 54).
8) وبنى اسواره (ابن الاشعث) عام 246 هـ البيان لابن عذارى (ج 1 ص 85).
9) تاريخ المغرب ج / ص 252.
10) مقدمة كتاب الفن الاسلامي لمارسي.
11) في كتابه (وصف وتاريخ المغرب) ج ص 134.

بعض المؤرخين الأجانب بانه اعظم شخصية بدون منازع طوال القرون الوسطى البربرية.

ان قادة الموحدين الذين ركزوا للمرة الاولى وحدة الإسلام السياسية من حدود (قشتالة) الى (ليبيا) قد ساهموا في تاصيل نوع من التوحيد بين عناصر الفن الاسلامي في المغرب (12).

وقد استمر نفوذ الموحدين ازيد من قرن. كان لهم في غضونه اعمق الاثر في عدوة الأندلس المترامية الاطراف. فانتصار يعقوب المنصور في الاندلس قد اضفى على الفن طابعا خاصا وحقق بتساوق مع مدرسة القيروان التجانس الفني بين الشرق والغرب.

وقد احتل الموحدون في تاريخ الفن الاسلامي مكانة مرموقة تفوق ماكان للمرابطين في هذا الحقل. وذلك بالرغم عن معارضة المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية لبعض مظاهر هذا الفن كالموسيقى والسماع والزخارف والنقوش.

وكان ابن يوسف هذا يقطن في (اشبيلية) التي زخرف معمارها بابهى واروع مما زين به حاضرة مراكش. اما ولده (يعقوب المنصور) فان بدائعه الفنية تشهد بانه اروع بناء في العصر الموحدي (13) مثال ذلك المؤسسات المقامة في اشبيلية والرباط ومراكش.

وبفضل الموحدين تجلى القرن السادس لبعض علماء الاثار كعصر بلغ فيه الفن الاوج في القسم الغربي من العالم الاسلامي (14). وقد شرع (عبد المومن) في ان واحد في بناء مسجد (تازتو) والمدينة نفسها وكذلك مسجد (تينمل) مهد الدولة الموحدية الذي لم تبق منه سوى معالمه. اما في مراكش فان (الكتبية الاولى) هدمت وقد تمكنت مصلحة الاثار الاسلامية والفنون الجميلة من الرسم الاول لهذا المسجد ثم بنى اولاده (الكتبية الحالية) محاذية للاولى ومتوجهة بدقة نحو القبلة. غير ان جانبا من هذه البنايات لم يتم الا في عهد يعقوب المنصور.

وتبدو الهندسة المعمارية الموحدية في اجلى واجل معالمها في مساجد مراكش وحسان (بالرباط) اومرصد الخالدة باشبيلية) (15).

ففي (منارة الكتبية) توجد طبقات متوالية من الغرف المقوسة السقف تصل بينها درج مركزية لامرقاة لها. ويلاحظ وجود نفس التصميم في كل من (الخالدة) و (حسان). فالجدار مطلية بحص صفر اكلس اي ضارب الى اللون الرمادي. ومازال هذا التبليط جاريا به العمل في مراكش الان. وتنعكس على صفحته تموجات وضاءة تنسل الى داخل المنارة من النوافذ المفتوحة في عرض الحائط وتؤدي الدرج اخر المطاف الى الجزء العلوي من المئذنة المطل على المدينة وتستمد النقوش تسطيراتها من اشكال الزهر والسعف الجامعة بين القوة والرقة (16). اما في الطبقة الارضية فان القبة مخروطة الشكل تبعا للاسلوب الاسلامي الاسباني بينما تحتوي القاعة السادسة والاخيرة على اغنى قبة ثمانية الهنداء ذات اضلاع ومقربصات تتكون منها مجموعة هندسية رائعة ولكن لا يلاحظ في مجموعة اجزاء المنارة اي عنصر جديد بمس الاسلوب او الهنداء العام الشائعين في المغرب اللهم الا اذا استثنينا ضخامة (برج المئذنة) وقمتها والتناسق الاصيل في الزخرف والتنسيق. وقد اكد كل من (طيرس) و (باسي) ان (الكتبية) اجمل معبد اقامته الخلافة الاسلامية في المغرب. وانه يعادل في حدة اسلوبه روائع (الجامع الكبير بقرطبة) والانطباعة التي ترتسم في نفس الزائر لهذا المسجد هي الروعة والتاثير البليغ ذلك ان مساجد الموحدين كمل واروع المساجد الاسلامية. فهي عبارة عن خميلة من الاساطين تتجلى في غضونها جلالة الصحون والاروقة الممتدة بين الاعمدة والحنايا وصفاء الاقواس في رسومها المتناهية والجناس الاخاذ بين الصحن المركزي والصحون الجانبية باقواسها المقربصة وقببها البديعة وسقوفها الخشبية السامقة تتلالا في منتهى الصحن الذي تحب عليه اشعة خافتة وضاءة المحراب الناعمة وفصوص العاج المدمرة في تضاريس المنبر ولمعان الفسيفساء بحيث تنشق من هذه

---

(12) مارسي (الفن الاسلامي ص 105).
(13) مارسي الفن الاسلامي ج 1 ص 303.
(14) الهندسة المعمارية الاسلامية في المغرب ص 200.
(15) يوسف هو الذي شرع عام 567 هـ في بناء المسجد الاعظم باشبيلية (القرطاس) لابن ابي زرع (طبعة سلا، ج 2 ص 186).
(16) مجلة (هسبريس) التي تصدرها كلية الاداب بالرباط (المجلد السادس عام 1926، ص 107).

المجموعة المعمارية الخلابة عظمة تجمع بين الوداعة والنعومة. فجامع قرطبة رغم سعته لا يتسم بنفس الطابع من التجانس والتناسق ومع ذلك فان عددا كبيرا من رؤوس الاساطين في (الكتبية) هو من أصل أندلسي. فالاعمدة الأربعة التي تساند (قوس المحراب) من مخلفات (الفن الأموي) وتوجد أيضا في المسجد الموحدي بقصبة مراكش أعمدة أموية من الصعب وجودها ملتئمة في قرطبة نفسها. فجامع الكتبية يشكل (متحفا) حيا للاعمدة الموحدية التي ينيف عددها على الأربعمائة والتي مازالت تحتفظ باصالتها المتجلية في عبقرية الفنان الاندلسي الموحدي ومهارة يد الصناع وقد أكتسى في بناء رؤوس الاعمدة غلالة من الخصب الذي لاينضب معينه ولم يسبق له نظير في (الغرب الإسلامي)، ولن يسمح الزمان بمثله (17).

أما (منبر الكتبية) فقد تحدث عنه (ابن مرزوق) في (مسنده) (18) فأشار الى ما أكده أهل الفن من جودة واتقان ترصيع منبري (جامع قرطبة) ومسجد (الكتبية) في حين ان المشارقة لاعلم لهم بفن النقش على الخشب برقة واناقة. ويرجع تاريخ صنع هذا المنبر الى (عبد المومن بن علي) (19).

ويرى كل من (طيراس وباسي) (20) ان هذا المنبر هو أجمل منبر في الغرب الاسلامي بل أبهى وأروع منبر في العالم الإسلامي أجمع ومازال قائم الذات الى عصرنا هذا في (الكتبيـة)، إلا أن بعض أجزائـه تميـل الى التداعـي وقد تعرض (ميليـي Milie) في كتابه عن (الموحدين) (ص 128) إلى المنارات الثلاث، فذكر أن قيمتها لا ترتكز على ضخامتها وتوازنها فحسب بل أيضا على فخامة هندامها ونسبها الوافية بمقتضيات الاناقة مع بساطة في الزخرف والنقش وأصالة في الذوق الذي يحدق بها ويحويها دون مساس بوحدة هذه المجموعة التي تسري في معالمها آثار السلطان المؤسس لها محي الملة والدين وحامي التقاليد . بل مدعم الإسلام في ربوع المغرب.

وقد ازدهرت مظاهر الحضارة والعمران في عهد بني مرين الذين أصبحوا أقوى ملوك إفريقيا الشمالية (21) إذ بالرغم عن محتدهم الصحراوي فان هؤلاء الرجال استطاعوا بفضل اتصالهم المزدوج بـ (بني نصر) ورثة الحضارة الأندلسية وبالموحدين التكيف والانسياق في مجرى الحضارة تبعا للمقتضيات المدنية مع استمداد من معطيات الفكر الإسلامي والمجالي الطريفة في التجديد. وقد تبلور اتجاههم في إقامة المدارس المحصنة والمساجد وقباب الأضرحة والفنادق المزخرفة والمدارس الفخمة التي أضفت على المغرب المريني طابعا خاصا من الروعة والبهاء.

وقد لاحظ الأستاذ (ألفريد بيل عن حق أنه خلافا لتقاليد الشرق كان الملوك في طليعة من تبنى تأسيس المعاهد، في حين تكفل بذلك الوزراء في المشرق (22).

وقد اتسمت هذه الحركة المعمارية بطابع ديني في كثير من الاحايين حيث أقام المرينيون مجموعة رائعة من المساجد في تازة ووجدة (23) وتلمسان (24) وقد تم ذلك خاصة في عهد أبي الحسن بفاس والمنصورة (قرب سبتة) وطنجة وسلا ومكناس ومراكش. كما أقيمت معابد حول أضرحة الملوك مثل (مقابر المرينيين في شالة) (بالقرب من رباط المجاهدين) حدا الملوك منذ عهد (أبي يوسف) إلى عهد (أبي الحسن) إلى اختيار هذا الحدث الطاهر. وقد أضفى أبو الحسن على هذه الأضرحة السلطانية مسحة من الروعة والجلال بتسويرها وزخرفتها واقامة مسجد ثان حولها. وكان هذا الأمير إذاك في طليعة زعماء الإسلام بالمغرب حيث توحدت إفريقيا الشمالية لأول مرة منذ عبد المومن الموحدي تحت راية أمير واحد من (قابس) إلى (المحيط الأطلنطيقي) وبلغت الدولة المرينية أوج عظمتها كما بلغت حضارتها قمة روعتها وأمسى أبو الحسن كما يقول اندرى جوليان أقوى ملك في المغرب خلال القرن الرابع عشر (25).

---

17) طيراس وباسي (هسبريس مجلد 6 عام 1926، ص 107).

18) مقتطفات نشرها ليفي بروفنصال في مجلة هسبريس عام 1925، ص 65.

19) الحلل، طبعة تونس ص 109.

20) هسبريس مجلد 6 عام 1926، ص 169.

21) راجع تاريخ افريقيا الشمالية لاندري جوليان.

22) الجريدة الاسيوية الكتابات العربية بفاس عام 1917 و1918 (ج 10 ص 152).

23) أبو يعقوب هو الذي بنى مسجد وجدة عام 696 هـ حسب (القرطاس)، وقد لاحظ مؤلف (الذخيرة السنية) (ص 150) أن أبا يوسف هدم وجدة (عام 670 هـ).

24) راجع مقتطفات (المسند لابن مرزوق) في (هسبريس ج 5 ص 32 عام 1925) حيث لاحظ ابن مرزوق أن الرحالين مجمعون على اعتبار هذا المسجد كجامع هو الأول من نوعه. وقد أسس أبو الحسن مدرسة (العتين) التي اندرست معالمها منذ قرون.

25) تاريخ افريقيا الشمالية 1931 هـ ص 446.

وفي عهد المرينيين اسست زاوية شالة (26) التي تعبد فيها الشاعر الوزير بن الخطيب السلماني والتي اضافها (ابو الحسن) الى جناح الاضرحة بهذه المدينة الاثرية وهي بساحتها الداخلية وصهريجها واروقتها وغرفها اشبه بمعهد تتجلى فيه نفس المعالم الزخرفية المدرسية كالترجيب والنقش والزليج والفسيفساء والتبليط المرمري. وقد بنى (ابو عنان) (زاوية النساك) بسلا التي مازالت بابها المنحوتة من الحجر البديع قائمة الى الان مع بقايا غرفها الثلاث حيث كان يقطن (شيخ الزاوية) وطابقها الاول وصحن يتوسطه صهريج ويحيط به احد عشر مرحاضا للوضوء وتعتبر المدارس المرينية مساكن للطلبة ومركزا لدراستهم التي كانت تتابع في المساجد القريبة منها واحيانا كانت المدرسة نفسها تحتوي على مسجد صغير بمحرابه ومنارته.

وقد رسم التصميم العام لهذه المدرسة المغربية منذ القرن الخامس الهجري فهنالك صحن تقوم في جوانبه الثلاثة سلسلة من البيوت. وفي الجانب الرابع قاعة للعبادة. وتقوم في الطابق الاول في بعض الاحايين مجموعات اربع من الغرف تشرف على الصحن الداخلي.

ويمكن ان نعتبر توافر المدارس والمعاهد في عهد المرينيين بمثابة رد فعل ضد الحركة الدينية الموحدية وذلك باقرار برنامج يهدف الى نشر اراء جمهرة اهل السنة الذين نصب بنو مرين انفسهم للدفاع عنهم. وكان المرينيون متضامنين في ذلك مع جميع طبقات الصوفية التي ساندتهم في دعم هذه السلفية.

وقد اسست اول مدرسة مرينية عام 670 هـ بامر من ابي يوسف (27) وهي تحتوي على مسجد ومنارة وهي المؤسسة الوحيدة التي يرجع تاسيسها الى هذا القرن.

وفي القرن التالي اقيمت مجموعة من المدرس منها مدرسة فاس الجديد عام 720 هـ (وهي تضم ايضا مسجدا وصومعة ومدرسة العطارين ثم مدرسة الصهريج الكبرى) ومدرسة السباعيين (الصغرى) وكانتا متصلتين ثم اخيرا المدرسة المصباحية (28) هذه المدارس الثلاث الاخيرة بنيت بامر من ابي الحسن الذي زود بالمدارس كبريات مدن المغربين الاقصى والاوسط (تازة ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وانفا وازمور واسفي واغمات ومراكش والقصر الكبير والعباد بتلمسان وعاصمة الجزائر) اما ولده ابو عنان فانه اسس المدرستين الحاملتين لاسمه بفاس ومكناس.

ويلاحظ ان هذه المدارس كانت تشتمل اول الامر على منارة وتتجلى كمسجد علاوة على ميسمها كماوى للطلبة وكان تصميمها مزدوج المعالم عبارة في ان واحد عن مسجد مدرسي (كالقرويين) وعن جناح للسكنى ثم تبلورت في التصميم بعد ذلك مظاهر المدرسة فالغيت الصومعة (مثل مدرسة الصهريج) ثم تقلصت مساحة المسجد الذي اصبح لايعدو قاعة كبرى للصلاة دون زخرفة خاصة وحتى المحراب صار يقام رمزيا في شكل قوس اصم محاط باسطوانتين دقيقتين.

وقد استمر هذا الاتجاه فاسقط المحراب تماما بعد بعض سنوات من (المدرسة المصباحية) الا ان (مدرسة العطارين) وهي اخر مدرسة بناها ابو سعيد تحتوي على محراب ولعل ذلك راجع لضرورة تبرير مزيد الزخرفة والنقش (29) بمظهر ديني خاص. كما ان مدرسة سلا احتفظت بمسجدها ومحرابها نظرا لصبغتها الاستثنائية كمركز صوفي لا يحتوي على اية غرفة لسكنى الطلبة. (ومدرسة ابي عنان) في مكناس تمثل مرحلة انتقالية بين نوعين من المدارس يرجع عهدهما لابي الحسن وولده ابي عنان (مسجد مربع وأروقة في الجوانب الثلاثة من الصحن). اما (المدرسة العنانية) بفاس فهي تتسم بهيكلها الضخم وروعتها الأخاذة لجامع مزود بمنار ومنبر لخطبة الجمعة.

ولنضرب مثلا للفن المريني الرائع ببعض المآثر التي مازالت قائمة برباط الفتح ومنها (الجامع الكبير) الواقع قرب (باب شالة) الذي تحده في الجنوب الشرقي مقبرة تمتد الى السور الاندلسي وقد كتب على احدى أبوابه تاريخ 1299 هـ (1882 م) وهو تاريخ تجديد البناء في عهد الحسن الأول. كما أن لوحة التحبيس المرينية وهي صفيحة مربعة من الرخام مغروزة في احدى الاساطين

26) توجد لفظة الزاوية مكتوبة على الرخامة المرمرية وعلى خزف عثر عليه عام 1930 خلال الحفريات (الهندسة المعمارية الاسلامية ص 283).

27) راجع «المسند» لابن مرزوق (مقتطفات ليفي بروفنصال هسبريس ج 5 ص 35 عام 1925).

28) نص ابن مرزوق على انها من بناء ابي سعيد في حين ان الكتابات الموجودة بها تدل على ان مؤسسها هو ابو الحسن (راجع الاستقصا ج 2 ص 87 وكتابات فاس (لالفريد بل) ص 229).

29) هذه المدرسة ... ابهى واروع مدرسة من حيث الزخرف حتى في نظر الفنانين الاجانب (الهندسة المعمارية الاسلامية في المغرب ص 288).

المحيطة) بمكان العنزة هي نفسها التي كانت على ضريح السلطان أبي الحسن بشالة. ونقلت الى المسجد في عهد (مولاي اليزيد) العلوي الا أنها لاتشير إلى الجامع الكبير. كما يوجد (المارستان العزيزي) قبالته وقد ادخل جلالة الملك المقدس المرحوم محمد الخامس. على المسجد عدد إصلاحات وقد اختلف المؤرخون في تاريخ بناء هذا المسجد فأكد مؤرخ سلا (محمد بن علي الدكالي) انه من مؤسسات الأندلسيين الذين وردوا على المغرب في عهد السعديين أي في القرن الحادي عشر مستندا الى ما استنتجه من كتاب «وصف افريقيا» للحسن الوزان من عدم وجود أي أثر لبناء بالرباط في عصره أي في القرن العاشر إلا أن مؤرخ الرباط محمد بوجندار (30) يرجح أن المسجد من مآثر المرينيين ويعلل ذلك بوجود المارستان العزيزي قبالته. ويكون احدى الأبواب وقد رممت في عهد السلطان المريني أبي الربيع وهي وجهة نظر سديدة وان كانت التعديلات اللاحقة قد غيرت معالم الأصل ويبلغ عرض المسجد على طول جدار القبلة 47.5 م ويزيد عمقه بمتر واحد على عرضه بادراج مقصورة الامام الا أن شكله الهندسي غير مربع نظرا لعدم تساوي اضلاعه أما مساحته البالغة نحو 1.800 م. م فانها تجعل منه أعظم مسجد بالرباط بعد (جامع السنة) وهو يحتوي على سبعة صحون موازية للقبلة وعشرة عمودية. أما الساحة فشكلها مربع منحرف عرضه أكبر من طوله تحيط به ثلاثة أبهاء أقيمت في احدها (مقصورة للنساء) وبالجانب الشمالي الغربي (المنارة) وللمسجد ستة أبواب وعلى طول جدار القبلة عدة مرافق تتصل بفرع للمكتبة العامة بالرباط - يفصل اليوم المسجد عن المقبرة - وهذه المرافق هي مستودع المنبر ومقصورة الإمام وجامع الجنائز. أما الأقواس فانها ذات أشكال وأحجام مختلفة الا أن الحنايا التي يستند اليها الرواق أمام المحراب تلفت الانظار بميزاتها الخاصة اذ هي عبارة عن حنايا مفصصة قد نحتت فيها قويسات تصل الى ثلاثة عشر متشابهة عدا قويس الانطلاق وقويس الانفتاح. أما الأقواس الأخرى فمعظمها حنايا مكسورة وحدوية (على شكل حدوة الفرس أي نعله) أو مشرعة (أي أن سهمها أكبر من نصف الانفتاح) كما أن معظم السطوح ذات انحدار مزدوج في شكل برشلات أو جملونيات دون قرميد ولا تمنيق. اما المحراب فان قوس انفتاحه حدوي الشكل كنعل الفرس الحديدي متقارب المركزين غير بارز الكسر يستند الى عضادتين عاليتين. وقد ازدوج بقوس آخر خارج عن المركز في جوف قد نحتت نقوش رائعة في جبه اللامع وعلته قبة مثمنة ينفذ اليها النور من ثغرة مثمناتها مع المجموع.

أما (الصومعة) فانها مربعة الشكل تبلغ اضلاعها 5.10 م وقد زيد في ارتفاعها عام 1358 هـ 1939 م فبلغت من العلو 33.15 م بينما لم تكن تصل من قبل الى أكثر من 27 م. وتحتوي الصومعة على ست غرف مربعة الواحدة فوق الأخرى تغطيها أقبية متصالبة الروافد تؤدي احداها الى مخدع الموقف الواقع فوق المصرية اي العلية وهي من مصطلحات المغرب الأقصى) (31) وينفذ الضوء الى دورات الدرج من ثغرات واسعة مقوسة وملتوية في انحناء مستقيم ويتسم المجموع بطابع البساطة الذي يزيده روعة. اما ملحقات الجامع الكبير فانها لا تمتاز بأهمية خاصة فالى جانب ممر ضيق يؤدي الى (جامع الجنائز) على طول جدار القبلة توجد مقصورة الإمام وهي تضم غرفتين تتصل احداهما بمستودع المنبر.

واذا استثنينا النحت على الحجر في خصوص الأبواب فان النقش على الجبس يتوافر في المحراب وفي الوجه الداخلي للباب الكبرى وفوق الحنايا المفصصة امام المحراب مع رسوم زهرية متكاثفة تحيط بها خطوط هندسية وانضاد متراكبة من الوردات بين الأقواس دون أصباغ مع ضالة النقوش الخشبية. وتبرز في مواضع أخرى سعفيات (موردة) أوكتابات بالخط النسخي. اما المنبر فهو من صنع علوي عادي برسومه الخشبية المنحوتة على لوحات (مأطورة) : تلك صورة عن الجامع الكبير كما هو الان والبابان الشارعتان الى زنقة (باب شالة) قد اضيفتا كمنفذ خاص الى رواق النساء وكذلك الباب المؤدية الى زاوية سيدي التلمساني والفسقيتان الفوارتان في البهو الجديد شمالي غربي الصحن. ومن الروائد الطريفة في المسجد نقوش المحراب ورواق الجنائز وترخيمات بعض

---

30) الاغتباط ص 114 (مخطوط المكتبة العامة بالرباط (عدد 1287).

31) لاشك أن هذه التسمية ترجع لكون مصر هي التي عرفت في العالم الاسلامي بكثرة طبقات دورها وقد ذكر المقريزي في خططه ج 1 ص 134 و341 أن مساكن الفسطاط كانت من سبع طبقات.

الحنايا مما حفظ للجامع هيكله العام دون كبير تعديل ويظهر أن الجامع لم يكن فيه أكثر من خمسة صحون طويلة مركزية بدل عشرة بجانب الصحون السبعة الموجودة الآن. وكانت المساكن تحيط به من جهتين وهذا التخطيط متناسق الاجزاء بالنسبة للتصميم الحالي الذي يخلو نوعا ما من التوازن والانتظام اضف الى ذلك ما كانت تمتاز به الحنايا المفصصة والمكسورة والحدوية من تنوع ويذكرنا الهندام المعماري في الجامع الكبير بالمساجد المرينية في تلمسان وخاصة في مدينة «العباد» حيث مدفن (أبي مدين الغوث) فعدد الصحون الطويلة واحد فيهما مع ثمانية صحون موازية للقبلة هناك بدل سبعة بالرباط ومن مظاهر العتاقة في الجامع الكبير ضخامة الأقواس المفصصة أمام المحراب وهي من خواص المساجد المرابطية والموحدية بكيفية عامة مع وجودها أحيانا في عهد المرينيين كما هو الحال في جامع (فاس الجديد).

ولم يعد المهندس المعماري يستعمل هذا النوع من الترخيمات في العصر العلوي وحتى بالنسبة لنقوش الحنايا يمكن التنظير بين المشبكات الهندسية في (الجامع الكبير) ومثيلاتها في منبر (المدرسة العنانية) بفاس وباب (العنانية) أيضا بمكناس ومع ذلك فان جامع الرباط لا يوحي في مجموعه بنفس الارتسامة التي يشعر بها الزائر لمدارس فاس ومساجد تلمسان المرينية التي تمتاز بعدة ظواهر جزئية كبعض الأشكال الصنوبرية (على شكل ثمرة الصنوبر) أو الزهيرات (أي زخارف نورية الشكل) تلك معالم تشهد بأن الجامع الكبير يرجع تاريخه الى العهد المريني وذلك بالاضافة الى بعض النصوص التاريخية التي تعزز هذه النظرية لا سيما وأن مؤرخي العلويين مثل (الضعيف) و (الزياني) و (الناصري) لم يدمجوا هذا المسجد في لائحة المساجد العلوية وربما كانت المجموعة المركبة من المسجد والسقاية والمارستان العزيزي هي نفس ذلك الثالوث الملحوظ في جميع المساجد مع اعتبار أن هذا المارستان كان مدرسة كما يدل عليه شكله. وهنا يجب أن نتساءل كما فعل الاستاذ كايي (ص 199) عن تاريخ التعديلات والاضافات الطارئة على الجامع الكبير ويمكن أن نقارن بين هذه وبين المظاهر المعمارية في (جامع مولاي سليمان) بالرباط. وقد أسسه السلطان العلوي (مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله) فالمنارتان متساويتان في الاضلاع والترتيبات الداخلية والنسق الفني واحد في السطوح والخزات الجدرانية التي تنصب منها مياه المطر بدل الميازيب وذلك علاوة على تشابه بعض الأبواب ويدعم هذا الشبه الواضح ما أشار اليه امحمد (الضعيف) من أن السلطان مولاي سليمان وجه من طنجة أحد أعوانه لمخاطبة (المعلم الحسن السوداني) فيما يجب انجازه من أعمال في جامع الرباط (32) وهكذا يمكن التأكيد بأن الزيادات العلوية في هذا الجامع يرجع الفضل فيها الى الملك الصالح المولى سليمان الذي قام بهذه البادرة المثلى فوسع المسجد وجدد سطوحه.

تلك هي المظاهر الجوهرية التي يمكن أن تستخلص منها صورة عن الفن المريني الذي بدأت تتبلور فيه مجالي الازدواج بين الطابعين الأندلسي والمغربي في شكل جديد سمي بالفن الاسباني الموريسكي.

وبالرغم عن التأثيرات الأندلسية التي وسمت هذا الفن فانه اصطبغ بسمة خاصة اذ عوضا عما كان يذكي المهندس الأندلسي من رغبة في تحقيق التوازن بين القوى في المعالم المعمارية هدف المهندس المغربي الى ضمان متانة الهيكل بالاضافة الى ماكان يشعر به من حاجة الى مزيد من الزخرفة والتنميق وهذا هو الطابع العام الذي يتسم به مجموع الفن الاسلامي من تسطيرات ناتئة ومقربصات وتلوينات علاوة على روعة الهندام ورغما عما يتسم به هذا الفن المعماري الذي بلغ في العصر المريني أوج عنفوانه من ايغال في التوريق والتسطير والنقش مع قلة توازن بين الاجزاء وعدم جودة المواد فان المجموع ظل كما يصفه المؤرخ أندرى جوليان واضح المعالم متوازي النسب تتجانس نقوشه تجانسا رائعا ضمن الحيز الذي يملأه وهذا بالاضافة الى ما انطوت عليه الألوان من دقة وجناس كاملين (33) وقد اشع الفن المريني شرقا وغربا بثروته التي لا تضاهى وروعته الطريفة الأصلية فكان فنا أندلسيا مغربيا تتناسق عناصره في (العدوتين).

(32) تاريخ الرباط للضعيف (ص 531 ج).
(33) تاريخ افريقيا الشمالية (ص 456).

وهذا التناسق الفني يرجع الفضل فيه الى نشاط المهندس الأندلسي الذي كان تأثيره ملحوظا في مجموع المآثر المعمارية (34).

وكان للفنانين والمنتجين المغاربة صيت رائع وحظوة لا بأس بها حتى في الشرق غير أن درجة النضج الذي بلغها هذا الفن كانت تنطوي على عناصر انهياره فقد استنفد كثيرا من قواه منذ عهد أبي الحسن وحال قيام الفتن دون تحقيق أعمال عمرانية كبرى بعد ذلك.

واذا كان الفن قد استطاع الصمود في نهاية العهد المريني فما ذلك الا بفضل العناصر الأندلسية التي هاجرت الى المغرب. بحيث أصبح المغاربة منذ عهد الوطاسيين عالة في كثير من الفنون والحرف على الأندلس (35) ومع ذلك فان الفن المغربي الذي نشطت مقوماته العمرانية ظل محتفظا بجودته النادرة رغما عن انعدام الفخامة في مجاليه ذلك أن وفرة الزخرفة وثراءها وروعتها انتظمت في اطار من الوضوح والدقة لاغبار عليه وكان المجهود الفني الذي بذله المرينيون قد تقلص ـ كما يقول طيراس ـ في الوقت الذي انهارت قوتهم العسكرية.

وقد اتخذ تدخل (السعديين) صورة ثورية ضد عجز (الوطاسيين) عن ايقاف الحملة المسيحية وهبوب الاسبان لغزو المغرب بعد سقوط المعاقل العربية في الأندلس وقد تم احتلال سبتة (عام 818 هـ) فثارت ثائرة الأمة المغربية وطاف دعاة الجهاد في القبائل يحدون الناس الى مقاومة المغير وقد تركزت هذه الحركة التحريرية حول مراكز اقليمية للتجمع وهي (الزوايا) واستغل الشرفاء السعديون الموقف فتزعموا هذه الفورة الشعبية ونصبوا أنفسهم قوادا للثورة.

وقد عرف السعديون كيف يوجهون هذا الحماس الشعبي الرائع الذي كان يعززه العلماء والصوفية فأخرجوا العدو من (آكادير) و (آسفي) و (أزمور) و (أصيلا) و (القصر الصغير) وكللت سلسلة الانتصارات هذه بهزيمة شنعاء مني بها البرتغاليون في (معركة وادي المخازن) التي فقدت (البرتغال) بعدها استقلالها السياسي طوال اثنتين وستين سنة واندرج المغرب بفضل انتصاره الفذ في صف الدول العظمى تخطب وده بلاطات أوروبا وتسعى في الحظوة بمعونته.

ومن المؤسسات الدينية السعدية (مسجد باب دكالة) الذي بنته (مسعودة المزكيتية) والدة المنصور ويتناسق في هذا المسجد الاسلوب المريني (الصحن المربع) مع بعض معالم الفن الموحدي مثل هندام القباب وبعد ذلك بخمس سنوات أسس (جامع المواسين) بمرافقه من قاعة الوضوء والحمام والمدرسة والكتاب (أي المسيد) والسقاية ومورد الماء المخصص لحيوانات وتنم هذه المظاهر الجزئية عن استمرار تقاليد العصور السالفة في الحقل المعماري.

أما في جامع القرويين بفاس فان السعديين بنوا قبتين في الصحن تتوسط كلتيهما خصة مرمرية شبيهة بما يوجد في (ساحة الأسود) بالأندلس.

وقد اسهم السعديون في بناء مدارس صغرى مضافة الى المساجد أو الزوايا حيث توجد مثلا في مراكش عاصمة السعديين أعظم مدرسة بالمغرب (35) يرجع فضل تجديد بنائها الى (الأمير مولاي عبد الله) وهي (مدرسة ابن يوسف) التي تستمد اسمها من الجامع المجاور لها وقد بناها (أبو الحسن المريني) (36) وكان أهم مأوى لطلبة جامعة ابن يوسف حيث تحتوي على نحو المائة غرفة.

وقد لاحظ طيراس (37) أنه بالرغم عن الجهود التي بذلها كبار الأمراء السعديين فأنهم لم يسهموا في انبعاث الحضارة الإسلامية بالمغرب ذلك أن المدينة والفن كانا متجهين نحو الماضي فلم تستطع بعض التأثيرات الأجنبية تعديل الأصول القديمة ولا تركيز بذور خلق جديد فالفن المغربي اذن هو حسب (طيراس) (فن خال من كل غض طريف تكتنفه رواسب الماضي) غير أن صلات عابرة وغير مباشرة بالفنون الإسلامية الشرقية تحققت من جديد بفضل ما كان للسعديين من علاقة بالاتراك ولعل بعض هذه الآثار تتجلى في فن الطرز والنسيج والتجليد والتذهيب وكذلك في بعض أزياء الرجال لاسيما منها العسكرية نظرا لتأثر أمراء سعديين مثل (عبد المالك) الذي عاش في تركيا ببعض مجالي الحياة في هذه البلاد.

(34) كان ذلك منذ المرابطين وقد لاحظ (الناصري) نقلا عن صاحب (الجذوة) ان المهندس الاشبيلي محمد ابن علي هو الذي رسم تصميم (دار الصناعة البحرية بسلا) واستعمل الأساليب المعروفة بالاندلس (الاستقصا ج 2 ص 16) كما ان نقل مياه (وادي فاس) لتزويد قصر يوسف بن يعقوب كان على يد مهندس اشبيلي اختصاصي في علم الحيل هو (محمد بن الحاج).

(35) كودار ج 2 ص 461.

(36) الهندسة المعمارية الاسلامية (ص 392).

(37) (الاستقصا) نقلا عن نزهة اليفرني (ج 2 ص 56).

(38) تاريخ المغرب (ج 2 ص 234).

(39) القيم بن عبد الملك ونزل تمسان وعلى يديه

مع طه حسين





للأستاذ محمد ابن تاويت

في أواخر العقد الخامس، من القرن الهجري الفائت، كانت أنباء طه حسين، ترد على المغرب، بما تبعث على النفور منه، وفي نفس الحقبة كانت توجد بفاس، بعثة تطوانية تربو على عشرين طالبا، يتلقون دروسهم، بالقرويين، قبل النظام الدراسي بها.

وللذكرى، فان هذه الجماعة، قررت أن تثبت وجودها في صورة فتوغرافية، فكتب عليها، أحدهم، وهو الفقيه الطنجي قصيدة ابتدأها بقوله : (إن هذه صورة البعثة...).

لما انتهت إلى الصورة الفوتغرافية، اعتاصت علي كلمة «بعثة» إذ حسبت الباء حرف جر، وصرت أقلب كما أظن في المصباح المنير، عن معنى «عثة» أو «عتة» بالتاء - لاأدري - فانتهيت إلى أنها المكان، البعيد عن البحر، إذن فالأمر واضح لأن فاسا بعيدة عن البحر اليس بيدي الآن المصباح لأتأكد).

ثم فكرت تطوان في ارسال بعثة إلى الشرق، وكان باعث الفكرة المرحوم الحاج عبد السلام بنونة (الذي يقتضينا مقالا خاصا) فكان الذين سيتوجهون من هذه الجماعة إلى الشرق، الطيب ابنه، وعبد الخالق الطريس، والحسين بن عبد الوهاب، ومحمد أفيلال، ثم لحق بهم عبد العزيز الركيك، الذي لجأ إلى فاس، فرارا، من الإسبان، لمساهمته بالجهاد مع ابن عبد الكريم، رحم الله الجميع، كما لحق بهم امحمد عزيمان، ومحمد الطنجي (1) الذي كان سيرافقه أخي لولا إباية والدي، إذ كان كلاهما سيتوجه بنفقة أهل تطوان، وبسعي من الحاج عبد السلام بنونة رحمه الله.

وبذلك فقد انهمك الجميع في أستعدادهم للسفر، إلى مصر، غالبهم، وسمعت المرحوم، محمد عمير، يقول لأخي، سوف تسمع من طه حسين، في درسه، كيت وكيت، لا أذكر، ماكان، ولكنه إلحاد وأي إلحاد فأجابه، نعوذ بالله، وقبحه الله...

بعد هذا بسنوات كثيرة توفي مصطفى صادق الرافعي، وأقيم له بتطوان حفل تأبين، بمناسبة ذكراه،

---

1) إلى جانب فوج أخر من مختلف الأعمار، اتجهوا مباشرة من تطوان إلى فلسطين حيث التحقوا بمدرسة النجاح، في مدينة نابلس، وهم المرحوم عبد السلام بن جلون والمرحوم محمد الفاسي الحلفاوي (الوزير) ومحمد ابن محمد الخطيب (السفير) والمهدي بنونة الذي انضم إلى أخيه الطيب، وعبد الله الخطيب، والمرحوم محمد الخطيب، وبعد سنة أتوا إلى تطوان، وغادروا ومعهم اخرون هم احمد بن عبود (السفير) ومحمد بن حسين، ومحمد الحسين التطواني، اصلا والقصري منشأ وامحمد بن جلون، وعبد الكريم الفاسي واحمد مدينة (الملحق بالخارجية) فكان عدد المبعوثين الى الشرق يقارب عدد الذين يدرسون بفاس.

فكنت من المشاركين في هذا التأبين. وركزت في التنويه بالرافعي. على مجموعة مقالاته. «تحت راية القرآن» فكانت المداهمة بالوصف لا بالتعيين لطه حسين.

ولما التحقت بكلية الآداب. من جامعة فؤاد الأول. وجدت في رفقتي ابنة الرافعي. فأسرعت في طلب الكلمة التي كانت قد نشرت. بجريدة الوحدة المغربية. وحملها الى البريد. لكنني احتفظت بها. ولم أحرؤ على تسليمها إلى ابنة المرحوم الرافعي.

وفي نفس الصدفة. وجدت ابنة مصطفى لطفي المنفلوطي. قد التحقت بنفس الكلية. ولكنها في القسم الانجليزي. فقلت في نفسي : رحم الله المنفلوطي. الذي داهم السفور. في إحدى قصصه المأسوية. بكتابه «النظرات».

كانت أصداء. طه. وهو عميد الكلية انذاك. في كل مكان. كثائر على الأدب الجاهلي. وقد قرأت في الردود عليه. ما يربو على عشرة كتب. لا أذكر منها الا كتابا لمحام شهير. أديب ماهر. هو المرحوم لطفي جمعة.

واستمر طه حسين. حاملا للواء الثورة. في كل ما يكتب. وكان آخر ذلك كتابه عن «مستقبل الثقافة في مصر» الذي رد عليه منتقدا. الشهيد السيد قطب. وكان قبل من المنضوين الى العقاد. والمداهمين للرافعي. رحمهم الله.

أثر هذا تجد طه حسين. يغادر العمادة. ويلتحق بالوزارة مباشرة. كرئيس لقسم الثقافة بها. وكأن كتابه السابق. قد مهد لذلك. كما أن كتاب منتقده السيد قطب. مهد لأن يصبح كاتبه الخاص في هذه الوظيفة الجديدة...

ومع تخلي طه حسين عن العمادة. فانه لم يتخل عن الكلية. فظل بها يتابع القاء محاضراته. في الأدب الجاهلي والأدب الأموي. فكنت أتلقى عنه في السنة الثالثة. محاضراته في الأدب الجاهلي (وكانت معيدته آنذاك. سهير القلماوي) وفي السنة الرابعة كنت أتلقى عنه في الأدب الأموي (وكان معيده نجيب البهبيتي).

وفي هذه السنة أتيح لي أن كلفني الدكتور. بإلقاء درس عن أبي دهبل الجمحي. فألقيت الدرس. الذي استمع



على ظهر الباخرة قبيل الوداع الأخير

إليه بإهتمام. وعلق عليه بعد الإلقاء بكلمة مفعمة بالشكر الجزيل. الذي ليس وراءه غاية. ملاحظا شيئا ـ نسيته ـ في نقلي عن «نكلسون» والمجلة الاسيوية. كما اظن...

ثم كلفني بالقاء درس اخر عن الوصف في شعر ذي الرمة. فحضرت الموضوع. الذي ساعدتني أيام الاضرابات المتوالية. بالتفرغ للتوسع فيه والاستيعاب لمعلوماته. فكان في هذا تخمة للمستمعين. طال بها الالقاء. بحيث لم أترك من الزمان لحظة للتعليق عليه. الا بكلمة او كلمتين متتابعتين...

وتلاني محمد عبد السلام الكفافي رحمه الله. فالقى درسه في الاسبوع التالي. وانتقده الاستاذ. انتقادا شديدا فقال لي : اني أخطات حيث تركت من الوقت زمنا مكنه من هذا الانتقاد. ولو كنت أعلم الغيب. لفعلت ما فعلت يعني استغراق كل الوقت وعدم تمكين الاستاذ من الانتقاد. وكان عطن الزميل الكفافي يضيق بالانتقاد. حتى ولو كان في صالحه. وتقويم عوده. شأن اهل المنصورة. كالشاعر المهندس والموسيقار السنباطي (وكان ذاهية. جعلته الأول في ترتيب النجاح بنيل الدبلوم العالي ـ وكنت الثاني ـ ثم صار أستاذ اللغات الشرقية. في نفس الجامعة. بعد أن نال الدكتوراه من انجلترا).

وبعد الكفافي جاء دور المعيد نجيب البهبيتي. الذي كلف بالقاء درس. فاشتد في انتقاده. بل كان يقهقه ضحكا عليه مستنقصا له فيما قرر بذلك الدرس...

وكان من الزملاء. محمد بن عبد الله المترجم المحلف بالرباط الان) فسجل كل ذلك. حتى تصوير تلك القهقهات بأصواتها الحرفية : ها. ها. ها...

وهكذا استمرت السنة الدراسية بهذه الانشطة. واخيرا كان الامتحان التحريري. ووفقنا فيه. انا والمرحومان ابن تاويت الطنجي وعبد المجيد بن جلون.

وفي الامتحان الشفوي. وجدت على رس الممتحنين طه حسين. الى جانبه احمد الشايب رحمه الله. الذي سلم الي نصا من الاغاني. اقرأه. فابتدات في القراءة. ثم توقف فقال طه لأحمد الشايب (بأسرار) انظر سبب التوقف. فلما نظر. وجد تعبيرا. نابيا بكلماته المكشوفة. فأسر الى الاستاذ طه بذلك. فاستبدل النص بنص اخر. كان شعرا. يدعو فيه الشاعر على صاحبه بان تكثر الفيران بداره...

فسال الاستاذ طه. ما معنى هذا الذي تضمنه الهجوم قلت : إنه ليس هجوا. بل دعاء بالخيرات وأن تكثر النعم لهذا الرجل. فسر من ذلك كثيرا. وأردف بسؤال أخر. بم يسمى هذا في البلاغة ؟ قلت الكناية. فازداد سرورا. وحصل الاكتفاء بالاجابة.

وعلى هذا انتهت السنة الدراسية وكتب لنا النجاح في الفور بإجازة «الليسانس» وكتبت الصحف. ومنها الأهرام. في فوزنا. لأنه كان عظيما لذلك العهد. الذي كان فيه مجرد الانتماء الى الجامعة. مفخرة تحل ذروة الشرف والمجد. وقد كان للجامعة وطلابها نشيد تغنيه أم كلثوم ـ رحمها الله ـ وننصت إليه كترتيل مقدس (ياشباب النيل ياعماد الجيل هذه مصر تناديكم) ومن قبل بسنتين كان المرحوم محمد الخطيب قد نال نفس الاجازة في التاريخ. فاحتفل به المغاربة جميعا. معجبين به إعجاب عصرنا بأول نازل على القمر...

لكن التاريخ. أعاد نفسه به. فأنه لما عاد إلى وطنه. انصرف عنه. فاضطر إلى الانصراف عن علمه. وعمل بالتجارة ولم يصبح معلما إلا أخيرا.

وفي أوائل الاستقلال. كان طه حسين. مدعوا من صاحب الجلالة. محمد الخامس. تغمده الله برحمته. فلبى الدعوة. وعينت من قبل وزارة التعليم. لاستقبال الضيف الكريم بجبل طارق. كما عين من وزارة الخارجية. السيد بومهدي (أحد سفرائنا الآن) فتوجهنا. ومعنا المرحوم. عبد العزيز الأهواني. كمستشار ثقافي بالسفارة المصرية. وهكذا توجهنا الى جبل طارق الذي وصلناه ليلا. قضيناه بنزل الصخرة.

وفي الصباح خففنا إلى الميناء. معنا حرم السيد بومهدي. فصعدنا السفينة التي كانت تقل الضيف وحرمه

وكاتبه الزيات، وداعبه، بعد السلام، الدكتور الأهواني، تلميذه القديم، بالبيت الذي أنشده صاحبه الشاعر الأندلسي في الخليفة عبد المومن وهو :

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل
وانظر إلى الجبل الراسي على جبل

فلم يعجب الخليفة، وقال كما في المعجب للشاعر، أثقلتنا يارجل، ونحي جانبا).

فلما قص على الدكتور طه، هذه القصة، ضحك لها ضحكا عظيما، وقهقه قهقهات، متتالية.

ولاشك أنه تأثر في داخله لكلمة «غمض» وكلمة «انظر» كما تشاءم عبد المومن، من الأولى، وعبر عن نفوره منها، مرددا مع نفسه كلمة «غمض» كما في المن بالامامة.

وسنرى بعيد هذا أن مثل هذه الأشياء، تحز في نفس الدكتور، ويصاحبه الشعور منها بالحرمان والعاهة المتأصلة.

وهكذا اتجهت السفينة بنا، إلى طنجة، التي ما وصلنا إلى رصيفها، حتى وجدنا حشدا حشيدا، من الجمهور وغيرهم كما كانت ضجة الدراجات النارية، لكوكبة الدرك تصك الآذان، وهي تستعد لتحركها، فسألني الدكتور عن مبعث هذه الضجة، فقلت هي لدراجات البوليس، فقال محتدا، البوليس ! لا، لا.. أنا لا أحب هذه الأشياء، مطلقا، فقلت له إن هذا احتفاء واحتفال بقدومه، فقال، ولو، ولو فإني لا أحبه...

عجبت أشد العجب من هذا الانفعال، ولكني أدركت سببه، هو الحرمان من البصر، والتضايق من تشخيص وتفسير المصريين ولما نزلنا الى الرصيف، انطلقت السيارة التي أقلت الضيف الكريم، الى قصر الجبل الكبير، حيث سكنى العامل، الذي كان انذاك، الدكتور بن جلون (والذي تولى عمالة الرباط فيما بعد، ثم كان سفيرنا بالمانيا وفرنسا).

اما انا والدكتور الاهواني فقد توجهنا تلو ذلك الى نزل الريف، ولما علمنا بوجود الضيف، بقصر الجبل الكبير، منفصلا عنا هرعنا الى الدار أو القصر، فسأل طه الاهواني، عن سبب التأخر، فقلت له : الأهواني يسوق ويسوء (ناطقا القاف همزة) فلم يفهم«يسوء ويسوء»أولا... إذ كان الأهواني سيء السياقة، لأنه كان حديث العهد باستعمال السيارة وسياقتها، فتاخر بذلك عن الركب ولم يدر وجهته وكان قد اصطحب سيارته معه، الى جبل طارق، وكان انطلاقه بها من الباخرة الى رصيف طنجة، حائلا دون متابعة ذلك الركب الرسمي.

وفي الصباح، عدنا الى زيارة الدكتور بمقره في الجبل الكبير، فوجدنا حرمه غاضبة أشد الغضب - ولها الحق - لانهم جعلوا لهم المبيت، في غرفة تضم أسرة، تتقدمها مباشرة لباب الغرفة ما كان منها للضيف وحرمه، وتنتهي بسرير للسيد الزيات، وبهذا اعتبرت حرم الدكتور الفرنسية، هذا انتهاكا للحرمة، حيث كانت وزوجها بمكانة مطروقة المرور للسيد الزيات، ذهابا وإيابا، فاستغربت من السيدة التي لازمتها وهي سويسرية زوجة العامل، كيف لم تتنبه لهذا، وقلت في نفسي، لعل هذه من الزوجات اللائي لم تتعودن على استقبال ضيوف من هذا النوع، أو من أي نوع، من سادة البشر، ولو كانوا وزراء سابقين، ولهم المقامة التي لا تعدلها مقامة، والحقيقة أن مبيت الضيف بالدار ليس معهودا عند عامة الأوربيين، فالمبيت لا يكون الا بالاوطيلات أو بالدور الخاصة بالضيوف، عند الأكابر، وذوي الشأن من رؤساء الدول وملوكهم.

وجاء الدكتور الى الرباط وألقى محاضرته، في مسرح محمد الخامس، على ما أظن، وكتبت على المحاضرة، معلقا ونشرت ذلك بمجلة (دعوة الحق) ثم رد علي صديقي (السفير) أحمد بن مليح، رحمه الله، فرددت عليه كذلك، بعدما تحدثت مع الأستاذ الأهواني في شأنه، فقال لي : الحق معك، وعاد طه حسين الى طنجة، التي اختار إقامته هذه المرة، بأوطيل المنزه، وزرته فوجدته مستغرقا في اعداد المحاضرة التي كان سيلقيها بطنجة، وكانت عادته قبل الإلقاء، أن يعتكف بعض الوقت، ليحضر المحاضرة في نفسه.

وفي اليوم التالي توجهنا في رتل من السيارات الى تطوان، حيث ألقى محاضرته الأخيرة، وتنفست زوجته

الصعداء، لأنها كانت تخاف على زوجها من هذا الانهاك، خوف الأم الرؤوم على طفلها. وهي فضيلة لهؤلاء الازواج الفاضلات...

وبعد هذا عدنا الى طنجة حيث ودعناه بالباخرة التي اقلته عائدا. وكان هذا آخر العهد به رحمه الله، رحمة واسعة..

محمد بن تاويت



صرخة سبتة

للشاعر الأستاذ عبد العلي الودغيري

برزت تشرف من أعلى ذرا
مثل تاج فوق رأس المغــــرب

فإذا الحسن رآها فانحنــــى
وأتاها في جلال الموكـــب

وجثا البحر على أقدامهـــا
صامتا يسمعها عن كثـــب

وهي تحكي في دموع وأســى
ما تلاقي من يد المغتصــب

قلت ، من أنت ؟ فقالت ، أوما
دلك الحسن على ما نسبي ؟

وروى التاريخ عني قصـــة
لك تبدو في ثنايـا الكتـــب

ليس يمحوها زمان، إنمــــا
ليس من يقرؤها، واعجبي ؟ !

أنايا سائل عني سبتـــــة
كنت حصنا في جميع النـــوب

وحمى الدين الذي أكرمنـــي
وبني الأكوان بخير نبـــي

كم منار رفع الذكر هنـــا
فاستضاءت سبل المغتـــرب

كم من الأمصار ولو بعــدت
قصدتني في سبيل الطلــب

كم إمام في علوم نبغـــا
وتروى من حيــاض الأدب

كيف يا منكر تنسى بلــدا
كان مهدا لعيـاض اليحصبي ؟

وهو من وطد للضـاد، ومـــن
خدم الدين بأسنى مذهـــب

وإليها كان ينمى مالك (1)
مالك الشعر، رفيـع الرتـــب

كيف لا تذكر أم ابن هشام (2)
وأبي العباس (3) ذاك القطـب

وسواهم من رجالات مضـــوا
ونساء عشن أزهى حقـــب ؟

يوم كان المجد مجدي، وأنـــا
أتباهى بعروش الذهــــب

---

1) هو مالك بن المرحل السبتي
2) هو محمد بن هشام السبتي امام مشهور في اللغة والنحو.
3) هو ابو العباس احمد بن جعفر السبتي احد اقطاب الولاية والصلاح دفين مراكش سنة 601 هـ

يوم كان المجد مجدي لم يكن
أحد يخفى عليــه حسبــي
فإذا يوم على قومـــي أتــى
غفلـوا فيـه. فمــد الأجنبي...
قيده الأسر نحــوي. ويـــدا
نزعت عــزي من حضـن أبـي
قطعت وصلي ومـا كـان بـه
نحو أهلي يتقـوى سببــي
أين أهلي ؟ هل أفاقـوا. ودروا
ما لعتقي نحوهـم من واجـب ؟

• • •

أيها البحر اليك المشتكـــى
فك أســري وأنلنــي أربــي
أنت من يشهد ذلـي ويعــي
كل يوم صرختــي : «واغلبي !»
أنت يا من عبراتــي. مــلأت
جوفك الطـامي. بطول الصب
فك أسري انه المهـر الــذي
أرتضيه من أيادي خاطبــي
فك أسري أيها البحر فقــد
عجزت عنه سيوف العـــرب
فهي عني في افتــراق واحتراب
شغلتها ريب عن ريبـــي

لا أراها تنتهي يوما، فكيــف
تراهــا فكــرت في السلــب ؟
هذه أختي فلسطيــن. أمــا
شغلوا عنها بصنع الخطــب ؟
وته أختي (مليليا) تشتكــي
مثل شكـواي. وتبكـي جانبي
ضيعوها وأضاعوا غيرهــا
بصراع بينهــم. وانصبــي !
همهم خلق دويلات وليـــ
ـس لهم في وحدة من رغـب
نصبوا فيهـم شعارات وليـ
ـس الى المجـد لهم من نصب

• • •

قلت : يا أخت فلسطين كفى
حزنا. فالغد فيه الأمـــل
ان تهــاونا بحـق. فغـــدا
سوف يأتيــك به من عملـوا
وتفانوا في سبيـل العـز. لا
في سواه. ها أراهـم وصلـوا
ان أرضا أنبتت كل مجيــد
لن يموت اليوم فيها البطـل

الإتجاه الباطني في تفسير القرآن الكريم

للدكتور محسن عبد الحميد

يكاد ينعقد اجماع الباحثين والعلماء المحققين. مسلمين وغيرهم أن الباطنية هي كبرى حركات التحريف في تاريخ الإسلام. أرادت أن تظهر عقائدها وأهدافها الحقيقية. متسربلة بمبدا التأويل الباطني للقرآن. متجاهلة الضوابط النقلية والعقلية والأصولية التي اجمع عليها المفسرون والأصوليون الثقاة في تفسير الايات القرانية. وكانوا دائما يحذرون من أن اسباغ المعاني الباطنية على النص القراني معناه العاؤه. والقضاء عليه. وعلى كل ما ورد فيه من عقائد واحكام وسلوك.

ولقد اتبع هؤلاء الباطنية مع من خاطبوهم اساليب خطيرة. لنقلهم من مرحلة الى اخرى ينسلخ المدعو نهائيا من دينه ويؤمن بدين جديد (1).

والباطنية وضع اساسها جماعة من اليهود والمجوس والمزركية وشرذمة من الوثنيين الملحدين. وطائفة من ملحدة الفلاسفة المتقدمين (2). اخذوا اطار التفسير الباطني من يهود الاسكندرية الذين كانوا يشرحون التوراة شرحا باطنيا رمزيا. ويذهبون الى تفسير ادم بالعقل. والجنة برياسة النفس. وابراهيم بالفضيلة الناتجة عن العلم. واسحاق بالفضيلة الغريزية ويعقوب بالفضيلة المكتسبة (3).

وكان فيلسوفهم المشهور «فيلون» الذي ولد بين عشرين وثلاثين سنة قبل الميلاد. ينقل الوعود المزعومة الواردة في التوراة بخيرات دنيوية ومستقبل سعيد لليهود. الى وعود بخيرات روحية للنفس الصالحة (4).

والعقائد الباطنية مزيج من مجموعة المذاهب والديانات والاراء الفلسفية القديمة التي انتشرت في البلاد الاسلامية. بتاثير امتزاج المسلمين بغيرهم من اصحاب الديانات المختلفة والآراء المتباينة. وانهم اخذوا هذه الاراء والمعتقدات واخضعوها لفكرتهم في الامامة. بعد ان صبغوها بالصبغة الإسلامية. حتى ان الباحث يستطيع ان يتعقب أكثر عقائد الباطنية ويردها إلى أصولها القديمة. مثل عقائد المصريين القدماء، ونظرية المثل الأفلاطونية. والأفلاطونية الحديثة وكتب الاباء المسيحيين (5).

---

1) راجع على سبيل المثال كتاب «فضائح الباطنية» للامام الغزالي، وطائفة الاسماعيلية للدكتور محمد كامل و «واصول الاسماعيلية» للدكتور برنار دلويس.
2) الغزالي ، فضائح الباطنية. النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام 2 / 297.
3) محمد الخضر الحسين ، رسائل الاصلاح 3 / 97.
4) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ص 249.
5) الدكتور محمد كامل حسين طائفة الاسماعيلية ص 132.

يقول الإمام الغزالي عن مذهبهم «اما الجملة. فهو مذهب ظاهره الرفض، وباطنه الكفر المحض، ومفتتحه حصر مدارك العلوم في قول الإمام المعصوم، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق لما يعتريها من الشبهات. ويتطرق إلى النظار من الاختلافات وإيجاب لطلب الحق بطريق التعليم والتعلم. وحكم بان المعلم المعصوم هو المستبصر، وأنه مطلع من جهة الله على جميع اسرار الشرائع. يهدي إلى الحق ويكشف عن المشكلات. وان كل زمان فلا بد فيه من إمام معصوم يرجع اليه فيما يستبهم من أمور الدين. هذا مبدأ دعوتهم. ثم أنهم بالآخرة يظهرون ما يناقض الشرع، وكأنه غاية مقصدهم. لأن سبيل دعوتهم ليس بمتعين في فن واحد. بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه، بعد أن يظفروا منهم بالانقياد لهم، والموالاة لامامهم. فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم ويقرونهم عليها (6).

والحق أن الحقائق التي ذكرها الغزالي عنهم وعن عقائدهم وأصول مذهبهم وأساليبهم في الدعوة مطابقة على التفاصيل المذهبية التي وردت في كتبهم التي نشرت في القرن الأخير (7).

واما حججهم في تسويغ التفسير الباطني فهو انه لابد لكل محسوس من ظاهر وباطن. فظاهره ما يقع الحواس عليه، وباطنه مايحويه ويحيط العلم به بأنه فيه واستدلوا في ذلك بقوله تعالى «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» وقوله «واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» وقوله «وذروا ظاهر الاثم وباطنه» وقوله «وما يعلم تاويله الا الله والراسخون في العلم» وقوله «هل ينظرون الى تاويله يوم يأتي تاويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق» واستدلوا بقوله صلى الله عليه وسلم «ما نزلت على من القرآن اية الا ولها ظهر وبطن» وهذا العلم الباطن فيما يزعمون لايستطيع عليه غير الائمة من ذرية النبي وهو علم متواتر بينهم مستودع فيهم. يخاطبون كل قوم منه بمقدار ما يفهمون (8).

بل ذهبوا الى ابعد من ذلك فقالوا ان التفسير الباطن من عند الله خص به علي بن ابي طالب رضي الله عنه وان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلم هذا العلم الباطن (9). ويسندون الى الإمام جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه «انا نتكلم في الكلمة سبعة اوجه. فقال الرجل متفكرا سبعة يا ابن رسول الله ؟ فقال ، نعم وسبعين. ولو استزادنا لزدناه.

فوجوه هذا العلم بمقدار حدوده، فيعلم من سمعه وانتفع به ورقى في درجاته. وزعمت الخطابية وهي احدى الفرق الباطنية ان جعفر الصادق قد اودعهم جلدا يقال له «جفر» فيه كل ما يحتاجون اليه من علم الغيب وتفسير القرآن (10).

وقد ثبت ان هذه الاقوال وغيرها كان يطلقها المختار الثقفي وجماعته وبيان بن سمعان اليهودي الأصل وابو الخطاب الأسدي والمغيرة بن سعيد العجلي. الذي يعده بعض المؤرخين اول من بدا بالتاويل المنحرف في الاسلام (11). ولاشك عند المحققين أن هذا كذب صحيح على هؤلاء الائمة الكرام. فقد كانوا ومنهم جعفر الصادق رضي الله عنهم يعلنون على ملا من الامة البراءة منهم. وكانوا يبعثون اولياءهم الى العراق يكذبونهم ويبينون اباطيلهم للناس (12) اما الاقوال التي نقلوها عن النبي صلى الله عليه وسلم في ان القرآن له ظهر وبطن او انه ذلول ذو وجوه مختلفة. او انه له حد ومطلع. فقد قال عنها الحافظ الثقة ابن حزم «وهذه كلها مرسلات لا تقوم بها حجة اصلا. ولو صحت لما كان لهم في شيء منها حجة بوجه من الوجوه. لأنه لو كان كما ذكروا لكل اية ظهر وبطن. ولكن لا سبيل لنا الى علم الباطن. ولا يقول قائل ولكن ببيان النبي صلى الله عليه وسلم الذي أمره الله تعالى بان يبين للناس ما نزل اليهم. ومن الباطل المحال أن يكون للاية باطن لا يبينه النبي صلى الله عليه وسلم. لأنه حينئذ لم يبلغ كما امر. وهذا لايقول به مسلم. فبطل ما ظنوه وما ينقل عن طريق الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، سألت

(6) فضائح الباطنية 37.

(7) راجع على سبيل المثال ، مطالع الشموس ضمن أربع رسائل اسماعيلية، حققها الاسماعيلي عارف تامر ص 33، 43، 54، 55، 74 وكذلك الدستور ودعوة المؤمنين الى الحضور لشمس الدين الطيبي، الداعي الاسماعيلي ص 84، 92، 96، 99، الأولى بيروت 1953.

(8) النعمان بن حيون ، أساس التأويل ص 18 ـ 32.

(9) طائفة الاسماعيلية ص 161.

(10) الخطط المقريزية، نقلا عن كتاب الامام الصادق للشيخ محمد ابي زهرة ص 36.

(11) الدكتور محمد جابر جاد عبد العال ، حركات الشيعة المتطرفين ص 39.

(12) محمد ابو زهرة ـ الإمام جعفر الصادق ص 128.

(13) الاحكام في أصول الاحكام 3 / 271، 272.

النبي عن علم الباطن ما هو ؟ فقال : سألت جبريل عنه فقال عن الله هو سر بيني وبين أحبائي وأوليائي وأصفيائي، أودعه في قلوبهم لايطلع عليه ملك مقرب ولانبي مرسل. قال الحافظ ابن حجر العسقلاني فيه : موضوع والحسن ما لقي حذيفة (14).

قال الزركشي «وان صحت هذه الاحاديث فان معناه عند ذلك يكون ان القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد تعلق به. لكن أورده تعالى على عادة العرب، دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين :

أحدهما بسبب ما قاله «وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم» والثاني : أن المائل الى دقيق المحاجة هو العاجز عن اقامة الحجة بالجليل من الكلام. فان من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الاكثرون لم يتخط الى الاغمض الذي لا يعرفه إلا الاقلون. ولم يكن ملغزا. فاخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجل صورة. تشتمل على أدق دقيق لتفهم من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة وتفهم الخواص في اثنائها ما يوفى على ما ادركه فهم الخطباء» (15).

ان الباطنية حطمت مدلولات الالفاظ تحطيما كاملا. فجاءت بتفسيرات مضحكة لاتمت الى ألفاظ القرآن بصلة ما. ففي تفسير قوله تعالى «اهدنا الصراط المستقيم» قال ابن حيون الباطني الاسماعيلي «والمراد منها الإمام» (16). وفي قوله تعالى **«والنا له الحديد»** قال : اي سهلنا له صعب الكلام (17). وفي قوله تعالى «ولها عرش عظيم» قال : أي دعوة كبيرة (18). وفي قوله تعالى «اذهب بكتابي هذا فالقه اليهم» قال : الكتاب الرسول ومن اقامه مقامه (19). وفي قوله تعالى «ولقد اتيناك سبعا من المثاني» قال : يعني الائمة السبعة (20). وفسروا السموات في قوله تعالى «الله نور السموات والأرض» بأنها النطقاء والأسس والائمة والحجج الذين هم سموات الدين وأرضها (21). وفسروا ليلة القدر بأنها مثل على فاطمة رضي الله تعالى عنها (22). وفسروا قوله تعالى «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء» بأن المراد بالنفس الواحدة هاهنا الناطق صلوات الله عليه. وخلق منها زوجها يعني الوصي عليه السلام المزاوج له في الدين. وبث منهما رجالا كثيرا ونساء يعني حدودا مقيدين بمنزلة الرجال ومستفيدين بمنزلة النساء. قال النبي صلى الله عليه وعلى آله «انا وانت ياعلي أبوا المؤمنين» (23).

وقالوا «ويسألونك عن ذى القرنين» هو مولانا أمير المؤمنين على بن أبي طالب صلوات الله عليه (24).

وقال أبو يعقوب الاسماعيلي الباطني صاحب كتاب الرضاع «اعلم أن كل ماورد عليك من كتاب الله عز وجل من ذكر الجنات والانهار والنخيل والاعناب والزيتون والرمان والتين وجميع الشهوات وما شاكلتها فهو دال على الائمة عليهم السلام ثم على الحجج ثم على الدعاة ثم على المستجيب البالغ (25).

وقال الباطني هذا أيضا في قوله تعالى «الله ولى الذين امنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت» اي كفروا بنعمة الإيمان وطغوا عن الحق وجحدوا أئمة الهدى ونصبوا لانفسهم الاصنام. فاول صنم من أصنامهم الطاغوتية أبو بكر وعثمان ومن كان مثلهم في كل زمان ومكان (26).

ولقد حاول الاسماعيلية الباطنية أن يسبغوا على أئمتهم صفات باطنية بحيث أصبحوا في مرتبة لاتمت الى البشرية بصلة. فهم يقولون أن «كلمات الله» و«وجه الله» و «يد الله» و «جنب الله» في القرآن المقصود بها الإمام. لا بل هو الصراط المستقيم والذكر الحكيم القرآن (27).

14) على القاري : المصنوع في معرفة الحديث الموضوع ص 93.
15) الزركشي : البرهان في علوم القرآن 2 / 25.
16) أساس التأويل ص 61.
17) المصدر السابق 253.
18) المصدر السابق 267.
19) المصدر السابق 268.
20) المصدر السابق 333.
21) مسائل مجموعة من الحقائق العالية ضمن أربع رسائل اسماعيلية ص 111.
22) المصدر السابق ص 114، 115.
23) المصدر السابق ص 123.
24) المصدر السابق 130. انظر تفاسير باطنية اخرى في الايضاح للداعي شهاب الدين ابي الفراس الطبعة الاولى 1964 بيروت ص 2 وكذلك الدستور للطيبي ص 8، 17، 84، 96، 97. وكذلك مسائل مجموعة من الحقائق العالية ص 55، 58، 116، 123.
25) اليماني : قواعد عقائد ال محمد ص 66.
26) البرهان للزركشي 2 / 152.
27) المصدر السابق 2 / 152.

يقول الداعي الاسماعيلي الباطني شهاب الدين أبو فراس «وأعلم أن الأمام الموجود لا يخلو منه مكان ولا يحوزه زمان، لأنه الهي الذات، سر مدى الحياة، ولو لم يتانس بالحدود والصفات لما كان للخلق الى معرفته وصول (28).

ولذلك فانهم يسجدون عند ذكر الامام، فقد جاء في رسالة «رسالة الدستور ودعوة المؤمنين للحضور للداعي الاسماعيلي الطيبي» واذا وصل الى ذكر الامام سجد وسجدوا (29).

ومن المعلوم البديهي أن هذه التاويلات فاسدة باطلة، مخالفة لمنطق اللغة وضوابط التفسير التي اجمع عليها ثقاة العلماء والمفسرين.

قال الامام الغزالي «والقران على ظاهره حتى تاتي ادلة منه أو سنة أو اجماع بانه على باطن دون ظاهر» (30).

وقال في معرض مناقشتهم «بم عرفتم ان المراد من هذه الالفاظ ماذكرتم ؟ فان اخذتموه من نظر العقل فهو عندكم باطل، وان سمعتموه من لفظ الأمام المعصوم، فلفظه ليس باشد تصريحا من هذه الالفاظ التي اولتموها، فلعل مراده امر اخر اشد بطونا من الباطن الذي ذكرتموه، ولكنه جاوز الظاهر بدرجة فزعم أن المراد بالجبال الرجال، فما المراد بالرجال ؟ لعل المراد به أمر اخر، والمراد بالشياطين اهل الظاهر، فما أهل الظاهر ؟ والمراد باللبن العلم، فما المراد بالعلم ؟ (31).

ان هؤلاء الباطنية خالفوا بمسلكهم ذلك قانونا لغويا عاما في المجتمع الانساني، إذ اننا نعلم ضرورة ان الاسماء وضعت للدلالة على مسمياتها، فاستعمالها بلا دليل ولا برهان في غير مسمياتها سفسطة وفساد عظيم وتخريب واضح لاساس الفكر الانساني، وقضاء تام على التمييز بين حقائق الاشياء في الوجود، لاننا حينئذ ندفع الفاسد بالفاسد، وهو كما قال الأمام الغزالي أن نتناول جميع الاخبار على مقتضى مذهبهم، فمثلا يقال قوله لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة، أي لايدخل العقل دماغا فيه التصديق بالمعصوم (32).

قال الغزالي رحمه الله تعالى «فان زعمتم انكم أنزلتم الصورة على المعصوم» في قوله «لاتدخل الملائكة بيتا فيه صورة» فاي مناسبة بينهما ؟ قلت ، وانتم انزلتم الثعبان والآب في حق عيسى على الأمام، واللبن على العلم في انهار اللبن في الجنة، والجن على الباطنية، والشياطين على الظاهرية، والجبال على الرجال، فما المناسبة ؟

فان قلت ، البرهان يقضم الشبه كما يقضم الثعبان غيره، والامام يفيد الوجود العلمي كما يفيد الوجود الشخصي، واللبن يغذى الشخص كما يغذى العلم والجن باطن كالباطنية فيقال لهم ؟ ماذا اكتفيتم بهذا القدر من المشاركة، فلم يخلق الله شيئين الا وبينهما مشاركة في وصف ما، فاننا انزلنا الصورة على الامام، لأن الصورة مثال لا روح فيها كما أن الأمام عندكم معصوم ولا معجزة له، والدماغ مسكن العقل، كما أن البيت مسكن العاقل، والملك شيء روحاني كما أن العقل كذلك، فثبت أن المراد بقوله «لاتدخل الملائكة بيتا فيه صورة» معناه لايدخل العقل دماغا فيه اعتقاد عصمة الأمام، فاذا عرفت هذا فخذ كل لفظ ذكروه وخذما تريده واطلب منهما المشاركة بوجه وتأوله عليه فيكون دليلا بموجب قولهم كما عرفتك في المناسبة بين الملك والعقل والدماغ والبيت والصورة والأمام، واذا انفتح لك الباب اطلعت على وجه حيلهم في التلبيس بنزع موجبات الالفاظ، وتقدير الهويات بدلا عنها، للتوصل الى ابطال الشرع (33).

والدليل القاطع على انهم لم يريدوا العصمة لذاتها وانما ارادوها لتحريف معاني القران وابطال الشرع، انها لم تضعهم على خط واحد في التاويل، بل كان كبار دعاتهم مختلفين في تاويلهم الباطني، تبعا لشخصية الداعي واختلاف موطنه وزمن وجوده، فتأويلات الداعي منصور

---

28) مطالع الشموس ص 33.
29) ص 74.
30) فضائح الباطنية ص 58.
31) المصدر السابق ص 58.
32) فضائح الباطنية ص 161.
33) المصدر السابق ص 61.

اليمن قبل ظهور الدولة الفاطمية بالمغرب نجدها تميل الى الغلو. وهي أشبه بما كان يقوله الغلاة من الخطابية والسليمانية وغيرها. وتأويلات دعاة فارس بعد قيام الدولة الفاطمية الباطنية الاسماعيلية بالمغرب تختلف عن تاويلات الدعاة الذين كانوا بالقرب من الائمة بالمغرب ففيها التأليه الصريح للأمة. وفيها طرح الفرائض الدينية. إذ ان تاويل الصلاة عندهم هو الاتجاه القلبي للأمام. وتأويل الصوم هو عدم افشاء اسرار الدعوة. وتأويل الحج هو زيارة قبر الأمام. وهكذا ينتهي بهم التأويل في فارس الى طرح اركان الدين كلها. بخلاف ماكان عليه الأمر في مصر وبلاد المغرب اذ لم يصرحوا بهذه الاراء الا في كتبهم السرية الخاصة (34).

واما في كتاباتهم العامة فقد كان يصرح بعضهم بالأخذ بالظاهر نفاقا إلى المسلمين في مصر حتى يحفظوا كيان دولتهم الباطنية الفاطمية. يقول قاضي قضاتهم النعمان بن حيون «فلا يتوهم السامع انا اذا ذكرنا باطن الجنة نفينا ان يكون ثمة جنة خلد ودار نعيم. واذا ذكرنا باطن النار نفينا بذلك أن يكون ثمة نار ودار عذاب. أو متى ذكرنا تأويل شيء من الباطن ابطلنا من أجله الظاهر. نعوذ بالله من ذلك لأنه لا يقوم ظاهر إلا بباطن ولا باطن إلا وله ظاهر» (35).

والظاهر الذي يقصده ابن حيون هو من أجل العامة. لأن الباطنية كانت تزعم أن المقصود من ظواهر الآيات هو خطاب الجمهور بما يتخيلون به أن الرب جسم عظيم وأن المعاد فيه لذات جسمانية. وان كان هذا لاحقيقة له (36).

يقول الكاتب الاسماعيلي عارف تامر. محقق كتاب الايضاح للداعي الاسماعيلي أبي فراس «لقد كانت التعاليم الاسماعيلية تأمر العامة بالتمسك بالعبادات العملية اي بالعلم الظاهر. وتنشر بين الخاصة واهل الدعوة العبادات العلمية اي علم الباطن والفلسفة والتاويل» (37).

والدعاة الاسماعيليون كانوا حريصين في كتبهم على اخفاء تاويلاتهم التي هي حقيقة مذهبهم. وكانوا يشهدون الداخلين في نحلتهم على منع افشاء اسرارها وتحليفهم على ذلك بأغلظ الايمان وهذه الأجوبة أمانة عندك مؤكدة مغلظة مشددة يسألك الله عنها. انك لا تنسخت منها حرفا ولا اطلعت عليها أحدا. ولتردها الى من يوصلها اليك هذه النسخة (38).

ولقد اتجهت فروع الباطنية كلها إلى هذا الاتجاه الباطني في تفسير القرآن منهم النصيرية الذين يعتقدون أن الاصابة في تفسير القرآن منحصرة بالائمة المعصوبين دون سواهم. لأن تفاسير بقية العلماء، فيها احتمال الغلط وعدم الاصابة (39).

فمثلا في قوله تعالى «وكل شيء احصيناه في امام مبين» والامام عند النصيرية هو أحد الائمة الاثنى عشر المعصومين. وان هؤلاء يعلمون علم الأولين والآخرين. لأن الأمام أحصى كل شيء بوجه الاطلاق (40).

يقول الطويل وهم (أي النصيرية) لا يهتمون بالقواعد اللغوية. لأن كلام الائمة هو فوق كل شيء وهم وحدهم الذي يحق لهم تفسير القرآن (41).

هذه لمحات سريعة عن حقيقة التفسير الباطني وانحرافه وخروجه على القواعد الأساسية في تفسير القرآن. ولكن هل رفضنا القاطع لهذا اللون من الانحراف الشنيع يعنى أننا لا نقر بتغلغل علماء الإسلام في باطن القرآن مستنبطين اسراره وعلومه وكنوزه وحقائقه في مختلف مظاهر الوجود؟ أقول: نعم نقر ذلك على أن تضبطه ضوابط التفسير والاستنباط. ولقد وضع العلماء شروطا لهذا النوع من تفسير باطن القرآن منها أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب بحيث يجرى على المقاصد

(34) طائفة الاسماعيلية ص 165.
(35) اساس التأويل ص 163.
(36) ابن تيمية موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ص 58.
(37) ص ط المقدمة. الاولى بيروت ـ 1964.
(38) مسائل مجموعة الحقائق العالية ـ ضمن اربع رسائل اسماعيلية ص 58.
(39) محمد ابن غالب الطويل، تاريخ العلويين ـ دار الاندلس ـ بيروت ـ الثانية 1386 هـ ص 184.
(40) المصدر السابق ص 198.

(41) المصدر السابق ص 199 واما عقائدهم فتعتمد على تأليه الائمة. فهم يقولون بتجلى الآله للمرحلة الأخيرة في على بن أبي طالب وهو امام في الظاهر واله في الباطن لا يأكل ولا يشرب ولم يولد.
يقول عمر عناية: للنصيرية ثالوث مكون من:
أ ـ المعنى (الأب) الغيب المطلق «الله ـ على» يرمز له بحرف ع
ب ـ الاسم (الابن) سورة المعنى الظاهر «محمد» يرمز له بحرف م
ج ـ الباب (روح القدس) وهو طريق الوصول الى المعنى والباب هو سلمان الفارسي، ويرمز له بحرف س.
ـ راجع: العقائد ص 147 ـ 149 طبعت عام 1928.

الحسنة. ومنها ان يكون له شاهد نصا أو ظاهرا في محل آخر يشهد بصحته من غير معارض (42).

ونسوق هنا رواية توضح هذا المعنى. فلقد روى أنه لما نزل قوله تعالى من سورة المائدة «اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا» فرح الصحابة الكرام. وبكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال : ما بعد الكمال إلا النقص. مستشعرا نعيه صلى الله عليه وسلم. فقد أخرج ابن أبي شيبة أن عمر رضي الله عنه ، لما نزلت الأية بكى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مايبكيك ؟ قال : أبكاني اناكنا في زيادة من ديننا فأما إذا كمل فانه لايكمل شيء قط إلا نقص. فقال عليه الصلاة والسلام : صدقت (43).

فالفاروق رضي الله عنه. فهم هذا المعنى الباطني دون أن يخرج على ظاهر اللفظ والحدود الصحيحة لفهم القرآن.

يقول الامام الغزالي : «ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل أحكام الظاهر. ومن ادعى فهم اسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر. فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب. أو يدعى فهم مقاصد الاتراك من كلامهم. وهو لايفهم لغة الترك. فان ظاهر التفسير يجرى مجرى تعلم اللغة التي لا بد منها للفهم.

ويعتقد الامام الغزالي كما يعتقد جميع علماء الاسلام أن الباطن يجب ألا يناقض الظاهر. لأن الباطن هو استكمال للظاهر ووصول إلى لبابه عن طريقه (44).

وكما أن الباطنية تآمرت على عقيدة الاسلام وشريعته قديما ونشرت الذعر والهدم في المجتمع الاسلامي. كذلك فعلت فرقة باطنية أخرى في القرن التاسع عشر في ايران وهي البهائية (45). التي سلكت الطريق الباطني عينه في تحريف آيات القرآن واخراجها من مدلولاتها والانتهاء منه إلى ادعاء ونسخ الشريعة الاسلامية وادعاء نبوة جديدة للميرزا على محمد الباب والميرزا حسين النورى البهاء.

ولا أريد هنا أن اتحدث عنهم بالتفصيل ولكنني اعرض نماذج من تفسيراتهم الباطنية كي يكون واضحا أن حلقات الهدم في المجتمع الاسلامي لم تزل مستمرة. يقول الميرزا حسين النورى مفسرا قوله تعالى «اذا السماء انفطرت» اذ المقصود هنا سماء الأديان التي ترتفع في كل ظهور ثم تنشق وتنفطر في الظهور الذي يأتي بعده. أي أنها تصير باطلة منسوخة. وعلى هذا فالشريعة الاسلامية ونبوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قد نسخت وابطلت بظهور استاذه الميرزا على محمد الشيرازى. حسب هذا الزعم الباطني.

ويقول في تفسير قوله تعالى ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد. المقصود من الصور هو الصور المحمدى والمقصود من القيام قيام حضرته على الأمر الالهي (46) أي أستاذه الميرزا الباب بادعاء النبوة.

وهناك تفسيرات باطنية غريبة جدا. نجدها عند راعية البهائيين في مصر في بداية هذا القرن. الميرزا محمد بن رضا الجرفا دقاني الايرانى. والتى أله فيها صراحة الميرزا حسين البهاء. وعرضها في رسائله وكتبه (47).

ويستمر البهائيون في استخراج معاني باطنية لاصلة لها بالقرآن في تأييد نبوة الميرزا حسين البهاء. استمع إلى أحد دعاتهم في العراق يفسر قوله تعالى «يثبت الله الذين أمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة» الحياة الدنيا والآخرة. الحياة الدنيا هي الايمان بمحمد. والحياة الآخرة هي الايمان بميرزا حسين على البهاء (48). ويفسر قوله تعالى «كما بدأكم تعودون. فريقا هدى وفريقا حق عليه الضلالة» قائلا فريقا هدى فآمن ببهاء الله وفريقا لم يؤمن فحق عليه الضلالة (49).

ولم يبق التفسير الباطني في نطاق الفرق الباطنية. وانما تسرب إلى تفاسير معينة لفرق أخرى. فاذا قرأنا تفسير على بن ابراهيم القمى الأمامى الاثنى عشرى. في القرن الرابع الهجري. وجدنا أنه مشحون بتفسيرات باطنية لا

42) الذهبي ـ التفسير والمفسرون 3 / 24.
43) الالوسى ـ روح المعاني 6 / 60.
44) أحياء علوم الدين 1 / 298. 1 ـ 3.
45) راجع كتابي «حقيقة البابية والبهائية» فلقد تكلمنا في تاريخهم وعقيدتهم وباطنيتهم ومؤامراتهم على الإسلام والمسلمين.

46) الايقان ص 31.
47) نقل الذهبي نماذج منها في كتابه (التفسير والمفسرون) 2 / 264.
48) أحمدي حمدي ـ البنيان والبرهان 2 / 67.
49) المصدر السابق 2 / 98 ـ 99.

تتصل بمدلولات الالفاظ ولا وبالسياق القرآني. ومن العجيب أن تسند تلك الاكاذيب الفاضحة الى الامام جعفر الصادق رضي الله عنه.

قال القمي في تفسير قوله تعالى «الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» حدثني أبي عن يحي بن أبي عمران عن يونس عن سعدان بن مسلم عن أبي سعيد عن أبي عبد الله (ع) قال : الكتاب : على (ع) لاشك فيه بيان للمتقين. قال : أي بيان لشيعتنا (50).

وفي تفسير قوله تعالى «إن الله لايستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها نقل عن أبي عبد الله أن هذا المثل ضربه الله لأمير المؤمنين. فالبعوضة أمير المؤمنين. وما فوقها رسول الله (51).

ونلاحظ ان المفسر الامامى الاثنى عشرى الشهير «الطبرسي» لم يذكر في تفسيره هذه الروايات (52). ولكننا نأخذ عليه أنه أحيانا ينقل مثل هذه الروايات الباطنية عن القمي. ففي قوله تعالى «واذا وقع عليهم القول اخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس بآياتنا لا يوقنون» نقل عن القمي أن دابة الأرض هو على رضى الله عنه (53).

ولقد أثر التفسير الباطني تأثيرا كبيرا في تفسيرات كثير من الصوفية. حيث فسروا مثلا الرعد بصعقات الملائكة والبرق بزفرات قلوبهم والمطر ببكائهم (54).

وظهر هذا الاتجاه واضحا عند من يؤمنون بوحدة الوجود. ففي تفسير قوله تعالى «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون».

يقول : محيي الدين بن عربي :

«يا محمد ان الذين ستروا محبتهم في، دعهم فسواء عليهم أأنذرتهم بوعدك الذي ارسلتك به أم لم تنذرهم لايؤمنون بكلامك. فانهم لايعقلون غيرى وأنت تنذرهم بخلق وهم ماعقلوه ولا شاهدوه. وكيف يؤمنون بك وقد ختمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعا لغيرى. وعلى سمعهم فلا يسمعون كلاما في العالم الا مني. وعلى ابصارهم غشاوة من بهائي عند مشاهدتي فلا يبصرون سواى. ولهم عذاب عظيم عندي أردهم بعد هذا المشهد الى انذارك واحجبهم عنى كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو أدنى قربا. انزلتك الى من يكذبك ويرد ما جئت به اليه منى في وجهك وتسمع في ما يضيق له صدرك. فأين ذلك الشرح الذي شاهدته في اسرائك فهكذا إمنائي على خلقي الذين اخفيت رضاي منهم (55).

وابن عربي وامثاله من أصحاب وحدة الوجود. يزعمون ان لهم في فهم القرآن تلميحات واشارات تدل على الهامات الهية وتنزلات قدسية.

والإلهام والمكاشفة والذوق مقبول اذا عرضه صاحبه على القرآن والسنة. فما وافقهما فهو من الرحمن وما خالفهما فهو من الشياطين.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى «والوحي وحيان. وحي من الرحمن ووحي من الشيطان». قال تعالى : «وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم» وقال تعالى : «وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا» وقال تعالى : «هل أنبئكم على من تنزل الشياطين» قال ابن تيمية : لم يرو عن الصحابة الكرام أو التابعين ان أحدهم قال : إن له وجدا أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث. فضلا عن ان يدعي أحدهم أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذي يأتي الرسول وأنه يأخذ من ذلك المعدن علم التوكيد. والأنبياء كلهم يأخذون عن مشكاته. ولم يكن السلف يقبلون معارضة الاية الا بآية أخرى تفسرها وتنسخها أو بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم تفسرها. فانها تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه. وكانوا يسمون ما عارض الآية ناسخا لها (56).

وقد ناقش ابن حزم من اعتمد في المعرفة على الالهام ننقل منه مايلي «وان المدعين للالهام والادراك. مالا يدركه غيرهم باول عقله. لايتفق اثنان منهم على ما يدعيه كل واحد منهم الهاما أو إدراكا. فصح بلا شك انهم كذبة وان الذي بهم وسواس. وأيضا فان الإلهام دعوى مجردة من

50) تفسير القمى 1 / 30.
51) المصدر السابق 1 / 30.
52) مجمع البيان 1 / 36، 1 /67، 6 / 31.
53) المصدر السابق 7 / 234. انظر مكانها في القمى 2 / 130، 131.
54) الرازلي : مفاتيح الغيب 19 / 26.
55) الفتوحات المكية 1 / 15 نقلا عن كتاب «التفسير والمفسرون» 3 / 40.
56) الفرقات بين الحق والباطل ص 55.

الدليل. ولواعطى كل امرىء بدعواه المعراة. لما ثبت حق ولا باطل ولا استقر ملك أحد على حال. ولا انتصف من ظالم. ولاصحت ديانة احد ابدا. لأنه لا يعجز أحد عن أن يقول الهمت ان دم فلان حلال. وان ماله مباح لي اخذه. وان زوجه مباح لي وطؤها. وهنا لا ينفك منه. وقد يقع في النفس وساوس كثيرة لا يجوز ان تكون حقا واشياء متضادة يكذب بعضها بعضا (57).

وفي سبيل ايضاح هذا المعنى انقل ما كتبته تعليقا على بعض تفسيرات ابن عربي وغيره من الباطنية. فلقد قالوا في تفسير قوله تعالى «الم» ان الحروف الثلاثة رمز لثلاثة اشياء. فالالف رمز للشريعة واللام رمز للطريقة والميم رمز للحقيقة. فهناك يكون العبد كالدائرة نهايتها عين بدايتها. وهو مقام الفناء في الله تعالى. وقالوا في ذلك اشارة الى سر التثليث. فالالف مشير الى الله تعالى واللام مشير الى جبريل عليه السلام والميم الى محمد صلى الله عليه وسلم.

قلت : ان النقل والعقل ليسا بجانب هؤلاء وليس عندهم اي دليل على صحة ما يقولونه. اني اتساءل على اي شيء استند ابن عربي في تفسيراته الباطنية. أنه لا يستند الا على الأوهام والخيالات. والا فلماذا لا يأتينا بدليل من الكتاب والسنة ؟ قد يقال أنه كان ملهما. ولكن ما الدليل على انه كان ملهما ؟ وهل يقوم ارعاء الإلهام مقياسا ثابتا في تقرير حقيقة من الحقائق ؟ هب انه الهام. ولكن ما الدليل على ان كل ما صدر منه الهام ؟ ان من اقبح الأقوال ان يقال إن «الم» اشارة إلى سر التثليث كما مر. اننا إذا اعطينا المجال للتاويل الباطني والقينا الحبل على الغارب جاء شخص فزعم ان التثليث الذي يدعيه النصارى موجود في القرآن.

فالالف هو الله واللام جبريل والميم المسيح !!

هكذا دون ضابط (58).

بقي ان نقول ان ما يسمى بالتفسيرات الاشارية. اختلط فيها الحق بالباطل واشتبه على الناس فيها كلام الصوفية بكلام الباطنية.

والتفسير الاشاري هو فهم أمور معينة هي غير ظاهر الآيات مع الاعتقاد أن الظاهر هو المقصود (59).

ودلالة الاشارة معتبرة عند علماء الأصول. فانهم لما تكلموا على الفاظ الكتاب والسنة وقسموا دلالتها الى نوعين منطوق ومفهوم. قسموا دلالة المنطوق الى دلالة اقتضاء ودلالة اشارة. ومثلوا للأخيرة بقوله تعالى «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم» وقالوا : «دلت الآية بطريق المنطوق على احلال الجماع طول ليلة الصيام. ويؤخذ منها بطرق الاشارة صحة صوم من أصبح جنبا».

اذن فالفقهاء في استخراجهم المعاني الاشارية وقفوا عند حدود الضوابط الأصولية في فهم النصوص. اما الصوفية فلم يقفوا في معظم ماقالوا عند حدود تلك القواعد وبذلك كان تفسيرهم باطنيا واليك نماذج من هذه التفسيرات الاشارية لتحكم بنفسك على انها لا يقبلها ضابط أبدا.

ففي قوله تعالى «واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم» عدوا واذ نجيناكم : من قوى فرعون : النفس الامارة بالسوء. و «يذبحون أبناءكم» اي القوة الروحانية من القوى النظرية التي هي العين اليمنى للقلب «ويستحيون» اي قواكم الطبيعية. ليستخدموها ويمنعوها من أفعالها اللائقة بها (60).

وفي قوله تعالى «واذ قال ابراهيم رب ارني كيف تحي الموتى» قال : موتى القلوب بداء الجهل. وفي «فخذ اربعة من الطير» قال : اشارة الى طيور الباطن التي في قفص الجسم. وهي أربعة اطيار الغيب. العقل. القلب. النفس. الروح (61).

وفي قوله تعالى «الم غلبت الروم وهم من بعد غلبهم سيغلبون» قالوا : في الآية اشارة إلى حال أهل الطلب. يتغير بتغير الأوقات. فيغلب النفس روم القلب تارة. ويغلب روم القلب فارس النفس بتأييد الله تعالى ونصره تارة اخرى (62).

اجل بدون دليل من الكتاب والسنة وقوانين الحياة وضوابط التفسير. تستخرج بعض الصوفية من القرآن الكريم.

(57) الاحكام في أصول الأحكام 1 / 18
(58) انظر كتابي (الالوسي مفسرا) ص 255.
(59) تفسير القاسمي 1 / 323.
(60) روح المعاني 1 / 254.
(61) المصدر السابق 3 / 131.
(62) المصدر السابق 21 / 63.

الوفا من التفسيرات الاشارية التي قدمنا. ثم يقولون ان هذه المعاني ليست معاني باطنية، لاننا نقول بظاهر القران. وهذه حجة باطلة. فالنعمان بن حيون، الداعية الباطني لما راى ان المسلمين يستنكرون تفسيراته، ادعى انهم يؤمنون بالظاهر ايضا كما اسلفنا.

ان هذا التفسير في اعتقادي، وجه من وجوه الباطنية، وتلاعب صريح بمعاني القران واياته وزحزحتها عن مقاصدها الحقيقية.

وانه في ظل هذه التاويلات الباطنية، استغل اعداء الاسلام عبر التاريخ سذاجة كثير من المسلمين وغفلتهم واميتهم، فقرروا عليهم الكفر والشرك والانحراف وتقديس الائمة والصالحين، ونشروا الخرافة والاسطورة وحولوها الى دين جديد غير دين الاسلام الذي يعرفه علماء الاسلام في كتاب الله وسنة رسوله واجماع علمائه واجتهاد مجتهديه.

وإذا كان الله تعالى قد أخذ الميثاق الغليظ في كتابه الكريم على العلماء، كي يبينوا للناس الحقائق الاسلامية ولا يكتموها فان الواجب يقضي عليهم ان يراجعوا تاريخ التطور الفكري في حضارتنا الاسلامية ليقوموا بجرد كامل للافكار الهادمة والمبادئ الباطلة والاتجاهات الخرافية والاسطورية فيها، كي يفضحوها بالعلم والمنطق والبرهان، ليعود الاسلام عند المسلمين جميعا صافيا نقيا يوجه الجيل الجديد الى الايمان العميق، والتدبير الدقيق والعلم بالقوانين المادية وتسخيرها، واحداث التغيير المطلوب في مجتمعاتنا الاسلامية المتاخرة، نحو حياة الاصالة والحضارة والتقدم.

العدد الخاص بعيد العرش المجيد

●● تستعد أسرة التحرير لإصدار العدد الممتاز الخاص بعيد العرش السعيد في مطلع مارس القادم.

وتهيب (دعوة الحق) بالسادة الكتاب إلى موافاتها بإنتاجهم في وقت قريب ●●

في التفسير الحضاري:

التصوير

من وجهة نظر إسلامية

للأستاذ الحسن السائح

هو الله الخالق البارئ المصور، له الاسماء الحسنى، يسبح له ما في السموات والارض، وهو العزيز الحكيم

صدق الله العظيم

سورة الحشر مدنية آياتها 24

هو الله.. قصر الألوهية الواحدة عليه تعالى، وليس هناك اله غيره، وهو الخالق المخرج للشيء من العدم، يصمم ويقدر ليخرج الى الوجود وهو البارئ الذي ينفذ ويخرج من العدم فالله تعالى له صفتان متصلتان، الفارق بينهما طفيف يكاد لا يظهر، وهو المصور الذي يعطي الشكل والصورة، فهي صفة مرتبطة بالصفتين السابقتين ومعناها اعطاء الملامح المتميزة والسمات التي تمنح لكل شيء شخصيته الخاصة.

وصفات الخلق والبرء والتصوير صفات مترابطة بينهما فرق خفي جدا، وهذا الفرق يستجيش العقل ويلهب القلب لمتابعة العمليات الثلاث المترابطة وهي الخلق والبرء والتصوير.. فالسامع يتصور الخلق من العدم ثم البرء والاخراج، ثم التصوير واعطاء الشكل، وهي صور شريطية تتراءى للمتخيل متتابعة في حركة زمانية متعاقبة لا وقوف فيها ولله تعالى الاسماء الحسنى، هذه الاسماء الحسنة بذاتها لا باستحسان المخلوقات لها اذ هي بطبيعتها حسنة لا تتوقف في تقويم حسنها على اعتبارات عقلية او وجدانية بشرية وهذه الأسماء الحسنى توحي بصفاتها الى الانسان كمال الخالق المهيمن على المخلوقات، فلله وحده الصفات الكاملة والاسماء الدالة وجميع الصفات الكاملة ثابتة له، فلله الاسماء الحسنى لا تغلب فيه صفات على اخرى، فلا صفات القوة والقدرة أكثر ظهورا من صفات الرحمة والمحبة ولا العكس، فهو قادر عزيز، ومنتقم ورحمان ورحيم وهو خالق بارىء، وهو مصور وجبار وقوي... ليس علة نظام ولكنه خالق كل شيء، حاضر بوجوده في كل زمان ومكان، عالم بالغيب والشهادة لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ليس كما تصوره المسيحية جزء من الأقانيم، ولا كما تصوره اليهودية إلاها لبني إسرائيل، ولا كما تصوره الأرسطاليسية يعقل ذاته فقط.

وهذه الأسماء الحسنى توحي بصفاتها الى الانسان ان يصوغ اخلاقه وفق ايحاءاتها وتوجيهها لأن الله خلق آدم على صورته، ومن هنا فان هذه الصفات يتوق اليها الانسان ليقتبس من هديها ويسير في ظلال رحابتها، فهي صفات مطلقة في الخالق، نسبية في المخلوق.

وليس في تعدد صفات الله ما يناقض عقيدة المسلم المؤمن. اذ أن عظمة الله وتفرده بالكمال لها صفات تابعة لها لتحقق الذات الموجودة. فالله هو الأول والآخر. والمحرك الذي لا يتحرك ولا يدرك المنزه عن الشكل والهيولى وما يجري عليها من قوانين التركيب والتحليل. فهو الذي لا يدرك كنهه وهو الملك القدوس السلام المهيمن العزيز الجبار السميع العليم البصير. الحكم. العدل. الخبير. الصمد. القادر. الظاهر. الباطن. الرازق. النافع. الضار. المتكلم.

واسماء الله الحسنى تدل على انها افعال متجددة لا تقف عند الحركة الاولى. ولا عن العلة الاولى والصفات ليست متعددة بل هي اسماء لحقيقة واحدة ووحدانية الله في الكون هي تفرده بصفات الكمال وهو على عرشه حيث تطابق مركزية الله في الكون مركزيته في الارض فهو رب السموات والارض.. وتسبح له السموات والارض ومن فيهن. فالتسبيح المديد بالأسماء الحسنى به من الفيوضات الربانية ما تشع في الوجود كله وتبعث في كل موجود. فبذكر اسماء الله تعالى واكتسابنا لاخلاقها المثلى يسبح الجميع للخالق تعالى.

وما ان ظهر التيار الفلسفي حتى حاول المسلمون ان يوفقوا بين ما ينبغي لله في الدين. وما ينبغي لله في الفلسفة فتساءلوا عن هذه الصفات هل هي متعددة او هي اسماء مختلفة لحقيقة واحدة. واذا كانت متعددة فهل تعددها تعدد تركيب وهو ممتنع في حق الله تعالى المنزه عن التركيب او هو تعدد لا يستلزم التركيب واذا كانت مفردة فهل يعلم الله بقادريته وعلمه ثم هل هذه الصفات جميعها عين الذات او هي زائد على الذات والله احد لا زيادة عليه ؟!

وقد كان هذا الموضوع مثارا للجدل وسببا في اثارة موضوع (خلق القران) فقال جماعة بان اللفظ حديث والمعنى قديم وقالت جماعة اخرى بانه قديم بلفظه ومعناه اما العلم والارادة فقال بعض المتكلمين ان العلم بالجزئيات يقتضي التغيير في ذات الله وان الارادة تقتضي الطلب والاختيار وهما ممتنعان في حقه تعالى.

وكان الخلاف في هذه الموضوعات منشأ تعدد الفرق والمختلفون كانوا من اصحاب النقل او من اصحاب العقل او من اصحاب النقل والاحتجاج له بالعقل.. وكان العقلانيون أي اصحاب العقل يرون ان الصفات تدل على الكمال. وطريق السلب اقرب من طريق الايجاب في فهمهما.

التصوير والإسلام
ما يصور وما لا يصور في الإسلام

لنحدد الموضوع ونتناوله من الناحية الدينية. ومن الناحية الميتافزيقية. ومن الناحية السيكولوجية والاسلام يقرر الحقيقة الالاهية التي هي ان الله هو الحق الدائم. والكمال المطلق. اما الاطارات والاشكال والكميات فهي تراكم مؤقت مستمر الحركة والتغيير وخاضع لمشيئة الله.

اما من الجانب الميتافزيقي. فهناك اشكال وهيئات قائمة بذاتها. تتمازج جميعها وتتكاثر حسب نماذج معروفة وهذه الاشكال والهيئات تؤلف مجموعة متناسقة.

وعلى الصعيد السيكولوجي. فالانسان المسلم يرى في الكون وحدة متناسقة وحضورا الاهيا يملأ الكون كله.

والتصوير في فن من الفنون يتداخل فيه الموضوع والانسان والفكرة المعبر عنها ولها صلة قوية بالانسان ورؤيته للكون وثقافته.

ان الفن مراة تعكس افكار الفنان كما تعكس القيم التي يؤمن بها.. سواء أفكاره الذاتية او تاملاته وتصوراته. او افكار مجتمعه الذي ينتمي اليه ولهذا فالفن هو العلم الذي يعكس الاتجاهات العقائدية والاخلاقية في تاريخ الانسان. وفي تاريخ المجتمع الانساني. وبالفن نستطيع ان نؤرخ الانسان وميزته الانسانية وتطور رؤيته للمجتمع كل ذلك من خلال الاعمال الفنية التي رصدها الموهوبون من الفنانين.

واذا عدنا إلى تاريخ الإنسانية على أساس الدراسة الفنية فالفن القديم يعبر عن العنصر الديني الوثني في حياة الإنسان البدائي حيث ارتبط وجوده بالوثن. فصور ونحت تماثيل تعبر عن هذه المرحلة وما كان يعتقده ويؤمن به من أشياء يفسرها بعمله الفني وتعبيره عن رؤيته للكون بصفة عامة وعندما نؤرخ للإنسان من خلال العمل الفني. فإن المرحلة الأولى للفنون القديمة كانت تعبر عن العنصر الديني الوثني الذي هو في الواقع تعبير عن الحكم الاستبدادي الذي يتلقى الحاكم سلطته من الاله المفوض له الحكم أو من الوثن الذي هو صورة لأحد

أجداده. فالهيبة الدينية تفرض السلطة السياسية التي بدورها تؤيد الهيمنة الوثنية وتجعل العرش والصنم إلاها مطلقا يتحكم في البشر بواسطة الكهان الممثلين الدينيين للسلطة ولهذا فالكهان هم ممثلو السلطة وليسوا رجال دين كما يظهر في تاريخ الديانات.

وعندما نحاول تأريخ الفن الوثني عند العرب فنحن نجد أن المجتمع العربي كان مولعا بالتصوير والنحت، وكانت صناعة التماثيل صناعة رائجة لأن العرب كانوا يزينون المعابد والبيوت بالأصنام والأوثان وكانت العبادة في المنازل والمعابد على السواء وظهرت حرفة الفنانة حيث كان الفنانون يمتهنون حرفة التصوير بصورة شائعة كما كان النساجون والخياطون يصورون الأناسي والحيوانات على الستائر والملابس لتزويقها واستمروا على ذلك حتى جاء الإسلام فنهى عن ذلك كما في كتاب «تنوير الحوالك - ج 2 / 24» وفي كتاب «تاج العروس 4 / 422».

ومع الأسف، فليست لنا صور ترجع إلى هذا العهد لأنها كانت بالحبر أو بالصمغ الأسود على الادم والقرطاس والألواح. وهي صور لا يمكن أن تعمر طويلا أما التماثيل فقد كانوا ينحتونها من الأخشاب أو بواسطة قوالب تملأ بالجبص. كما صوروا الدمى على الألواح والأبواب للزينة ودفع الشر، أو للتبرك.. وبقيت هذه الصور محفوظة لقدرتها على مقاومة السنين. وهي مصنوعة باليد على الكؤوس والصحون. كما بقيت صور تمثل نماذج بشرية عثر على الكثير منها في سد مأرب.

ويلاحظ أن الفنان العربي صعب عليه التعبير عن الحركات، ورسم الأشياء المتجاورة، والتمييز بين القريب والبعيد، والتفريق بين المكانة الاجتماعية فلا فرق بين السيدة وخادمتها، والكاهن ومساعده.

وجاء الإسلام ليكون آخر الأديان كما أراد الله فقد تطورت الابراهمية من ملة حنيفية تستجيب لطبيعة البشر إلى الديانة الموسوية المنظمة الأولى للمجتمع البشري ثم جاءت المسيحية فكانت أول دين أقام العبادة على الضمير الإنساني، وبشر برحمة السماء.

أما الإسلام فقد أتم الفكرة الإنسانية للمجتمع وصححها مما عرض عليها من أطوار الديانات التي سبقته فأتم (الدين) للإنسانية.

فالفكرة الإلهية في الإسلام تامة لا يتغلب فيها الجانب المادي على الجانب الروحي ولا الفردانية على الجماعية، ولا تسمح بالشرك. ووجود المشابهة في الخلق، فالله واحد، وهو وحده المتصرف المتفرد، ليس له مثيل، لا في الحس ولا في الضمير. ولهذا فالإسلام يرفض الوثنية وصناعة الصنم والوثن سواء على سبيل التمثيل أو الرمز أو التقريب.

فالآية القرآنية التي تقصر التصوير على الله، تقصد التصور المطلق الحي للمخلوقات. ولكن القرآن الكريم يعرض لذكر التماثيل والهياكل التي صنعت لداوود بمعرفته ورغبته، وهو نبي لا يمكن أن يصنع ما يخالف إرادة خالقه.

أما السنة النبوية فتحرم تجسيد وتصوير الإنسان والحيوان وخاصة في المساجد.

لقد وردت أحاديث كثيرة تحرم التصوير والنحت ومع ذلك فقد ظهر التصوير التنبيهي أي أن الفنان المسلم وجد مجالا آخر لعمله يتناسب وينسجم مع معتقده. ذلك أنه اعتمد تقنية وأسلوبا يبتعد بالعمل الفني عن النقل الواقعي للمرئيات. فابتعد عن استعمال الظلال حتى لا يجسم، وافتعل عناصر وهمية وأحيانا مستحيلة واستعمل اللا معقول بالنسبة للألوان والأحجام... وهذا يدل على صدق نيته وإخلاصه ونزوعه إلى طاعة خالقه لا يرقى إلى درجة التشبيه بالخالق ومحاكاة المخلوقات.

أخرج البخاري في كتاب «بدء الخلق» «في حديث صحيح عن أبي طلحة قال سمعت رسول الله (ص) يقول : لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة تماثيل...

وعن يسر بن سعيد أن زيد ابن خالد الجهني حدثه ومع يسر بن سعيد عبيد الله الخولاني الذي كان في حجر ميمونة زوج النبي (ص) حدثهما زيد بن خالد أن أبا طلحة حدثه أن النبي (ص) قال : لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة. قال يسر : فمرض زيد بن خالد فعدناه فإذا نحن في بيته بستر فيه تصاوير فقلت لعبيد الله الخولاني ألم يحدثنا في التصاوير فقال : إنه قال : إلا رقم في ثوب ألا سمعته ؟ قلت : لا. قال : بلى قد ذكره.

وأخرج البخاري في كتاب (اللباس في باب ما وطئ من التصاوير) قالت قدم رسول الله (ص) من سفر، وقد

سترت بقرام لي (ستر بين رقم ونقش) على سهوة لي (صفة في جانب البيت) فلما رآه (ص) هتكه (أي نزعه) وقال، أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله قالت، فجعلناه وسادة أو وسادتين.

وأخرج البخاري في كتاب البيوع في باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء عن عائشة أنها اشترت نُمْرُقة فيها تصاوير فلما رآها (ص) قام على الباب فلم يدخله. فعرفت في وجهه الكراهية فقلت يا رسول الله أتوب إلى الله والى رسوله (ص) ماذا أذنبت فقال، (ص) ما بال هذه النمرقة ؟» قلت، اشتريتها لك لتقعد عليها وتتوسدها. فقال رسول الله، إن أصحاب هذه المصورين يوم القيامة يعذبون فيقال لهم، أحيوا ما خلقتم ؟ وقال، «إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة».

وأخرج البخاري في كتاب (اللباس). باب عذاب الصور يوم القيامة. أن رسول الله (ص) قال، إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة. يقال لهم، أحيوا ما خلقتم» وفي البخاري في كتاب (اللباس) باب عذاب المصورين يوم القيامة. عن عبد الله بن مسعود قال، سمعت النبي (ص) يقول، إن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون».

وفي البخاري في كتاب البيوع. في باب بيع التصاوير التي ليس فيها روح وما يكره من ذلك.

عن سعيد بن أبي الحسن. قال، كنت عند ابن عباس. إذ أتاه رجل فقال، يا أبا عباس ! إني إنسان إنما معيشتي من صنعة يدي. وإني أصنع هذه التصاوير. فقال ابن عباس، لا أحدثك إلا بما سمعت رسول الله (ص) يقول. سمعته يقول «من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيه الروح. وليس بنافخ فيها أبدا. فربا الرجل ربوة شديدة واصفر وجهه. فقال، ويحك إن أبيت إلا أن تضنع. فعليك بهذا الشجر. كل شيء ليس فيه روح.

وفي البخاري في باب اللباس باب نقض الصور عن أبي زرعة قال دخلت مع أبي هريرة دارا بالمدينة فرأى أعلاها مصورا يصور فقال، سمعت رسول الله (ص) يقول، ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا حبة وليخلقوا ذرة».

وعن أبي عباس. دخل النبي (ص) البيت فوجد فيه صورة ابراهيم وصورة مريم فقال، أما هم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة، هذا إبراهيم مصور فماله يستقسم ؟

وعن ابن عباس أنه عليه السلام لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ورأى ابراهيم واسماعيل بأيديهما الأزلام فقال، قاتلهم الله ! والله ما استقسما بالأزلام قط

ولما دخل الرسول (ص) مكة يوم الفتح وجد تصاوير وأصنام فأمر بتحطيمها. وإزالة معالمها. وأخذ يكسر كل ما فيها من أصنام. وكان بالكعبة حمامة من عيدان فكسرها الرسول بيده وطرحها.

ووجد على جدران الكعبة صورا للملائكة وغيرها وصورة ابراهيم وفي يده الأزلام يستقسم بها. وصورة عيسى وأمه. فأمر الرسول بمحو ذلك كله فغسلت بالماء ومسحت بثوب بُلّ بالماء حتى طمست إلا صورة عيسى بن مريم وأمه فقد أمر الرسول بإبقائها. كما تقول بعض الروايات. وبقيت إلى أيام عبد الله بن الزبير فلما تهدم البيت تهدمت الصورة معه.

وعن ابن عباس،

دخل النبي (ص) بيتا فوجد فيه صورة ابراهيم وصورة مريم فقال، أما هم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة ؟ هذا ابراهيم فما له يستقسم ؟

وعن ابن عباس أنه عليه السلام لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت. ورأى ابراهيم واسماعيل بأيدهما الأزلام فقال، قاتلهم الله ! والله ما استقسما بالأزلام قط

لماذا حرم الاسلام التصوير ؟ ما هي الاسباب التي دفعته الى ذلك ؟ ولماذا هذا الموقف الصارم لعلماء الاسلام القدامى منه ؟

نشر (ماسنيون) في مجلة (سوريا) سنة 1931 بحثا بعنوان «اساليب المنجزات الفنية لدى الشعوب الاسلامية». وفي رأيه ان القرآن لا ينص على التحريم وانما يحرم الانصاب والازلام لانها معبودات وثنية. والرسول الكريم لم يدع الخوارق وانما هو بشر ومصطفى بخلاف البوذية والمنوية والمسيحية. فالتمثيل والاوثان للآلهة والايقونات للرسول الذي يعتبر اقنوما من الاقانيم الثلاث.

واختلف علماء فقه الحديث في تفسير الحديث فابو علي الفارسي. والفقيه أحمد الرازي صاحب احكام القران يريان أن التحريم في الحديث ينصب على الصور التي تجسد الخالق. وبناء على هذا التاويل يجوز التصوير. وقد انتشر هذا الشرح للحديث في البلاد المتاثرة بالمذهب الحنفي كالعراق ولبنان وتركيا. وكان هذا منشا ازدهار المنمنمات والتصوير في هذه البلاد.

اما الشافعية فتشددوا. ويقول النووي في مسند احمد (ج 4) قال أصحابنا وغيرهم من العلماء. تصوير صورة الحيوان حرام. شديد التحريم وهو من الكبائر لانه متوعد الوعيد الشديد المذكور في الاحاديث. وسواء صنعه بما يمتهن او بغيره فصنعته حرام بكل حال لان فيه مضاهاة لخلق الله. وسواء كان ثوبا أو بساطا أو درهما أو فلسا أو إناء أو حائطا أو غيرها.

واما تصوير الشجر ورحال الابل وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان فليس محذورا.

ويحرم السوافي من علماء القرن الثالث عشر اقتناء كل شكل مصور يلقي ظلالا. ولهذا فكل شكل او هيكل بشكل صورة متحركة حتى الدمى وقطع الحلوى ذات الاشكال الرامزة الى الكائنات الحية والتصاوير الممثلة التي تصرف المؤمنين عن العبادة.

كما ان الصور تحرم عند كل شعب غير متطور دينيا حيث يخلط بين الصورة والكائن الحي.

وتحريم الصور ليس مقصورا على الدين الاسلامي فان اليهودية تحرم التصوير. فقد اوحي الى انبياء بني اسرائيل بتحريم تصوير الالهة وقال لهم الله (حسب تعابيرهم) لا يكن لك الهة اخرى امامي ولا تصنع لك تمثالا منحوتا.

على ان في القرن العاشر الميلادي نجد فتاوي لبعض الفقهاء تجيز التصوير. وحجة هؤلاء ما ورد في القران الكريم من ذكر (التماثيل) التي صنعت لسليمان بعلمه ومعرفته ورغبته. وهو نبي من الانبياء.

ويرى المعتزلة (وهم من المجتهدين الذين يخضعون النصوص الشرعية للبحث المنطقي والاصولي) ان التصوير جائز لان علة التحريم هي عبادة الاصنام والصور فاذا زالت العلة زال التحريم. ولذلك فإن هؤلاء لم يروا سببا للتحريم. وقد انتشر مذهبهم وشاع في العراق ايام ازدهاره. وظهر التصوير للحيوانات والنبات على الكؤوس والاواني والسجاد الذي يعتبر فنا اسلاميا محضا. كما ظهر التصوير في الشعارات والرايات ورسم الحيوانات على الثوب وبالاخص في الحروب الصليبية حين اتصلت الحضارة الاسلامية بالحضارة المسيحية.

وكذلك اجاز الولاة المسلمون في القرون الاولى للاسلام التصوير على العملة وما تزال بعض المسكوكات عليها صور الولاة كموسى بن نصير وغيره. وذلك استمرارا لضمانة العملة وقوتها بما تعارفت عليه الشعوب من قبل. وشاع كذلك رسم الحيوانات ونحتها في قصور الامويين والعباسيين. وقصور الامويين في الاندلس. فعرفت (الزهراء) تماثيل بشرية كما عرفت قاعة الاسد بالحمراء صورا مختلفة للحيوانات ما تزال ماثلة الى اليوم.

ويرى الامام محمد عبده ان الصورة المعبرة عن الوجه البشري بمختلف انطباعاته النفسية والجسدية. كانت محرمة في اول الاسلام. لان الصورة انما كانت للعبادة وهي محرمة شرعا او للتسلية وهي كذلك غير مقبولة والاسلام ليس تسلية وانما هو جدية في الاقوال والاعمال والنوايا. وبما ان الاسلام جاء ليقضي نهائيا على الوثنية. فقد حرم كل ما يذكر بها.. نعم اذا كان التصوير للتعليم او لضبط شخصية الانسان فليست محرمة في شيء. لان المحرم هو الصور المستهترة الداعية للعبث والانحراف.

اما الشيعة فهي تجيز التصوير ومن ثم فايران الشيعية ومراكز الشيعة بصفة عامة لا ترى في التصوير تحريما ويرجع ذلك لطبيعتها المأساوية بعد قتل الامام علي وولده الحسين.

والمسيحية كذلك إعتمدت التصوير لطبيعة المأساة في حياة المسيح وهي طبيعة مصطنعة ارادها انصار المسيح بعد رفعه أن يجعلوا حياته مأساة بشرية وقد شجع المسيحيون التصوير والنحت. اذ حسب فلسفتهم ان الاله ظهر في الزمان متجسدا في يسوع فقد اصبحت من اجل ذلك الصور المجسدة اساسية في العالم الروحي لانها تثبت الى جانب الالوهية ناسوتية المسيح. وتصوير الصلب لخلاص البشر فهي إذا تؤدي وعظا دينيا يبرز ازدواج الطبيعة لذات السيد المسيح اي اللاهوتية والناسوتية وذلك

في مقابلة الذين لا يقولون بالتصوير من القائلين بالطبيعة الواحدة

ولم يفصل مجمع نيقية، ومجمع أفسس، ومجمع خلقدونية في الطبيعة الإلاهية، ولذلك كانت الكنيسة منقسمة على نفسها بين معاداة للتصوير أو تحطيم التصوير أو مؤيدة للتصوير.

فالمعادون Iconoclaste ظهروا في القرن الثامن الميلادي في الإمبراطورية البيزنطية وهم من القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح Monophysistes وتزعمها الراهب Savonarols في عصر النهضة وهؤلاء متأثرون بالمذهب الاسلامي الذي لا يقول بالتصوير.

أما المعادون المحطمون للصور والتماثيل أن اللا إقونة Anticonisme فهم غير أصحاب مذهب المعاداة المعروف Iconolasme ...وفي القرن السادس عشر ظهر سوسينوس Socinus فنفى عن المسيح كل ألوهية، وتفرع عن مذهبه مذهب الموحدين Unitarian وقد قرر في مذهبه بشرية عيسى كما جاء في القرآن الكريم.

إن التصوير والنحت بدأ في المسيحية بمعجزة المسيح الذي يصنع من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه ليصبح طائرا بإذن الله.

ولكن الصورة والتمثال المعجزة إنما هو لتأييد دعوة المسيح، ولهذا فقد أصبح من تقاليد المسيحيين استذكار معجزة الصورة والتمثال. والصورة والتمثال تعطيان فكرة عن الموضوع، وربما أعطت معرفة مزورة لأن الحواس معرضة للخطأ، ومعرضة للتحريف... ومن ذلك تمثال صلب المسيح الذي يقدم المسيح في صورة مغايرة للواقع، وقضية الصلب هي التي دعمت الأفكار المأساوية المغلطة للتاريخ والمفسدة للواقع، فالمسيح عليه السلام لم يصلب، وإنما تتحدث كتب التاريخ عن وضعية الصليب ثم إنزاله منه وذلك إهمادا لليهود الذين كانوا يطالبون بصلبه بل إن الإسلام (وهو الحق) لم يقل بأي شكل من أشكال الصلب فالمسيح لم يمت مصلوبا بدليل وجود كفنه في المغارة دون أن يكون المسيح موجودا فيها، وبدليل العشاء الأخير الذي وقع بعيد الصلب، فقدسيته لهم أنه صلب وهو لم يصلب أو صُلّبَ شخص آخر مكانه.

وتعتبر الصورة هي المفسدة للحقيقة التاريخية والمروجة لصلب المسيح، مع أنه لم يصلب، وجاء في لسان العرب : الصلب هو القتلة المعروفة مشتق من الصلب، المشتق من فعل صلبه يصلبه لأنه ودك وصديد يسيل، وقد صلبه يصلبه صلبا وصلّبه (تشديد التكثير) وفي التنزيل، وما قتلوه وما صلبوه، وفيه ولأصلبنكم في جذوع النخل أي على جذوع النخل.

والإسلام من أجل ذلك لا يقول بثقافة الصورة لأنها مضللة وإنما يصور باللغة التي تعطي مفهوما واضحا غير مضل من الناحية النفسية وإن كان ناقصا من ناحية الإطار الشكلي للموضوع، فقد صور النبي المسيح لأصحابه عليهم السلام بتشبيهه بعروة بن مسعود...

عن جار عن رسول الله (ص) قال عليه السلام عرض علي الأنبياء فإذا موسى عليه السلام رجل ضرب من الرجال كأنه من رجال شنودة، فرأيت عيسى بن مريم فإذا أقرب من رأيت شبها به عروة بن مسعود، ورأيت ابراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبها صاحبكم.

أخطاء مصحف مصر

للدكتور التهامي الراجي الهاشمي

1 ـ طبع بالقاهرة مصحف شريف بعشر مقاسات مختلفة، من المقاس رقم 10 الذي تصعب قراءته لصغر ورقة حروفه إلى المقاس رقم 1 الكبير الحروف جدا، ووزع على نطاق واسع.

طبع هذا المصحف بالرسم العثماني برواية ورش بالخط المغربي التونسي الجزائري الافريقي الموحد، وفقا للتصميم الذي وضعه محمد عبد الرحمان محمد وأقر صحته بالأزهر.

طبع بالخط المغربي الجميل.
ع نظرا للعدد المرتفع جدا
كل مكان، يقرأه المسلمون

ت منه، أنا أيضا،
؟، رغم أنني من

أن أخطاء
ي أقرت

له في
ديث
ما

صحته تتكون من كبار المهتمين بالقرآن الكريم في مجمع البحوث الاسلامية بالجامع الأزهر الشريف. ولاشك أن هذه اللجنة لم تصدر قرارها بطبعه إلا بعد التثبت من عدم وجود أي خطاء فيه، من أي نوع كان. أو هكذا خيل لها.

وبما أن هذا المصحف يوجد الآن في كل مسجد من مساجد المغرب، يقرأ فيه الناشئة الحزب بعد المغرب وبعد صلاة الصبح، فإنه يسبب خللا في القراءة الجماعية نظرا لكثرة أخطاء وقفاته التي أرادت اللجنة أن تكون موافقه لوقف الهبطي.

2 ـ سؤال واحد قد يرد هنا

ماهي الحجة على أن هذا المصحف موقوف بوقف الهبطي ؟

أقول إن الحجج كثيرة لا تحصى تدل كلها على أن ماأرادته اللجنة هو وقف الهبطي (1).

أنه مثلا يقف على قوله «عصاك» ولا يقف على «الحكيم» المتممة للآية ويقف على «يعقب» وعلى «لاتخف» الذين في وسط الآية، في قوله تعالى (2) : «ياموسى انه

أنا الله العزيز الحكيم (آية 9) وألق عصاك. فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب. ياموسى لاتخف. إني لا يخاف لدي المرسلون (3) (آية 10).

كما لايقف مثلا على آخر الآية 59 من سورة يس ويقف بعدها على : «وان اعبدوني» التي ليست رأس آية. وهكذا يفعل في مآت الاماكن من القرآن الكريم. وهذا صنيع لا نراه إلا عند الهبطي. لكنه لم يحترمه دائما كما سنرى.

3 ـ الاماكن التي أخطأ فيها في باب الوقف

1 ـ سورة البقرة

لم يقف على قوله : «هذا الذي رزقنا من قبل» (4). الذي يقف عليها الامام الهبطي. وحق له ذالك لأن القطع هنا صالح كما هو صالح في الكلمات الأخرى من هذه الآية التي يقف عليها الهبطي. وهي «وأتوا به متشابهة.» و «مطهرة.» (5).

ولكنه وقف على قوله : «ود كثير من أهل الكتاب» (6) وهي موصولة عندنا لأن الوقف لا يكون تاما هنا إلا بعد «لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا» كما أخبرنا بذلك كل من الاخفش والفراء (7).

ولم يقف على قوله عز من قائل : «تشابهت قلوبهم.» وهي موقوفة عندنا وهو قطع صالح ما في ذلك من شك (8).

كما أنه لم يقف على قوله عز وجل : «ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.» (9) ولا على قوله : «وأوصى بها إبراهيم بنيه.» (10) قال الأخفش عن هذه الوقفة هنا : «هذا التمام (11) ثم قال عز وجل : «ويعقوب». أي قال يعقوب : «يابني.» ولو وقف الساهرون على طبع هذا المصحف على قوله : «بنيه ويعقوب.» لقبلنا منهم ذلك لأن الوقف هنا سيكون. كما قال أبو حاتم. كاف حسن (12).

لم يقف أيضا على قوله : «فإنما اثمه على الذين يبدلونه.» (13) ولاعلى : «في ظلل من الغمام» (14) الذي نقف عليه. وهو وقف تام وبه نعزز ماذهب إليه كثير من العلماء المهتمين بالوقف والابتداء وهو : أن الملائكة تأتي في ظلل من الغمم ويأتي الله عز وجل فيما يشاء (15).

كما أنه لم يقف على قوله : «وقضي الأمر» (16) مع أنه وقف تام يقفه كل القراء. سواء الذين يقرأون. في هذه الآية اللفظ «الملائكة» بالكسر (17) أو الذين قرأوه بالضم وهم جميع القراء السبعة بلا خلاف (18).

كما لم يقف على قوله : «ويسخرون من الذين آمنوا» (19) مع أنه قطع تام في نظر الجمهور وعلى رأسهم أبو عبيدة وأبو حاتم. قال ابن الانبارى في إيضاحه (20) بعد أن ذكر هذا المقطع من الآية : وتبتدئ : (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة). أقول لم يقف على «... من الذين آمنوا» رغم أنه وقف على قوله : «فوقهم يوم القيامة» مع أنها ليس رأس آية. وقف عليها كما نقف مما يدل علغ أن إرادته تطبيق وقف الهبطي.

ولم يقف على قوله : «ولا تنسوا الفضل بينكم» (21) ولا على قوله : «فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم» (22) مع أن الأولى وقف والثانية قطع صالح. ونسي أن يقف على قوله : «إن كتب عليكم القتال إلا تقاتلوا» (23) وهو قطع

---

(1) تسهيلا علينا سنضع نقطة بعد كل كلمة وقف عليها الامام الهبطي
(4) الآية 25.
(5) يؤكد هذا الذي نقوله العلامة ابو جعفر النحاس في كتابه «القطع والائتناف» صفحة 123 من الطبعة الاولى ببغداد سنة 1398 هـ (1978 م) تحقيق الدكتور احمد خطاب العمر.
(6) الآية 108.
(7) قال الامام الفراء بعد قوله : «كفارا» : «هاهنا انقطع الكلام».
(8) انظر كتاب الوقف والائتناف صفحة 161.
(9) الآية 128.
(10) الآية 131.
(11) نعلم ان الوقف التام هو الذي يحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده ولا يكون بعده ما يتعلق به.
(12) انظر كتاب القطع والائتناف صفحة 164.
(13) الآية 180.
(14) الآية 209.
(15) ومنهم ابو العالية.
(16) الآية 209.
(17) يقرا «والملائكة» بالكسر ابو جعفر يزيد بن القعقاع حسب ما اخبرنا به ابن الجزري في نشره الجزء الثاني. صفحة 227 النظر التاسع وابو حيان الغرناطي في بحره الجزء الثاني. صفحة ؟ والقرطبي في جامعه الجزء الثالث. صفحة 25.
(18) يقول الفراء عن قراءة الجمهور : «والرفع اجود. لانها في قراءة عبد الله «هل ينظرون الا ان يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام» معاني القرآن ج صفحة 124.
(19) الآية 210.
(20) إيضاح الوقف والابتداء. الجزء الاول. صفحة 549.
(21) الآية 235.
(22) الآية 241. (23) الآية 244.

صالح تماما مثل الوقف على ما قبله. وهو : «إذ قالوا لنبيء لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله» التي يقف عليها الإمام الهبطي ويقف عليها الساهرون على طبع هذا المصحف.

ولم يقف على قوله : «وسع كرسيه السماوات والأرض» (24) في آية الكرسي التي يقف عليها الهبطي. اعتقد أن أصحاب هذا المصحف على حق هنا ذلك أن الوقوف الكافية المفهومة في آية الكرسي هي :

1 - القيوم
2 - ولا نوم
3 - وما في الأرض
4 - الا بإذنه.
5 - وما خلفهم.
6 - الا بماشاء.
7 - ولا يؤوده حفظهما.

وأما : «وهو العلي العظيم» فهو تام (25). وهو آخر آية كما هو معلوم. لذا أقول : ربما هم على حق حين لم يقفوا على قوله تعالى : «وسع كرسيه السماوات والأرض» لأنه ليس، كما رأيت، من الوقوف الكافية. لكن الإمام الهبطي الآن، ولذا أصوبه هنا مادام المصحف مطبوع على مادرج عليه المغاربة (26).

ولم يقف على قوله : «ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا» مع أننا نقف عليها اتباعا للامام الهبطي رضي الله عنه. لكن العلماء انقسموا هنا إلى قسمين، قسم يرى أنه قطع كاف، وعلى رأسهم أبو حاتم، وقسم يرى أنه تام وعلى رأسهم العباس بن الفضل. ويظهران اختلاف العلماء في هذا عائد إلى اختلاف الناس في معنى الحكمة الموجودة في هذه الآية.

ولم يقف على قوله : «فرهان مقبوضة» (27) مع أن وقف عند الهبطي وعند غيره مثل أبي حاتم.

2 - سورة آل عمران

وقف على قوله عز وجل «أنثى» (28) في الآية : «فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت».

لا نقف نحن هنا رغم أنه قطع حسن عند يعقوب وأبي حاتم. لربما لأننا نقرأ قوله «وضعت» بفتح العين. وحجتنا في ذلك أنه ليس من كلام أم مريم. قرأ بهذا الأئمة نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة واللسائي وحجتهم أن الله أعلم بما وضعت (باسكان التاء) قالته أو لم تقله (29). لكن من قرأ «وضعت» (بضم التاء). وهي قراءة عاصم. لا يقف على «أنثى» إذ لا يحسن ذلك لأن الكلام الثاني متصل بما قبله وهو من كلام أم مريم (30). أعتقد أن الذي جعل اخواننا المصريين يقررون الوقت هنا تأثرهم بقراءة الامام عاصم السائدة. وحدها تقريبا في الديار المصرية.

كما لم يقف هذا المصحف الذي نتحدث عنه على قوله : «وكفلها زكرياء» (31) وهو دعاء معطوف بعضه على بعض كما قال أبو جعفر النحاس وغيره (32) ولا على قوله : «وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم أيات الله وفيكم رسوله» (33) مع أنه وقف حسن (34) والتمام هو (35). طبعا آخر الآية «فقد هدي إلى صراط مستقيم».

ولم يقف أيضا على قوله : «لن يضروكم» (36) وهو وقف نقفه اتباعا للامام الهبطي رحمه الله وإن كنت أفضل أن لو وقفنا بعده. أي على «لن يضروكم إلا أذى» لأن الامام نافع يرى أن القطع الحسن هو : «إلا أذى».

كما أنه لم يقف على قوله : «قل موتوا بغيظكم» (37) مع أنه وقف حسن وإن لم يشر إليه الإمام أبو جعفر النحاس (38) ونص عليها أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الانبارى (39). لكنه وقف على قوله : «إن في خلق

(24) الآية 254.
(25) انظر تفصيل هذا في «القطع والائتناف» صفحة 161.
(26) الآية 268.
(27) الآية 187.
(28) الآية 36.
(29) انظر «الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها» الجزء الاول. ص 340.
(30) ايضاح الوقف والابتداء الجزء الثاني. الصفحتان 579 و 576.
(31) الآية 37.
(32) القطع والائتناف. صفحة 221.
(33) الآية 101.
(34) ايضاح الوقف والابتداء. ج 2 ص 584.
(35) القطع والائتناف. ص 221.
(36) الآية 111.
(37) الآية 119.
(38) لقد اقتصر الامام ابو جعفر النحاس على اخر الآية : «ان الله عليم بذات الصدور. فقال : «قطع حسن».
(39) اشار اليه في ايضاحه. الجزء الثاني. صفحة 583.

السماوات والأرض» (40) مع أنني لم أر أحدا قال بهذا القطع، والله أعلم.

3 ـ سورة النساء

لم يقف على قوله : «وإن كانت واحدة فلها النصف» (41) كما وقف في نفس الآية على قوله : «إن كان له ولد» وعلى «الثلث» وعلى «السدس» وقبل كل هذا. وفي نفس الآية، على قوله : «في أولادكم» وعلى «الأنثيين» وعلى «ثلثا ما ترك». فلما وقف على هذه وجب عليه أن يقف على «فلها النصف» لأنه ليس في الآية وقف دون قوله : «أو دين». لكن الوقوف التي أشرت إليها والتي وقفها الإمام الهبطي وتبعه فيها المغاربة قاطبة وقوف حسنية ولكنها غير تامة طابعا، لأن هذه المواريث التي تتحدث عنها الآية بإيجاز إنما تصل إلى أهلها من بعد وصية يوصى بها ومن بعد الدين.

كما لم يقف على قوله : «وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس» (42) رغم أنه وقف تام حسب مايراه الإمام أحمد بن جعفر أبو علي الدنيوري وحجته أنه شرط معه جوابه. ولا وقف على قوله : «فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما» مع أنه قطع حسن يقف عليه الإمام الهبطي.

4 ـ سورة المائدة

لم يقف على قوله عز وجل : «إذ قلتم سمعنا وأطعنا» **(43)** مع أنه وقف حسن عند الجمهور، وإن كان التمام هو : «إن الله عليم بذات الصدور» وهو رأس هذه الآية.. كما لم يقف على قوله تعالى : «فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة» (44) وهو وقف حسن كما نص عليه ابن الأنباري (45). ولم يذكر هنا أبو جعفر النحاس الا التمام (46) الذي يقع بآخر الآية. وهو : «وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون». ولم يقف على قوله : «وإن لم تؤتوه فاحذروا» (47) رغم أنه وقف حسن، أحسن على كل حال من الذي قبله (48). وهو : «سماعون لقوم آخرين لم يأتوك» التي وقف عليها اتباعا للإمام الهبطي. مما يدل مرة أخرى على أنه يحاول تطبيق وقوف هذا الإمام.

ولم يقف على قوله : «فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك» (49). وهو وقف حسن وإن لم يذكر أبو جعفر النحاس.

سورة الانعام

لم يقف على قوله : «بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل» (50) ولا على قوله : «قال أليس هذا بالحق» (51) ولا على قوله : «قل هل يستوي الاعمى والبصير» (52) وقد وقف، في نفس الآية على ما يقف عليه الإمام الهبطي، وقف على : «ولا أقول لكم إني ملك» وعلى «إن أتبع إلا ما يوحي إلي» مما يدل على أنه لا يتبع في الوقوف إلا الإمام الهبطي. ومعلوم أن التمام رأس الآية. وهو : «أفلا تتفكرون».

ولم يقف على : «ولو شاء الله ما فعلوه» (53) الذي نقف عليه وهو وقف حسن. والتمام : «فذرهم وما يفترون». ولا على «ولاتسرفوا» (54). لكنه وقف على قوله : «قل آلذكرين حرم أم الأنثيين» (55) وهي غير موقوفة عندنا ولم أر أحدا نص على قطعها بأي صفة كانت وفي الآية وقوف أخرى أشار إليها هذا المصحف. وهي «ثمانية أزواج» الذي هو، في الحقيقة تبينا لقوله «حمولة وفرشا» (56) في الآية السابقة. و «من المعز اثنين» و «أرحام الأنثيين» وهو وقف التمام وإن لم يكن رأس آية.

الرباط : الدكتور التهامي الراجي الهاشمي

(41) الآية 11.
(42) الآية 12.
(43) الآية 8.
(44) الآية 14.
(45) إيضاح الجزء الثاني، صفحة 611.
(46) القطع والائتناف صفحة 283.
(47) الآية 41.
(48) لكنه وقف تام مذهب الأخفش ونافع وأحمد بن موسى وأبي حاتم، انظر القطع والائتناف صفحة 288. لكن ابن الأنباري يرى أن «لم يأتوك» حسن غير تام لأن قوله : (يحرفون الكلم) حال مما في (يأتوك) كأنه قال : (لم يأتوك في حال تحريفهم) وانظر كذلك زيادة في الإيضاح «معاني القرآن للفراء» الجزء الأول ابتداء من صفحة 308.
(49) الآية 43.
(50) الآية 28.
(51) الآية 30.
(52) الآية 50.
(53) الآية 137.
(54) الآية 141.
(55) الآية 144.
(56) الآية 142.

من رواد عصر النهضة في المغرب:

الفقيه محمد القري شاعر الإلتزام

للأستاذ محمد عبد العزيز الدباغ

في أوائل القرن العشرين الميلادي أحس المغرب بتآمر بعض الدول الأوربية عليه وحرصها على إحداث الفتن الداخلية فيه لينهار تماسكه وتضطرب أحواله ووجد نفسه وجها لوجه أمام دسائس خطيرة أدت في النهاية الى سقوطه في قبضة الفرنسيين والاسبانيين رغم مواقفه البطولية ورغم محاولاته المتواصلة لاثبات ذاته ولإشعار العالم بما يحاك حوله من دسائس.

وكان الاستعمار العالمي انذاك يهدف الى تقسيم الدول العربية وبعض الدول الإسلامية تقسيما مهولا وانتهت المعاهدات السرية بالسماح لفرنسا باحتلال المغرب وبالسيطرة عليه على شرط الإبقاء على جزء منه بيد الإسبانيين وعلى شرط عدم التدخل في مصير مصر إذا أرادت انكلترا أن تحكمها وعلى شرط غض الطرف فيما تقوم به إيطاليا في ليبيا وعما تقوم به دول أخرى في أجزاء من افريقيا.

ومع ذلك فإن المغرب كان حذرا واستطاع بما له من حنكة في الحكم الذاتي أن ينتزع الاعتراف الدولي بشخصيته وكيانه سواء في مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906 أو في معاهدة الحماية التي أملتها الإرادة الفرنسية على المغرب سنة 1912 فلقد كان المولى عبد الحفيظ دقيق النظر قوي التبصر حينما احتاط في المعاهدة فلم يفرط في السيادة الوطنية رغم الضغوط الأجنبية ورغم كثير من التنازلات التي جعلت التسيير الإداري والإقتصادي والعسكري في يد الفرنسيين بحيث جعل ضمن بنود الحماية حفظ الكيان الديني وكيان العرش وكيان الوجود المغربي فلم تستطع فرنسا أن تبتلع الشخصية المغربية وأن تقضي عليها. ومع ذلك فان المولى عبد الحفيظ احس عند تطبيق بنود الحماية بتلكؤ الفرنسيين في قبول التصرف وفق الحرية التي تخولها له المعاهدة فاضطر أمام الضغط الذي مارسوه ضده أن يتنازل عن العرش وأن يكره على الإقامة الإجبارية بفرنسا ولقد كان بوده بعد التنازل أن يقيم بمصر أو بالحجاز ليكون قرب الحرمين الشريفين ولكن الفرنسيين حرموه من ذلك وألزموه بالذهاب الى

فرنسا بعيدا عن أهله محروما من ماله ولعلهم فعلوا ذلك خوفا من أن يجد في منفاه وسيلة للثورة أو طريقا لرد الفعل فهم كانوا يرغبون في أن يعيش تحت سمعهم وبصرهم.

ولم يكن المغاربة الأحرار ليقبلوا الاستمرارية على وضع غير عادي فهم لم يعهدوا أنفسهم مقيدين مضطهدين لذلك واصلوا الكفاح من أجل ابعاد شبح الحماية عن بلادهم فما خلق المغرب ليكون مستعبدا ومن أجل ذلك احتدمت الثورة في كل مكان وتعالت الاحتجاجات من زعمائه وأبطاله وتحولت تلك الاحتجاجات الى رفض بات لكل ما يتصل بالحماية سواء في ذلك من كان من المغاربة يعيش تحت حماية الفرنسيين ومن كان منهم تحت حماية الإسبانيين ووجدت الثورة في العلماء سبيلا الى رفع المعنوية أمام المواطنين لذلك كانت الثورة الريفية التي تزعمها الفقيه محمد بن عبد الكريم الخطابي من أشهر الثورات التي زعزعت الوجود الاستعماري وأفسدت عليه استقراره فقد استطاعت هاته الثورة ان تقاوم بكل بسالة وأن تدوس كثيرا من القوى الاستعمارية الغاشمة ولولا تعاون الإسبانيين والفرنسيين معا على محاربته وصبرهم على مقاومته وانقاقهم الكثير على التغلب عليه ما استطاعوا أن يهزموه وأن يضعوه أسيرا بين أيديهم ومع ذلك فان الثورة الريفية لم تنطفىء جذوتها ولم تقهر مبادئها فهي اذا قهرت عسكريا فان بذورها الثورية انتشرت في المغرب وأصبح المغاربة يفكرون من جديد في طريقة الخلاص ورأى عدد منهم أن المغرب في حاجة الى اصلاح جذري وأنه لا تقوم له قائمة الا إذا انتشر العلم بين ربوعه وعمت الوحدة بين سكانه وزاد المغاربة ايمانا بذلك حينما أعلن رجال الحماية عن خطتهم التفريقية فيما سموه بالظهير البربري سنة 1930 م.

لقد توهموا أنهم ان ضيقوا الخناق على التشريع الاسلامي وعلى اللغة العربية وجعلوا المغرب أقاليم مختلفة يخضع بعضها للعرف وبعضها للشريعة الإسلامية فانهم سيملكون زمامه وسيتحكمون فيه كما شاؤوا لكن رد الفعل كان شديدا بحيث أصبحت المقاومة المغربية شديدة والتحمت القوي وأعلن كل من البربر والعرب أنهم اخوان متحابون يجمعهم التاريخ ويجمعهم الدين ويجمعهم الأمل في التخلص من الاستعمار ووجدوا في الظهير البربري سندا دوليا يبينون به النوايا الحقيقية لهؤلاء المستعمرين لذلك خرجت القضية المغربية بسببه من الإطار الداخلي وأصبحت مدوية في العالم العربي والإسلامي وتبناها عدد من الأحرار في العالم الأوربي أيضا.

ولم يرض المغاربة بعد هذا الظهير أن تبقى قضيتهم مرتبطة بالمواجهة الشكلية لذلك حاولوا أن يؤسسوا حزبا وطنيا مبنيا على أسس عصرية وراسما لخطة عمل وكانوا في حاجة قبل تأسيس هذا الحزب الى تهييء الشعب لمبادئه وأفكاره والى إعداد المواطنين اعدادا يجعلهم يؤمنون بالإصلاح ويؤمنون بالكفاح.

وتوجهت الفكرة الإصلاحية الى امرين :

الأمر الأول يتصل بمحاربة التقاليد ويدعو الى تحرير الفكر من التبعية للخرافات الضالة مع تيسير سبل الاجتهاد وفتح الرأي العام حول المبادىء الاسلامية السليمة من شوائب الجهل والضلال.

الأمر الثاني يتصل بالدعوة الى العلم والسعي من اجل ابعاد الناس عن الرضوخ الى الغزو الفكري الأجنبي لذلك سعى هؤلاء الداعون إلى تأسيس مدارس حرة لتضيق المجال على الدولة الحامية وتسعى في نشر المبادىء الوطنية في مختلف الافاق المغربية.

وأمر كهذا لم يكن الذين يحكمون البلاد من الفرنسيين ليقبلوه لأنهم اعتبروه خطرا حقيقيا على سياستهم لذلك تصدوا لهاته الحركة التحريرية بعنف وعملوا على التضييق عليها وعلى خنق مجال الحريات وعلى إدانة كل من تزعم هاته الحركة أو دعا إليها فملؤوا السجون وقتلوا الأبرياء وأيتموا الأطفال واثكلوا الأمهات واستخفوا لكرامة البشرية ولقي من جراء ذلك عدد من الأحرار مصيرهم المنتظر فاستشهدوا وهم لا يبالون بما سيلقونه لأنهم يعلمون أن الجنة مصير الشهداء.

وكان من بين هؤلاء الضحايا أديب من أدباء المغرب وفقيه من فقهائه آمن بالحق المطلوب وعلم أن الحرية لاتنال بالأقوال فقط ولكنها تحتاج إلى معاناة

ومواجهة وتيقن أن المصير المشرق لا يكون بالجمود والتقليد والتبعية وإنما يكون بالتحرر والاجتهاد والاستقلال ودعا إلى العلم وسعى في نشر أفكاره بين الناس لكنه لاقى المواجهة من المستعمرين الذين لم يكونوا براضين عنه وعن خطته فقاومهم إلى أن لقي الله شهيدا.

إن هذا الفقيه الأديب المقاوم هو الشاعر محمد القري المولود صبيحة يوم الأربعاء رابع رمضان سنة ١٣١٧ هـ.

كان هذا الفقيه مؤمنا بالدور الإيجابي الذي يتحمله رجال العلم في التوعية الشعبية وكان يعتبر الأدب التزاما لذلك وجه عنايته إلى صقل ملكته الشعرية بجعل ذلك الشعر أغرودة تتلقاها الأسماع وترددها الألسنة وليجعله رسالة وطنية تحملها أوراق المجلات وتذاع من منابر المنتديات وتنشد في المحافل والمهرجانات كما تعهد أسلوبه الخطابي ليكون مؤثرا في مستمعيه وحاول أن يبز معاصريه لذلك أكثر من حفظ الأشعار وحفظ المتون وتيسر له منذ طفولته أن يجد أبا حريصا على أن يجعل من ابنه صورة للمثقف المغربي الذي لا يكون له وجود إلا بعد حفظ القرآن الكريم.

ولما نهل من قريته ما يمكن نهله. وتم حفظ القرآن وبعض الدواوين الشعرية جاء به والده إلى مدينة فاس ليتلقى العلم من جامعة القرويين.

وفي مدينة فاس تفتحت عيناه على حركة وطنية تهدف إلى تحرير الوطن من ربقة الاستعمار وعلى حركة سلفية تهدف إلى تحرير المسلمين من التقليد فاستأنس بالحركتين معا وسار في ركابهما ووجد في بعض أساتذته ما يحببه في هاته الدعوة التحريرية وعلى رأسهم العالم الشهير المصلح سيدي محمد بن العربي العلوي.

إن القري رحمه الله كان ينسب إلى شيخه هذا جميع ما يعتنقه من مذاهب الحرية فلقد أرشده إلى أمهات الكتب الإسلامية والأدبية ودعاه إلى الاعتزاز بالشخصية الإسلامية وحبب إليه الأدب وعلمه كيف يواجه المواقف بحزم وثبات.

ولعل ذكاء القري أثار في وجهه بعض المشاكل داخل مدينة فاس خصوصا حينما ظهر نبوغه المبكر وحينما وجد نفسه لا يملك عصبة تحميه ولا مالا يغنيه فاضطر إلى اللجوء إلى المكلف بشؤون التعليم بفاس وهو المعروف بمسيو مارطي فطلب منه أن يساعده على وظيفة تحميه من الضياع فهو قد ضاق ذرعا بمناوئيه الذين إذا ساروا في الطرقات ساروا كأنهم سكارى أو مقيدون في الأصفاد ظنا منهم بأن العلم لا تكون له هيبة إلا إذا كان مرتبطا بهذا التظاهر المزيف وكانت هذه الرسالة الموجهة عبارة عن قصيدة ظلت إلى الآن تعد في تاريخ الأدب المغربي الحديث عند بعض النقاد ممثلة لحالة ضعف طارئة تسلطت على القري فأخرجته من إلتزامه وجعلته ينساق إلى انفعال لا يتجاوب مع غيرته الوطنية. ومن الذين وضعوه في هاته التهمة الأستاذ الدكتور إبراهيم السولامي في كتابه الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية فهو بعد حديثه عن شعر المقاومة وضع فصلا عن الدعوات المضادة وفي هذا الفصل قال : (ص 168) : «وإذا كانت حناجر الشعراء العاقين لوطنهم قد ساندت دولة الغاصبين فإن بعضهم تردد في شعره نزوع للإصلاح أو التغني بحب الوطن كما سنرى عند شاعر الحمراء لكن الحال يصبح أشد تعقيدا لدى الباحث حين يعثر على شعراء وطنيين داخل دائرة الملق مرة أو أكثر لسبب أو أسباب خاصة أو وقتية وهي ظاهرة يجب أن نقف عندها مستدلين دون أن نعفي أحدا من مسؤولياته ودون أن نلجأ إلى نشدان التبرير».

وفي هذا القسم أدخل القري رحمه الله.

والواقع يثبت أن القري إذا انساق إلى الالتجاء إلى مسؤول عن التعليم وكتب إليه شخصيا دون أن يتغنى بأمجاد الفرنسيين ولا بإصلاحاتهم في بلادنا فإن ذلك لا يمكن أن يجعله في إطار المتملقين ولا أن يدمجه في فصل يتحدث عن الدعوات المضادة خصوصا إذا ما أطلعنا على هاته القصيدة التي تضع القري في قفص الاتهام ففيها يقول :

لكم محل فؤادي إذا قبلتم ودادي
وإن أصختم لشعري الذي أنا به شاد
يمثل الشكر مني لكم بكل اتئاد

يصوغه مقول الشا … عر البليغ الحداد
قلت أغمط فضلا … إذا أجبتم مرادي
ولم تبالوا بشان … وحاسد ومعاد
فإنما الناس أغروا … بأن يكونوا أعادي
لكل مرء غريب … مقابل بالتعادي
ما إن له من مجيب … لو للإخاء ينادي
وهبه مرءا له في … كل العلوم أياد
ما إن يترجم إلا … بالغمر في كل ناد
حدثهم عن ثمود … أو عن مواقف عاد
فما تقابل منهم … إلا بكل انتقاد
لو أن قولك ماش … على سبيل الرشاد
وإنني اليوم أملي … عليك من فؤادي
شكوى بقومي فقومي … الأعداء لي باتحاد
لا يأبهون لقدر امـ … ـرىء حليف السهاد
فيما يعود على قو … مه بنفع البلاد
ويبذل العمر مهرا … على صلاح العباد
كي ينهضوا من مهاو … وينهضوا من وهاد
إني امرؤ لم أرد غيـ … ـر نصحهم باجتهاد
وغير خدمة شعبي … بعدتي وعتادي
يا سامح الله قومي … وإن رموني بسواد
وقابلوني على ما … أتيتهم باحتقاد

وهكذا تستمر القصيدة في الإفصاح عن أعماق هذا الرجل المكافح الذي يعلن فيها أنه سيبذل عمره مهرا لصلاح العباد وكذلك كان وعدد حقا فالتزم بالدعوة الإصلاحية إلى أن وهب حياته فداء لها وأصبح من شهداء المعركة فكيف يمكننا أن نجعل هذه القصيدة منطلقا لاتهام القري بالملق وأن نضعه بسببها مع أصحاب الدعوات المضادة. إن ذلك مرجعه إلى الصورة المثالية التي يراها الدكتور إبراهيم السولامي للوطنية الصادقة التي تجعل هاته القصيدة خدشة في المرآة الصافية التي كان يود أن تبقى صافية دون أن يعتليها صدأ وإن كان ضئيلا.

إن الروح الوطنية هي الروح المهيمنة على الشاعر القري رحمه الله وقد جعلت منه داعية للأخلاق والفداء وحملته على أن يختار لشعره أخف الأوزان وأسهل الألفاظ وأن يتجاوز أحيانا حدود التعهد الدقيق للفن الشعري لأن الغاية أصبحت لديه لا تتعلق بالاهتمام الفني المحض وإنما أصبحت الغاية إحياء روح ورفع معنوية وحضا على جهاد.

وكان المنطلق الذي ينطلق منه في خطته يهدف إلى نشر العلم وإلى الدفاع عن الحق وإلى تيسير اللغة المعبرة وإلى المساهمة في وضع أناشيد سهلة يسهل حفظها وتداولها فإنني لحد الآن ما أزال أتذكر مطلع نشيد كنت أحفظه وأنا طفل صغير يقول فيه القري رحمه الله.

علمونا علمونا … أو إلى الموت ادفعونا

إن الدعوة إلى العلم وإلى التمسك بالأخلاق الفاضلة وإلى الاعتزاز بالتربية الدينية هي الشعارات الأساسية التي كان يرددها في شعره نشيدا كان أو قصيدا فهو الذي يقول في مقطوعة من شعره (1).

زاد في الطين بلة وفسادا
من على الجهل والضلال تمادى
يظهر الحق للعيان فيبدي
مع بيان الدليل منه عنادا
ما على الحق من خفاء ولكن
ضل قوم فموهوه كسادا
إيه ما أبين الحقائق للناس
وهم كلهم يرون السدادا
هم بخير في أمرهم ما أقاموا
الدين والعلم واستبانوا الرشادا
فإذا ماعموا عن الحق بادوا
واضمحلوا ثنى ثنى وفرادى

فبمثل هذه الأشعار كان يخلد أفكاره ويدعو إليها وكانت نفسه تواقة إلى البحث عن المناسبات التي يعلن فيها عن مبادئه وآرائه الإصلاحية لذلك نراه يساهم مع جماعة من طلبه القرويين آنذاك يتزعمهم المرحوم محمد علال الفاسي في إقامة حفل تأبيني لأمير الشعراء أحمد شوقي فقد أقيم الحفل في اليوم الرابع والعشرين من رجب

1) الأدب العربي في المغرب الأقصى للمرحوم محمد بن العباس القباج الجزء الثاني ص 49.

سنة 1351 هـ وشارك فيه القري بقصيدة مطولة يقول في مطلعها :

شوقي وما أدراك ما شوقي
شوقي إمام القول عن حق
شوقي الأمير وغيره خدم
لكلامه في الغرب والشرق

كما شارك بقصيدة أخرى على وزن المتقارب لحنت ورددت على شكل نشيد في الحفل التأبيني يقول فيها (2).

وم على الشاعر العبقري
سلام على ناصر الأدب
أمير البيان أمير القريض
وحامي العروبة والعرب
تركت الرعية تبكي عليك
بكاء اليتيم حنان الأب
تركت العروبة ثكلى على
حياتك تبكي على شجب
فمن للعروبة ينصرها
ومن ذا يقوم مقام الأب
ومن ذا يجدد بهجتها
ويبرزها غضة الحب
ويبني لها المجد بين الورى
ويبلغها كل مطلب
وينشر آياتها الزاهرات
ويبدي مكانتها للغبي
ويعلي لها القدر فوق السما
وفوق السماكين والشهب
ويبلغها كل أمنية
ويبلغها غير ما مأرب
فمن مثل شوقي يصوغ القريض
لحلي الجواهر في اللبب
ومن للثقافة يوردها
على المشرق الفذ والمغرب

ومن ذا ينير سبيل الهدى
لمسترشد ولمستطلب
ويملأ أفكارنا بعلوم
تثير التعجب للمعجب
أنديه وهو يندبنا
لانا من الجهل في غيهب
ولم ندر بعد شوقي الحياة
وما نحن منها على مذهب
وقد بح في صوته داعيا
بشعر له معجب مطرب
وما من مصيخ إلى قوله
ولو دام يصرخ في لجب
على أنه مل من نصحه
لفرد بليد وفرد غبي
لذلك فضل نقلته
إلى عالم هانىء طيب
على أنه لم يمت من له
جليل المآثر في الأدب
أشوقي عليك أمان السلام
من الله في ظلم التيرب
ومن خلدت يده عمره
فما هو بالميت النسب
فنم في مقيم الهناء وفي
هناء النعيم على طرب
أشوقي هنيئا بدار الخلود
هنيئا لمرقدك الطيب

ولا شك أن الهيئة الوطنية اهتمت بالجانب الإيجابي في أدب شوقي خصوصا بعد منفاه وبعدما أصبح شعره مخلدا لآثار العرب والمسلمين ومرددا لبطولاتهم ومعبرا عن إحساسهم بوجودهم لذلك عمدت إلى إقامة هذا الحفل ودعت إلى المشاركة فيه واستغلت كل ما يتصل بالجانب الوطني والقومي فضخمته وجعلته الصورة الإيجابية التي ينبغي أن توجه إليها العناية في التربية الوطنية وفي نشر

2) يوم شوقي بفاس صفحة 18.

المقومات الأساسية لخلق كيان متماسك يدعو إلى العزة ويومن بها ويسعى لنيل المتمنيات عن طريق العزم والإقدام فما أصلح شعر شوقي لذلك ! خصوصا حينما نجد فيه مثل هذا البيت الرائع :

وما استعصى على قوم منال
إذا الإقدام كان لهم ركابا

وحينما تركت ذكرى شوقي في نفوس المغاربة أثرها الفعال بحثوا بعد ذلك عن مناسبة أخرى فكانت الذكرى الألفية للمتنبي وساهم فيها أيضا الشاعر محمد القري بقصيدة لم تخرج عن منهجه ولم تبتعد عن إلتزامه وقد نشرها قبل وفاته بسنة ونصف في مجلة المغرب الجديد بالعدد الأخير من سنتها الأولى المؤرخ بذي القعدة وذي الحجة من سنة 1354 هجرية موافق فبراير ومارس من سنة 1936 ميلادية يقول فيها :

ذكراك تخلدخلد الفن في الأدب
وتبعث الروح في كتابنا العرب
ذكراك روح تحيينا مصافحة
فنستجد بها التجديد في الأدب
ذكراك روح تغشينا لتوقظنا
أن نحفظ المجدمن تاريخنا الأدبي
ذكراك روح أحاطتنا تباركنا
لنحرس اللغة الفصحىمن العطب
ذكراك روح أتتنا كي تعلمنا
بلاغة الشعر أو بلاغة الخطب
ذكراك تخلق للبيان كم صورا
تاه الجمال بها والفن من طرب
تصور الفن والجمال في لغة
بذت فصاحتها فصاحة الكتب

فنحن نلاحظ أن الذكرى عند القري إنما أطلت على المغاربة لتبعث الروح في المثقفين العرب ولتجعلهم حريصين على حفظ المجد وإحياء اللغة الفصحى وبعث البيان العربي.

وليس بدعا في الحركات التحريرية أن تجد في المتنبي قبسا يدفعها إلى الأمام بسبب شعره الرائع وبسبب ما يصوره من تطلعات إلى المستقبل لذلك كانت قصائد المتنبي متداولة في المغرب أثناء هاته الحقبة التي عاش فيها القري لأن المدرسة الوطنية المغربية رأت فيها ما يدعم الوجود العربي وما يقوي الثبات والمواجهة.

أليس المتنبي هو القائل :

من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت إيلام

والقائل :

عش عزيزا أومت وأنت كريم
بين طعن القنا وخفق البنود

والقائل :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

ولقد أثرت هذه الروح الفخرية أدبنا الوطني وجعلت كثيرا من الأدباء يسعون في تقمص القوة والأنفة ويدعون إلى الصمود ويرغبون في الحياة الكريمة البعيدة عن أي مظهر من مظاهر الذل والصغار.

وكان القري من بينهم إلا أنه إذا بلغت همته مبلغ رواد الوطنية فإن شعره رغم سهولته ووضوحه ومحاولة صقله فإنه لم يصل إلى درجة القوة الفنية والحبك الدقيق الذي كان يمتاز به المتنبي وأمثاله.

يقول القري رحمه الله في هذا المنحى الفخري

لي همة تأبى الدنايا عفة
وترى التذلل للعباد شنارا
لاترتضي تالله أي أن يكن
ملك البلاد وعبد الأقطارا
نفسي تعز على الهوان وتنثني
عن كل ذل لو أفاد نضارا
وهي الحياة تمر كيف قضى الإ
له ولاتدوم وإن أرت أكدارا

ولقد شعر الفرنسيون بأن القري لا يفتر عن الحركة الوطنية وأن خطته في التوجيه الوطني تقلق راحتهم وتفسد عليهم سياستهم لذلك كانوا يتحينون الفرصة للإيقاع به وللتوصل إلى إذايته فلما وقعت المظاهرات الوطنية سنة 1937 م من أجل الدفاع عن حقوق الأمة ومن أجل المطالبة بمشروعية الحزب الوطني الذي يكون له الحق في التوعية الشعبية وفي فتح الحوار العملي من أجل ضمان العدالة وتيسير المصالح الشعبية في مختلف القطاعات وجدها الفرنسيون سبيلا إلى المس بحريات الناس خصوصا منهم من كانوا يعلمون أنهم يكافحون بلسانهم وقلوبهم كالفقيه القري رحمه الله فقد ألقي عليه القبض مع جماعة من الوطنيين وتقرر نفيه إلى كولميما ونقله إليها في صورة تعذيبية وحشية تقشعر منها النفوس وتشمئز منها الأذواق.

إن المستعمرين ظنوا أن كولميما مكان ملائم للتعذيب لأنه يختلف مناخه عن مناخ المدينة التي أخذ منها الوطنيون ولأن سكانها لا ارتباط لهم بهؤلاء الذين سيأتون إليهم سجناء فهم لن يلقوا عندهم عطفا ولا حنانا ولكن الواقع أثبت أن ما قام به المستعمرون كان سبب خير للدعاية الوطنية فقد رأى عدد من البربر قساوة الجنود التابعين لفرنسا فاختزنوا في أنفسهم الصورة البشعة للاستعمار الشيء الذي جعل عددا من الكوم الموكلين بتعذيب هؤلاء يثورون فيما بعد على القوة الفرنسية ويتحدونها من أجل المصلحة العليا للوطن ولكن هذا الموقف لم يكن ليخفف من واقع الحياة التي عاشها هؤلاء المنفيون الذين قضوا شهر رمضان في حالة من البؤس والحرمان والعذاب الأليم الذي يعجز اللسان عن وصفه.

لقد كان القري رحمه الله ضمن هؤلاء المعذبين الذين أكرهوا على الذهاب سيرا على الأقدام مسافات طويلة والذين أرهقت أجسامهم بحمل الأثقال وضربت أيديهم وأرجلهم بالدرات الجلدية الخشنة حتى فقد القدرة على المشي وعطلت أطرافه ولم يلق رغم ذلك عطفا ولا إشفاقا ولم تحترم إنسانيته ولا ثقافته ولا منزلته الدينية بين قومه. وشاءت الأقدار أن تحتفظ لنا بصورة من تعذيبه كتبها الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني عضو الأكاديمية الملكية في مذكرة من مذكراته التي سجل فيها أيام تعذيبه مع القري في منفى كولميما والتي نشرها تحت عنوان من ذكريات سجين مكافح في عهد الحماية الفرنسية البغيض بالمغرب فقد قال في هذه المذكرات وهو يتحدث عن ليلة السابع والعشرين من رمضان 1357 هجرية (ص 145).

«ولم يغمض لواحد منا جفن ولو لحظة واحدة إذكنا جميعا في أنين متواصل وألم شديد شامل وكان الكثيرون يصرخون بين الآونة والأخرى صرخات مكبوتة إذا ألح عليهم الألم أو مس جرحهم بحركة غير اختيارية من جار لهم لا يجد عشرين سنتيما عرضا ولا ثمانين طولا. مع أن الأكثرية الساحقة منا كانت إلى الموت أقرب منها للحياة ولم يفتر لواحد منا لسان عن اللجوء إلى الله سبحانه والتضرع إليه خصوصا والليلة ليلة سبع وعشرين التي يحتفل فيها المسلمون بذكرى نزول القرآن العظيم. وقد بات عند رجلي في هذه الليلة الشهيد محمد القري رحمه الله وكان قد أصيب في عروق ركبته اليمنى من شدة الضرب فأضحت رجله مرتفعة إلى أعلى بحيث لا يقدر على وضعها إلى الأرض وهو يود بجذع الأنف وضعها فيئن وينتحب ويتعلق بهذا ويرجو ذلك أن يقف أو يجلس فوق ركبته عساها تنزل إلى الأرض فإذا ما فعل زاد تألمه وأنينه ولا أقول صراخه وعويله فإن «الكوم» من وراء الباب بالمرصاد لإخماد كل صوت وقمع كل حركة وإن تكن اضطرارية والرجل بعد ذلك لا تفتأ مرتفعة إلى أعلى لا تنخفض ولا ترجع».

ورغم هاته الحالة التي ذكرها الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني فإن السجانين لم يرحموا هذا المعذب المتألم بل أخذوه من معتقله هذا وذهبوا به إلى مكان آخر ظل فيه أياما قليلة يعذب بأقسى أنواع التعذيب إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة في يوم الأربعاء رابع شوال عام 1356 هـ موافق 8 دجنبر سنة 1937 م.

وأثناء الحديث عن هذا اليوم قال الأستاذ الكتاني :
«وفي هذا اليوم أسلم الروح الشهيد محمد القري رحمه الله بعد ما غاب خمس ليال وأربعة أيام لا نعلم ماذا جرى له فيها زيادة على ما وقع بمرأى منا فكان موته رحمه الله خسارة لا تعوض ورزية وطنية عظمى إذ كان مومنا سلفيا صادق الإيمان وشاعرا مكثرا وكاتبا وخطيبا مؤثرا وعلامة

لغويا مطلعا ومكافحا متفانيا وكان إلى ذلك ذا أخلاق دمثة لين الجانب متواضعا متكرا لذاته مخلصا لأصدقائه».

والواقع يثبت أن الأوصاف التي ذكرها الأستاذ الكتاني لا تخالف الحقيقة فهي مرددة على كل لسان سواء، فيما يتعلق بصور العذاب أو فيما يتعلق بالقيمة العلمية والوطنية للشهيد محمد القري.

إن كتاب الكتاني يعد مصدرا رئيسيا فيما يتعلق بحياة القري رحمه الله وإن ماذكره لا يتنافى مع الإحساس الوطني الذي يكنه كل الذين عرفوا القري في حياته فلقد حرصت على أن أتحدث بنفسي مع بعض الذين تيسر لي الاتصال بهم من الذين عرفوه فكانت أحكامهم لا تزيدني إلا وثوقا بما قاله الكتاني ولا تدفعني إلا إلى تقدير القري واحترامه.

قال لي صهري السيد محمد الإدريسي الداودي الحسني : كان القري زاهدا في ملذات الحياة متقشفا حريصا على المعرفة يعيش في منزل متواضع بحي الصفاح يدعو إلى العلم ويمارس التدريس بإحدى المدارس الحرة التي أنشئت بفاس وهي المدرسة الناصرية.

وقال لي الأستاذ محمد الحمداوي : «إن القري كان صورة فذة في الإخلاص وإن صموده في الجهاد جعل الناس يقدرونه ويحترمون مبادئه ويكفي دليلا على ذلك أن قبره إلى الآن يعد مزارا بكولميما يتبرك به الناس».

وقال لي آخرون : «إن شعره الوطني كان يعد من وسائل القوة التي استغلها الوطنيون في رفع الروح المعنوية بالبلاد».

وتتميما للفائدة أردت أن أنقل هنا قصيدة من القصائد التي قيلت في رثائه أثبتها للتاريخ الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني في مذكرته وهي للأستاذ عبد السلام بن أحمد الوالي يقول فيها :

ظلام السجن خيم في فؤادي
وأيام تنغص لي مرادي

سيأتي اليسر بعد العسر حقا
وحكم الله ينفذ في العباد

فلا تخش العذاب على حقوق
تؤيدها الحواضر والبوادي

حقوق الشعب لانرض سواها
ولا ندع التحكم للأعادي

لأنهم أذاقونا سموما
وخسرانا مبينا في البلاد

يحق لنا بأن نسطو جميعا
ولا نعنوا لأصحاب العناد

أأنسى القري الفريد لما
تجرع ما تجرع بالجلاد

إلى أن مات في الميدان حرا
شهيدا ليس يعبأ بالعوادي

تركناه بمصرعه وجئنا
نعزي القوم في ثوب الحداد

فهل لي من يعير العين دمعا
لأبكيه إلى يوم المعاد

وهل ننسى العذاب وسم «كوم»
وشتمهم بألسنة حداد

أما والله لا أنساه حتى
يصير الشعب مرفوع العماد

بني وطني تآخوا باتحاد
تنالوا النصر إن النصر باد

وإياكم والتنازع إن فيه
فسادا في فساد في نكاد

علام الإعتماد إذا اختلفتم
وصرتم صيحة في كل واد

فكم من محنة مرت وصارت
تعلمنا التيقظ للفساد

بني شعبي أفيقوا من سبات
فإن الجهل طبعا كالرقاد

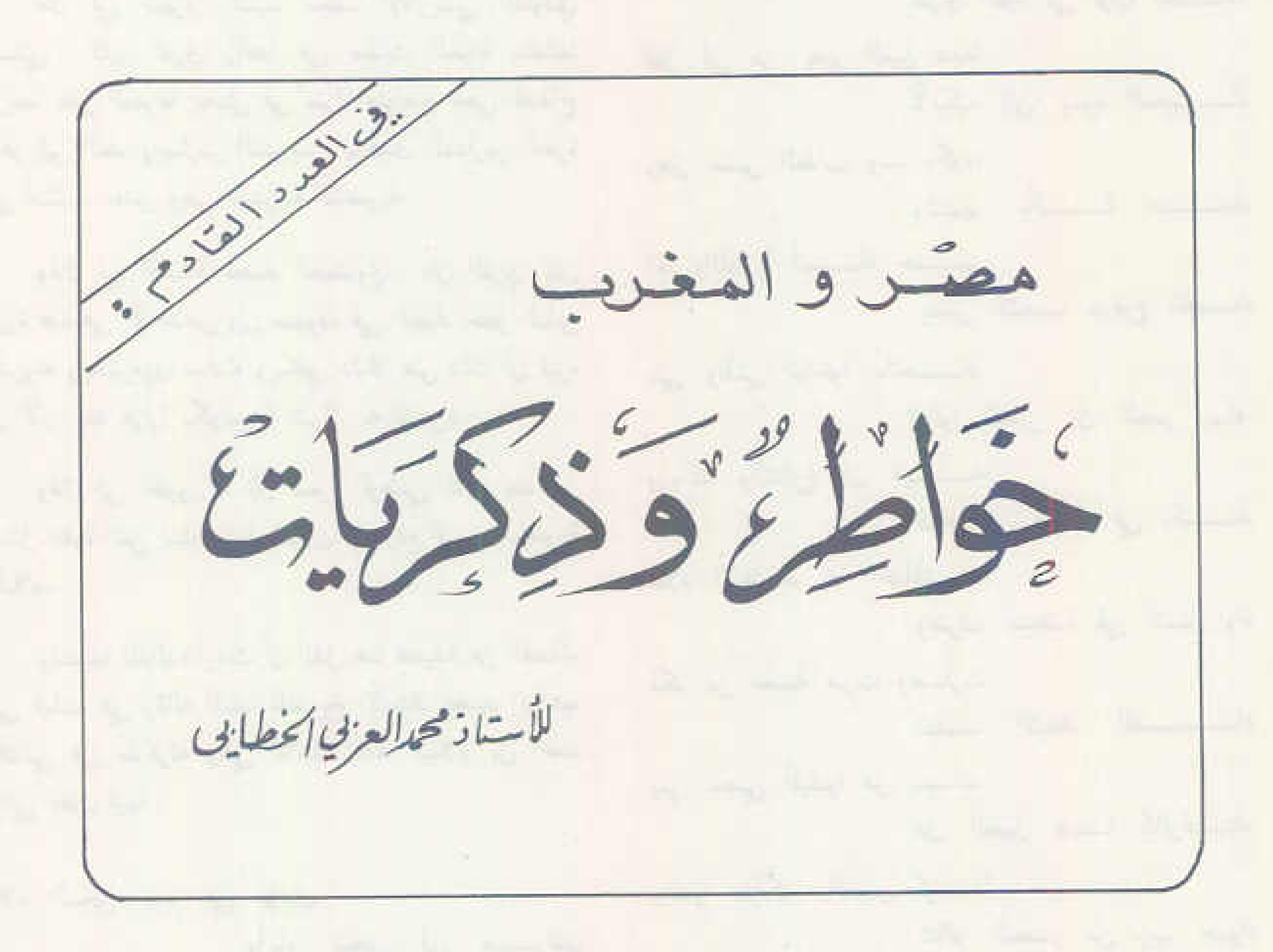
وشدوا حالكم بالصبر كيما
تنالوا النصر من رب جواد

إن هاته القصيدة رغم بساطة مبناها تمثل صورة من الكفاح الوطني وتعتبر نبراسا للمبادىء التي من أجلها عاش القري فهو كان يريد الاتحاد والعلا والتحرر من ربقة العبودية ولم يكن يبالي ومن أجل ذلك أذاق مرارة العيش أم حلاوته لأن الهدف الحقيقي عنده أن تكون أمته قريرة العين بأبنائها وبمبادئها وهذا هو السر الذي جعله في أعين الرائين غير مبال بزينة الحياة ومفاتنها ولذلك نجده قد كتب بيتين من الشعر تحت صورته في الكتاب الذي نشره المرحوم محمد بن العباس القباج حول تاريخ الأدب العربي في المغرب الاقصى قال فيهما :

تقول لي ذات حسن ما الشأن فيك غريب
أراك بائس حظ فقلت إني أديب

والغالب أن البؤس الذي ربطه بالأدب لا يتعلق بالبؤس المعهود المتصل بالحرمان المادي وانما كان سببه التأمل الطويل في مشاكل الحياة ومشاكل قومه فكان لا يهتم بشؤون الدنيا التي تعود عليه بالربح وانما كان يهتم بشؤون قومه فلا يبقى له الوقت الكافي للتفكير في مشاكله الخاصة الا في لحظات قليلة قد تعتبر منها اللحظة التي كان يبحث فيها عن وظيفة تبعده عن الاحتياج الى من لا يرحم ولا يجود خصوصا والنفس عالية والهمة تأبى الدنايا ولا ترضى بالهون فليرحمه الله وليجعل روحه خفاقة بين أرواح الشهداء الأبرار والوطنيين الأحرار.

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ



الدوافع الأساسية لميلاد التعليم الحر في المغرب

للأستاذ الحاج أحمد معنينو

الجهاد القومي ضد الإستعمار الفكري :

الكل يعرف أن تاريخ الأمة المغربية عبر تاريخها المديد كله بطولات، بل هو الذرع الواقية، التي تكسرت عليه مراحل التاريخ القديم والحديث.

وان الحملات العسكرية، والإعتداءات الصليبية، الوافدة من أوربا قابلها المغاربة بما يجب تبعا للمثل القائل : لايفل الحديد الا الحديد ولقد أصيب المغيرون بنكسات وهزائم متعددة، رغم الفارق في الأسلحة والتنظيم الحديث، لأن المغاربة كانوا يدافعون عن حق مقدس، والأجنبي المغير يحاول إختطاف الشعوب ومسخها وازدرادها ! لكن قلعة المغرب الشامخ، وقفت في وجهه المغتصبين وكبدتهم الخسائر تلو الخسائر.

وأمام هذا الصمود أدرك المستعمر أن مقومات الشعب المغربي الروحية والوطنية، هي السر الكامن في قوته وثباته. لذلك نراه غير الخطط، وعمل على التسرب لدواخل الشعب ومعتقداته، ومقوماته الخلقية، والعلمية والدينية فاحضر طوابير من العملاء، والدخلاء، والمتعاونين ليعملوا جميعا على قتل الروح القومية والثقافة العربية والنخوة الإسلامية، ببث أفكار التشكيك أو المسيحية أو الالحاد في صفوف الشباب والأولاد، الذين هم ذخيرة الشعوب، وعمده في الملمات. كل هذه النماذج ظهرت في ميدان المدرسة الحكومية، بشتى أنحاء المغرب، فرنسية، اسبانية. ولا سبيل الى تعداد مكرها وخزيها، فالتاريخ الحق سجله على أصحابه بالخزي، نعم برز المغرب أوائل القرن العشرين قلعة صامدة، أمام العدو الأجنبي، وفي سنة 1912 حلت النكبة بفرض الحماية البغيضة بل بسبب التفوق في استعمال ادوات التدمير والتخريب والاسلحة الفتاكة، وأن المجال لا يسمح لنا ببعض البرامج التي اختطها دهاقنة الإستعمار البغيض، قصد محو الشخصية المغربية العربية الاسلامية.

غير أن طوائف رجال التفكير المغاربة، أخذت تستعد لوقف الغارة من الجانب الفكري، فشرعت تنشئ المدارس الحرة أو التكتلات العسكرية الفكرية لكفاح المستعمر في لغته وعاداته وأخلاقه وميوعته ومسخه.

لأن مخطط الإستعمار لم يكن خافيا على فئات الشعب المغربي الذي لن يسمح ولم يسمح أو يتنازل عن قيمه الخلقية ومثله العليا، ومقوماته الروحية لأن هذه القيم

والأخلاق واللغة والدين هي أسس كيان الدولة المغربية، منذ عهد ادريس الأكبر حتى يوم الناس، هي روح الأمة المغربية المسلمة.

وهنا يجمل بنا أن نأتي ببعض أقوال علماء الإسلام ورجال الفكر النير في الموضوع، فهذا العالم الاجتماعي والمكافح الفيلسوف السلفي جمال الدين الأفغاني رحمه الله يقول من سداد نظرياته السلفية، أن أخطر ماتستعمله الأمم الأجنبية في الشرق أي بلاد الإسلام، العمل على اضعاف اللغة القومية، وقتل التعليم القومي والتنفير من آداب الأمم الشرقية لتحل محلها لغتها وآدابها. مع انه لاجامعة لقوم لالسان لهم، ولالسان لقوم لا أدب لهم، ولاعز لقوم لا تاريخ لهم، فيعمل عمله وينسج على منوالهم.

وهذا قول عالم مسلم، وشيخ مدبر عظيم، الشيخ الذائع الصيت في العالم الإسلامي الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله يقول، في كتيب ألفه وطبعه ونشره تحت عنوان كذا كذا الحياري، في تحذير أبناء المسلمين من مدارس النصارى لأنه عاش الأحداث، واطلع على المكايد والمصائد التي نصبت في مدارس لبنان، وأمام هذه الأفكار الهادفة، والعمل على انقاذ الأمة وشبابها من هذا المسخ المحقق، شرع في افتتاح المدرسة الحرة بالمغرب.

وللتاريخ أسجل أن أول مدرسة حرة أسست لهذه الغاية السامية، هي المدرسة المعطوبة برباط الفتح، تحت ادارة ومسؤولية الأستاذ أبي الشعور السلفي الشهير ح محمد اليماني الناصري دفين البقيع الشريف، وذلك سنة 1919 بالضبط ولاتزال هذه المؤسسة الحرة الكريمة تؤدي رسالتها حتى اليوم وعقبها مباشرة فتحت مدرسة حرة ثانية بدرب والزهراء، الزاوية الحراقية برئاسته أيضا، كما أسس في نفس التاريخ مدرسة حرة ثالثة بالبيضاء سهوت عن الاسم الكريم للمتطوع بها وسنة 1920 تأسست مدرسة حرة بالزاوية الكتانية بالرباط تحت ادارة الخطيب المصقع الأستاذ الصديق الشدادي رحمه الله. ثم تبعتها مدرسة أخرى تحت ادارة واشراف العلامة الرغاي، ومن هذه المؤسسة الحرة الاولى تخرج الفوج الأول من رجال الوطنية كالشيخ محمد المكي الناصري، والأستاذ ح أحمد بلافريج، والأستاذ محمد الرشيد ملين، وغيرهم، كثير. وفي سنة 1921 بكل ضبط فتحت أول مدرسة حرة بمدينة سلا، بحي درب لعلو، جوار زاوية سيدي الهاشمي الطالب، بادارة العلامة زين العابدين بن عبود، والعلامة شيخ الجماعة سيدي أحمد بن عبد النبي، ومنها تخرجت الأفواج الأولى للوطنيين كأخينا محمد حصار وأخينا سعيد حجي وغيرهم كثير، وتطوع لها مسلم غيور بدار من دوره حبسها فاصبحت مدرسة حرة بمنزل قار، هذا المسلم الكريم هو الشريف مولاي أحمد الصابونجي القيم على صنع السكة العزيزية، والدار لاتزال تحتاج اليوم للترميم والاصلاح لتؤدي رسالتها التاريخية، وهنا أسر وأهمس في أذن وزارة الاحباس والشؤون الإسلامية، لتقوم بإصلاحها وترميمها مشكورة، وعقبها تأسست بمدينة سلا أيضا مدرسة تحت ادارة العلامة محمد بن حساين النجار بحومة باب سبتة، ومدرسة حرة ثالثة تحت ادارة العلامة ح العربي العياد بدرب بن شعبان.

كما أعلم أنه في سنة 1923 تأسست بفاس مدرسة حرة، تحت ادارة شيخ الجماعة العلامة بن محمد بن عبد الرحمن العراقي مدرسة حرة ثانية بالزاوية الناصرية تحت ادارة أخينا الأستاذ محمد غازي رحم الله الجميع.

وتأسست المدرسة الأهلية بتطوان تحت ادارة أخينا العلامة محمد داود سنة 1924 اطال الله حياته.

هذه المؤسسات الحرة التي ذكرت هي التي حصلت على تاريخ تأسيسها وأسماء مؤسسيها، وذكرتها بالاسم واللقب والعين، ومن الممكن، وغير بعيد، أن غيرها من المؤسسات الاولى بالمغرب لا أعرفها، فالرجاء التسامح والعفو من رجالاتها لانني لم أذكرها، ولم أتعرف عليها، وهي حرية بالذكر والاشهار والتنويه، فمعذرة لأصحابها، والعذر عند كرام الناس مقبول.

خصصت ذكرى هاته المؤسسات في العشرينات، وما كانت سنة 1927 تحل حتى انتقل لرضى الله ورضوانه جلالة السلطان المعظم جلالة المولى يوسف قدس سره، وعلى حالا بخلفه ووارث سره ولده المعظم الملك المتوج

بتاج الروح الإسلامية والنخوة العربية محمد الخامس طيب الله ضريحه ملكا على المغرب العزيز. وبعد يومين من بيعته سجل خطابه القيم للتاريخ حيث وعد فيه الأمة المغربية بصيانة أمجادها. وأحياء معالمها. والحفاظ على لغتها ودينها. وكل مقوماتها. جزاه الله أحسن الجزاء. بما قدمت يداه.

وبعد هذا الخطاب الملكي مفتاحا لنشر الوعي الوطني. وأحياء الثقافة العربية والتعليم الإسلامي من الباب الواسع. وعندما صدر ظهير 16 ماي 1930 ظهر بوضوح ما يخبئه الاستعمار من المكائد والمصائد هذه الصيحة التي أيقظت من القبور. حينئذ شمر المغاربة عن ساق الجد. واعتلى منصة الدعوة الراعي الأمين فأسست الماات من المدارس الحرة الابتدائية. بكل جهات المغرب. لتكتسي شعارات العناية والرعاية الملكية فبرزت المدرسة المحمدية والمدرسة الحسنية والمدرسة العبدلاوية ومدرسة الأميرة عائشة. وأصبحت الشهادة الإبتدائية تصول وتجول. ول تمر إلا أعوام قلائل. وأصبح التفكير في انشاء المدرسة الثانوية لمتابعة السير. ورفع المستوى. والتاريخ الحق يعطي الأسبقية للرباط العاصمة فيها سجل محمد الخامس المؤسسة الثانوية الأولى باسمه الكريم مدارس محمد الخامس هي الأولى في الثانويات الحرة بالمغرب. هذا كل ما في علمي. وبعدها تتابعت المؤسسات الثانويات الحرة بكافة أرجاء المغرب.

ومن هذه المؤسسات الحرة انبثقت وانطلقت البعثات للشرق العربي ففي سنة 1928 رحلت أول بعثة من أبناء تطوان لمتابعة دراستها بكلية نابلس الجريحة. من أرض فلسطين الحبيبة. وتبعتها بعثة ثانية لنفس الكلية من مدينة سلا وتوجه أفراد وأفراد لمصر ولسورية.

نعم أن المستعمر ل يكن غافلا عن كل هذه التحركات. بل كان يضع الأشواك. ويخلق الضجات ضد كل هذه المؤسسات. ويسعى في كل المناسبات الى الإنتقام من القيمين عليها بالسجن تارة. وبالنفي أخرى وبإغلاق الأبواب في وجه تلامذتها. ولكن همة رجال التعليم الحر. الجنود المجهولين كانت تنتصر على الخصم اللدود. وتجد العون والرعاية من حامي الدمار محمد الخامس طيب الله ضريحه.

ونجد أبواب الجامعة. جامعة محمد الخامس تفتح أبوابها بعد الحصول على الإستقلال والحرية الذي بلغه المغاربة بالبذل والعطاء. ملكا وشعبا فوجدت الأبناء البررة مهيئين ومكونين لأن المدرسة الحرة هي نواة التقدم والتفتح على المعرفة.

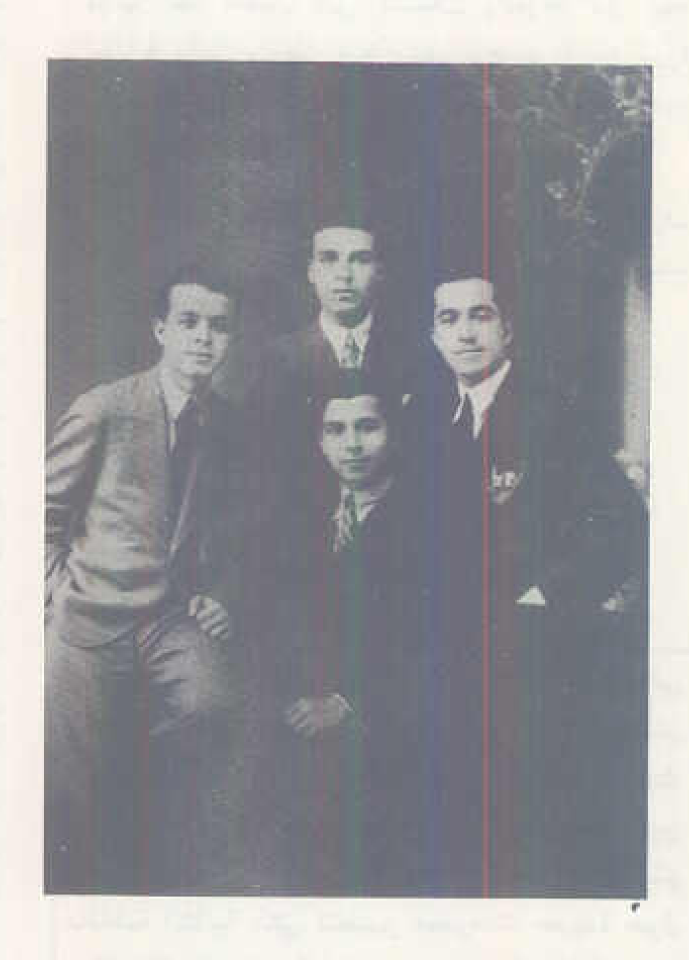
هذه نظرة مختصرة على نشوء هذا التعليم. تعرف الأجيال الصاعدة بالحقائق التاريخية بعيدة عن التزييف والاختلاق والله من وراء القصد.

حول البعثات المغربية الأولى إلى المشرق العربي

•• تعقيبا على المقال القيم الذي نشرناه في العدد الماضي للأستاذ الكبير السيد اكرم زعيتر حول (الظهير البربري) وما تفرع عنه من حديث حول البعثة الطلابية المغربية الى نابلس بفلسطين المحتلة. وافانا الاستاذ الحاج احمد معنينو بالكلمة التالية التي تتضمن معلومات جديدة حول بعثة طلابية مغربية اخرى من مدينة سلا توجهت الى فلسطين المحتلة للدراسة في مطلع الثلاثينيات..

لقد فكر الآباء في مصير الأبناء. كيف الخروج من المأزق . مأزق الفرنسة والمسخ الأجنبي والقضاء على اللغة التي هي سند حياة الأمة وقوامها. وتعصب الفرنسيون التعصب الأعمى بمنع أبناء المغاربة من المشاركة في الدراسات الثانوية «بليسي كورو» بالرباط الخاص بأبناء الفرنسيين وأبناء اليهود لاغير والمحرم على أبناء المغاربة المسلمين. فكان هذا العنصر القوي للتوجه بالأبناء إلى الشرق العربي. وفعلا انفتح الباب على مصراعيه منذ سنة 1928 حيث توجهت أول بعثة علمية للدراسة بكلية نابلس

البعثات المغربية الأولى إلى المشرق العربي



البعثة العلمية السلوية بكلية النجاح بنابلس : سعيد حجي جالسا في الوسط. عبد الكريم حجي على اليمين. الوقوف : عبد الهادي زنيبر وسط الوقوف عبد الكريم حجي توجهت من المغرب للدراسة سنة 1928.

من أرض فلسطين الحبيبة وكان مفتاح الخير على يد الوطني الحاج عبد السلام بنونة بتطوان. حيث هيأ البعثة من أبنائه وأبناء آخرين من تطوان. ويقول الحاج الطيب بنونة في حديثه إلي. انه كان يدرس بكلية القرويين بفاس حتى جاءته رسالة من والده تأمره أن يجمع حوائجه ويحضر لتطوان. ولم يعرف السبب ؟ وعند وصوله لتطوان. أخبره والده أنه استفاد من الأستاذ محمد حسن الوزاني. عند زيارته له. وجود كلية بنابلس للدراسة العالية باللغة العربية فقرر أن يوجهه واوخوانه اليها. وعقبه مباشرة توجهت بعثة ثانية من مدينة سلا لمدينة نابلس قوامها أبناء أحمد الحارثي حجي السلوي وهم : عبد المجيد، عبد الكريم، سعيد وعبد الهادي زنيبر. كما توجه أفراد آخرون للدراسة بمصر بالقاهرة. كالشيخ المكي الناصري من الرباط. وعبد الخالق الطريس واخرين من تطوان. والحاج حسن بوعياد من فاس واصبحت الفكرة تنتشر بين مفكري ذلك العصر، فبادر بطلب الجواز اشخاص من خيرة رجال الوطنية في ذلك العصر كالسيد المعطي بوهلال وبن مسعود وبلكورة فتوقف الفرنسيون عن الاستجابة فوجد القوم الحجة بيدهم قائمة. حيث اعلنوا للفرنسيين. بانهم يمنعون أبناءنا من الدخول للدراسة بليسي كورو. وأمام هذه العنصرية نحن نوجه أبناءنا للشرق العربي. وهنا تنازلت فرنسا. واذنت ادارة الليسي أن تقبل أبناء المغاربة المسلمين في صفوفها. وهكذا استطاع أحرار الأمة تجاوز القوانين الجائرة. والانتصار على المستعمر المتعصب. واخذ أبناء المغاربة طريقهم للدراسات العليا. بالشرق وبالليسات الفرنسية بالمغرب. وانفتحت الدراسة العليا بفرنسا).

سلا - ج احمد معنينو



الحلقة المفقودة من
تاريخ الحركة الوطنية

للأستاذ عبد الكريم حجي

تتكلم الالسنة في هذه الايام عن تاريخ نشأة الحركة الوطنية ويتكلم كل واحد حسب ما شارك فيها أو من يوم مشاركته ولهذا ارتايت أن أكتب بدوري ما اتذكره عن نشوء هذه الحركة في وسطنا بسلا حتى تكمل السلسلة التاريخية ولسيما وان لسلا دور الافتتاح.

كنا زمرة من الشباب لا زلنا قريبين من عهد الطفولة وكنا ننظر الى ما يجرى من الحوادث في ايامنا باهتمام رغما عن صغر سننا فكانت حرب الريف تشغل بالنا وتوقد في نفسنا حرارة الفخر بابطالنا ثم بعدها كنا نتتبع باهتمام ما تنشره الصحافة الفرنسية عن المقاومة السلمية تحت زعامة غاندي وذلك بواسطة الاخ المرحوم محمد حصار حيث هو الذي كان يحسن الفرنسية وكان ولوعا بشراء وقراءة جميع الصحف التي تصل الى الرباط ثم لفت نظرنا تاسيس اللجنة الحكومية البربرية فكنا نتتبع اشغالها في الصحف باهتمام الى أن صدر الظهير البربري فاحسسنا بالخطر الذي يحدق ببلدنا.

كانت هذه الجماعة تتألف من زمرة الأصدقاء الذين يجمعهم الشاطيء أيام السباحة كانت السنة سنة 1930 وكان الشهر شهر ماي وكنا نجتمع في حلقة أمام مقر المراقب الفرنسي بشاطىء سلا وكنا نتكلم في السياسة غير عابئين بوجوده وفي ذلك اليوم أي اليوم الذي قرأنا في الجرائد الفرنسية صدور الظهير المشؤوم أو أن شئت أن تقول المبروك كان الجمع الأخوي كاملا وكنا نقدر بنحو

اثني عشر شخصا وكان حديثنا هو خطر هذا الظهير وما يجب علينا أن نعمل لنقاومه. كانت هناك نظريتان واحدة تقول أن نطرقه من الناحية الوطنية والأخرى من الناحية الدينية وحيث أن الفكرة الوطنية في ذلك الوقت كانت غير موجودة وينظر إليها الشعب المغربي بحذر وذلك للخيبة التي حصلت له في وطنية مصطفى كمال زعيم الترك الذي كان العالم الإسلامي ينظر إليه كبطل الإسلام

فانقلب على الإسلام وصار يحاربه وحارب جميع مظاهره. ولهذا ترجحت لدينا المقاومة الدينية حيث أن كل المغاربة متشبثون بدينهم ويتفانون في المحافظة عليه.

وبينما نحن في هذا الحديث إذ قدم علينا المرحوم الأخ عبد اللطيف الصبيحي حيث كانت تجمعنا به فيما قبل حركة التمثيل التي كان يترأسها فبادرنا بقوله هل سمعتم بهذه الكارثة التي أصابت المغرب بصدور هذا الظهير المشؤوم الذي يقسم المغاربة الى شطرين ؟ فأجبناه باننا في شأنه نتحدث وندرس الوسائل لمقاومته فسألنا : ماهي الوسائل التي إتفقتم عليها ؟ فأجبناه باننا نرى أن نطرقه من الناحية الدينية حيث أن الشعور الديني عند المغاربة أقوى من غيره فكان جواب الأخ المرحوم غفر الله لنا وله هكذا بالحرف ، أنا لست على فكرتكم بل أن من نظري وهو ما سأقوم به. هو أن لي معرفة بشخصيات مهمة في الحكومة وغيرها مثل الحاج عمر التازي والحاج التهامي الكلاوى والعلامة الفقيه السيد أبي شعيب الدكالي وكذلك أفراد آخرين سأتصل بهم وأوضح لهم خطره وهم بدورهم سيسعون لدى الحكومة لتتراجع عنه ولقد أجبناه بأن هؤلاء الأشخاص فيهم من هو في ركاب فرنسا وفيهم من يجاملها ولا يستطيعون أن يجاهروها بشيء وهكذا افترقنا وكل واحد متشبث بفكرته وفي الغد عند صلاة العصر تجولت على كتاتيب سلا وطلبت من كل فقيه المكتب أن يقرأ اللطيف جهرا ووضحت له خطر المسألة وهكذا لم تمض دقائق حتى كانت جل الكتاتيب تجهر باللطيف والناس تتساءل عن السبب.

وفي الغد عندما سمع مراقب سلا بصدى اللطيف أرسل في طلب أحد فقهاء الكتاتيب وهو الفقيه ابن سعيد فسأله عن سبب قراءة اللطيف فأجابه أن أصغر أنجال السيد احمد حجي دفع له ربع ريال وطلب منه قراءة اللطيف على العادة الجاري بها العمل وفي الحين أرسل المراقب في طلب أخي المرحوم سعيد - حيث هو أصغرنا - صحبة والدي المرحوم ولكنه عندما تبين له انه ليس المسؤول عن ذلك كما صرح الفقيه نفسه اعتذر لهما وطلب منهما أن يسألني الحضور لديه وفعلا ذهبت لزيارته فوجدته جالسا في مكتبه والى جانبه الترجمان رغما عن كونه يعرف العربية معرفة جيدة فقد أراد أن يخلق للوقف رهبة ليؤثر علي. ولكن ولله الحمد كنت قوي الإيمان بموقفي ولسيما بالتشجيع الذي غامرني به والدي المرحوم عندما أعلمني بطلب الحضور لدى المراقب وعندما استقربي المجلس استدعاني المراقب الفقيه بن سعيد وسأله هل أنا الذي طلبت منه ذلك وعندما تحقق المراقب بأني صاحب الفكرة هدد الفقيه وتوعده أن هو استمع لأقوال الأطفال مرة ثانية ثم أذن له بالخروج ووجه الى سؤالا بواسطة الترجمان فيه شيء من الاستغراب :

- هل حصل شيء خطير كقحط أو زلزال يستلزم اللطيف الذي طلبت من الفقيه أن يقوم به ؟ فكان جوابه أكثر استغرابا منه.

- ألا تدري ما وقع ياسعادة المراقب ؟ أن الأمر أكثر خطورة.

- ماذا وقع ؟

- صدور الظهير البربري الذي يفرق بين سكان المغرب العرب والبربر ويفصل البربر عن الشريعة الإسلامية.

- إذا أنت ضد جلالة الملك.

- أن كان جلالة الملك هو الذي أخذه فنعم...

- هذا مخالف لشريعتكم الإسلامية التي تطلب منكم الامتثال لأوامر ملككم كيفما كانت الحالة.

- هذا غلط منكم لربما دينكم المسيحي هو الذي يأمر بذلك

- إذا فما علي إلا أن أرسلكم إلى السجن.

وصار يتكلم مع صاحب السجن المحلي بالتلفون يعلمه بأنه سيرسل له شخصا ليعتقله عنده.

- انني على استعداد لذلك

عندما رأى المراقب قوة عزمي أشار الى الترجمان اشارة بعينه ثم غادر المكتب وعند ذلك خاطبني الترجمان بتحرس وقال مالك وهذا لقد تسببت لنفسك في الدخول الى السجن وكيف ستقضي والدتك هذه الليلة ليلة دخول الحجاج فيكون كل الناس فارحين بهذه المناسبة الا والدتك فتكون حزينة باكية فأجبته بأنني أود أن أدخل السجن فتعجب وسألني لماذا

ـ ان دخولي الى السجن سيكون سببا في اشهار القضية حيث ليس لنا جرائد ولا وسائل للدعاية لها الا دخولي الى السجن فتتسأل الناس عن سببه ويعرفون الحقيقة وفي هذه الاثناء رجع المراقب ووجدني لازلت مصمما على فكرتي فطلب مني أن أنتظر خارج المكتب ثم استدعى صهري المرحوم السيد المكي الصبيحي خليفة الباشا وتحدث معه قليلا واتفقا على أن يقوم بالصلح بيننا فتصافحت مع المراقب وذهبت الى حال سبيلي.

يقال في المثل : فلس من الجاوي يبخر سلا. وفعلا عندما غادرت مكتب المراقب وجدت الناس في الطرق تتساءل عن المقصود بهذا الاستدعاء، وكان سببا في نشر الفكرة شيئا ما.

وفي اجتماع آخر مع الأصدقاء، قررنا أن تكون قراءة اللطيف في المسجد الأكبر يوم الجمعة وفعلا اتفقنا على جميع الوسائل لذلك وتجند المتحمسون منا للفكرة وانعزل المتخوفون وغابوا عن الانظار. أرسلنا من يتصل بعمدة المسجد الأكبر الإمام المرحوم السيد الحاج علي عواد فوجدنا منه كل التشجيع وقمنا بحملة تبشيرية منقطعة النظير وعندما طرق سمع الحكومة ماعزمنا عليه في صلاة الجمعة طلب المراقب من الباشا أن يستدعي متزعمي هذه الحركة إلى داره ويصلوا تحت مراقبته وذلك ليفشل البرنامج وفعلا كنا نحن أربعة في بيت الباشا صباح يوم الجمعة ومكثنا هنالك إلى آخر موعد للصلاة في مسجد الشهباء وهو آخر من يصلي الجمعة وذهبنا إليه صحبة الخليفة.

لقد كانت صلاة الجمعة في المسجد الأعظم فريدة من نوعها اهتزت الأركان بأصوات البشر تطلب من المولى عز وجل أن يلطف بعباده وأن لا يفرقهم عن اخوانهم البربر وكانت السطوح مملوءة بالنساء تستمع بكل خشوع الى هذه الادعية.

أما نحن الذين صلينا تحت المراقبة وفي مسجد يتاخر في اداء الصلاة عندما خرجنا وجدنا الناس في باب المسجد قدمت لتعلمنا بفوز الفكرة وهكذا صرنا ندعو الناس الى صلاة العصر في المسجد الأعظم ثم قراءة اللطيف. أما المرحوم الأخ السيد عبد اللطيف الصبيحي فلقد قام بجولته وبشر بفكرته ولكنه لم يجد اذانا صاغية وتأمل فما قلنا له فرجع إلينا وصار يغشى المسجد معنا ويصلي ويطلب اللطيف.

عندما تمكنت الفكرة في سلا وتحققت الحكومة الفرنسية من خطره طردت الأخ عبد اللطيف من وظيفته بعدما قامت بمحاكمته محاكمة صورية بدون حضوره واعتقدت الحكومة بأنه هو زعيمنا حيث كان أكبرنا وحيث كان مطلعا على الفكرة من الوظيف الذي كان يشغله.

وبعد أيام القت القبض عليه لتنفيذه وفي ليلة ذلك اليوم اجتمعنا وقررنا أن نقدم احتجاجا إلى الحكومة على القائها القبض عليه فكونا لجنة كنت أحد أفرادها وذهبنا لدى مراقب سلا نبلغه احتجاجنا فصار المراقب ينفي ما نسب إلى فرنسا من أنها تحارب الدين وهي من ذلك بريئة فأجبته بالحجج التي كانت الأقدار سهلت لي مشاهدتها قبل وهي :

أنه يوجد في قرية ابن أحمد جامع لم يتم بناؤه حيث أمر المراقب بإيقاف البناء وهو أمام مدخل دار القائد حسن ثم أن الناس في الخميسات جمعوا قدرا من المال لبناء مسجد هناك ولكن صدر لهم أمر من المراقب بعدم التنفيذ ثم اني زرت صحبة الأخ حصار قرية أزرو واتصلنا بالسكان هناك فاخبرونا بأنه ممنوع عليهم حمل القرآن الكريم الى جبال الأطلس بل وفي تلك القرية كذلك ثم أردنا زيارة المدرسة وكان ذلك اليوم يوم جمعة وكانت المدرسة مقفولة ومع ذلك اتصلنا بمديرها فأذن لنا بزيارتها وأعطانا معلومات كانت صحبة لنا لدى مراقب

سلا قال لنا مدير المدرسة مسيو روكس أن المدرسة اليوم مقفولة يوم الجمعة وليس لأنه يوم ديني لا لأننا نربي هؤلاء الطلبة على الا يعتنقوا دينا أما في عطلة المدرسة فهو لحصول السوق في هذا اليوم وهي فرصة ليتصل فيها التلاميذ بآبائهم. أما هذه المدرسة فقد اسسناها نجرب فيها تثقيف البربر باللغة الفرنسية والبربرية أما العربية فهي ممنوعة وكذلك الدين وعندما صرنا نناقشه في الفكرة قال أن الحكومة الفرنسية لاترى أي صلة للبربر باللغة العربية والدين الإسلامي.

عندما سمع المراقب كلامي لم يجد ما يقول وأراد ان يطمئننا على حالة الأخ عبد اللطيف وانه مستقر في دار ويتمتع بجميع الراحة ووسائل العيش.

ثم طلب منا ان يعقد لنا موعدا مع المسؤول الاكبر رئيس قسم الشؤون الأهلية فقبلنا وعندما حل الموعد استقبلنا المسيو بنازى في مكتبه الفخم وهو في حلته الرسمية والى جانبه ترجمان ضابط فرنسي يحسن اللغة العربية وبعدما رحب بنا رفع يده بقسم بشرف فرنسا ان بلده لا تضمر اي سوء لدين الإسلام ولا تقصد اي شيء يمس به وكان يكرر قسمه وينوع كلامه وعندما انتهى طلب منا ان نهدئ روعة السكان ونبشرهم بحسن نية فرنسا فكان جوابنا انه ليس لنا سلطة على الناس بل نحن افراد عاديون وكل ما نريده من هذه الزيارة هو أن نبلغكم احتجاجنا على القائكم القبض على الأخ عبد اللطيف الصبيحي فأجابنا بانه مسؤول على هاته الروعة وانه في امن وسلام.

مرت مدة وسلا بمفردها تقاوم هذا الظهير واتصلنا ببعض الأفراد من الاخوان الرباطيين ليشاركونا ويحضروا في هذه المقاومة فكان جوابهم انهم لا زالوا يبحثون عمن يعمل معهم ولكن بعد مدة قصيرة قرا اللطيف في مسجدين بالرباط. ثم بعد مضي مدة زارنا الأخ السيد الهاشمي الفلالي حيث قدم من فاس ليبحث عن سبب هذه الحالة بصدور الظهير وخطره على مجتمعنا الاسلامي والوطني وهكذا لم تمر ايام على رجوعه الى فاس حتى قام اخواننا بالقاء الخطب وبقراءة اللطيف في المساجد فكان لهذا صدى كبير اهتز له كل الناس.

سلا عبد الكريم حجي



مُقارنة بيْن حَضارتيْن

للأستاذ العربي الزكاري

تصور قصير للايمان

من البديهيات أن الإنسان متى نطق بالشهادتين انخلعت عليه صفة المسلم. لكن البعض يظن أن الشهادتين تعفيانه من التكاليف والمسؤوليات التي تكفل سعادة الدنيا والآخرة للأفراد والجماعات. وغاب عنه أن من أوليات الإيمان الالتزام بتطبيق تعاليم الإسلام في سلوكه الخاص وتصرفاته العامة.

وكثيرا ما أتساءل في قرارة نفسي عما آل إليه أكثر المسلمين في هذه الفترة العصيبة من حيرة وارتباك وخذلان، وما اعتراهم من تفكك وضعف وهوان، وما هم فيه من تأخر وتيه وخسران. فلم أجد جوابا جامعا ومقنعا سوى تصورهم القصير لمعنى الإيمان في مفهومه العام. ونتيجة لهذا الفهم المحدود خالفوا سنة الله في الكون القاضية بتطبيق ما جاء به الإسلام من ممارسة دقيقة للتعاليم المتفرعة عن الإيمان نفسه والمنبثقة منه تلقائيا.

سؤال مغرض

ونصيخ بأسماعنا الى سؤال مغرض يردده أعداء الأديان، وتلوكه ألسنة الملحدين، وتطفح به كتابات المعاندين، وتتبارى في التركيز عليه أقلام المخربين.

ويتلخص في أن الدول غير المسلمة والشعوب الملحدة تقدمت صناعيا وتيكنولوجيا واجتماعيا وحضاريا وعلميا واشعاعا فكريا قادها إلى غزو الفضاء. وبلغت شأوا كبيرا في الغنى المالي والقوة العسكرية، مما أهلها للتصرف في مصير كثير من الشعوب والتحكم في مستقبل العديد من الأمم. ونتيجة لهذا التفوق الكبير أمسى غيرها خاضعا لإرادتها وراكعا أمام جبروتها ومستجديا معونتها الغذائية والثقافية والفنية.

وتبعا لهذه المفاهيم المدخولة والتساؤلات المغرضة يدعون أن وضعية جل المسلمين اليوم مردها في الأساس الى الدين، باعتباره حجر عثرة بينهم وبين اللحاق بركب الحضارة الحديثة «**كبرت كلمة تخرج من أفواههم، ان يقولوا الا كذبا**» (1).

وان نحن تعمقنا في دراسة هذا الادعاء المغرض وجدناه فرية لا تلبث أن تتبدد أمام الحقيقة الأزلية الخالدة، إذ ما هو إلا ادعاء لا يستند على أساس معقول، ولا ينسجم مع أبسط قواعد الحقيقة والمنطق، ولا تؤازره أحداث تاريخ هذا الدين عندما كان الإسلام يطبق في المجتمعات المسلمة تطبيقا عمليا.

---

1) سورة الكهف (5).

مراجع التاريخ النزيه

ويكفي أن نحيل المعاندين والمرجفين وأعداء الرسالات السماوية على مراجع التاريخ النزيه، فهي خير حجة وأسطع برهان على بطلان هذا الادعاء، حيث تثبت بصفة لا تقبل الجدل أن المسلمين استطاعوا في فترة وجيزة أن يشيدوا حضارة حقيقية وعظيمة بهرت العالم وانتزعت إعجاب المنصفين من عباقرة الدنيا، ويكفينا في هذا الباب اعتراف العلماء والمنصفين في جميع القارات بأن أوربا تتلمذت للعلماء المسلمين في جل ميادين المعرفة، واقتبست أسس نهضتها الحديثة مما وصل إليه علماء الإسلام من ابتكارات في الطب والهندسة والفلك والرياضيات وغيرها من مجالات التقدم العلمي. إضافة إلى الميدان الحضاري في الأخلاق الرفيعة والسلوك الممتاز والمعاملات الدولية النابعة من تعاليم الإسلام.

المصدر الاول يتكلم

ولكي نقطع الطريق على المرجفين والمعاندين، وحتى نرشد شبابنا المفتون بالغرب وحضارته الصماء إلى الطريق السوي، ورغبة في الدفاع عن عقيدتنا وإزالة الشبهات عنها، ومساهمة في إبراز الصورة الحقيقية للمؤمن الذي وعده الله بنصره. لا مناص من العودة الى المصدر الأول في التشريع الإسلامي وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن استقرائي لآيات الله في دستورنا المقدس أحصيت **ستة وخمسين** موضوعا لا يذكر الله فيه «الايمان» إلا متبوعا بـ «العمل الصالح» باعتباره المعيار الأوحد الذي يجازي عنه الخالق سبحانه عباده أحسن جزاء وأوفره وأشرفه، مما يؤكد أن «الايمان» مفتاح أبواب السماء، و «العمل» وسيلة لتحقيق الغايات. على أن الإسلام يشترط في هذا العمل أن يكون «صالحا» ليحقق النتائج المرجوة ويرشح المؤمن لنيل الجوائز الالهية وتلقي الهبات الربانية في الدنيا والآخرة.

ومن الواضح أن ورود ذلك العدد الضخم من آيات القرآن الحكيم وفي سياقات مختلفة وسور متعددة لم يأت جزافا واعتباطا، وانما هو توجيه من الله تعالى وتأكيد لعباده المومنين بأنه لا سبيل لتحقيق تفوقهم إلا باتباع نهجه القويم، وانه سبحانه لا يقبل الا العمل الصالح المقرون بالإيمان الصريح لمن يريد الحظوة في هذه الدار وفي الدار الآخرة، وما سوى ذلك إنما هو هبة دنيوية عابرة وعمل مرفوض يوم الجزاء الأوفى.

ايجابيات وسلبيات

ومن هنا نستنبط أن الحضارة الحديثة لها إيجابياتها وسلبياتها، بمعنى أنها عادت على الانسانية بكثير من المنافع الدنيوية لا ينكرها الا متنطع، ولكن من المؤكد أيضا أن إثمها أكبر من نفعها كما هو مشاهد وملموس، ويشهد به عقلاء الغرب وفلاسفة الدنيا الذين يزنون الأمور بميزان العقل، اذ لا يستطيع أحد أن يتجاهل ما عليه القائمون على هذه الحضارة من عجرفة وعنصرية وهدر لحقوق الضعفاء وحصد للأرواح البريئة في كثير من بقاع الدنيا المنكوبة بتدخلهم الخفي والمكشوف.

نواميس الله تعالى

ولا جدال في أن الله تعالى قد أوجد الكون بقدرته القاهرة وحكمته الباهرة وأودع فيه نواميس لا بد من تطبيقها كاملة لتسير أمور كوكبنا الأرضي طبقا لمشيئته تعالى، حتى اذا ما وقع إهمال لبعضها أو إبطال لها بالمرة انحرفت المجتمعات عن الحكمة الربانية وتعثرت الإنسانية في مسيرتها واختلت موازينها وتعرض المخالفون للعقاب الإلهي العادل المتمثل في الكثير من الأنواع والعديد من الأشكال، ومن ضمنها هذا الخوف والهلع والرعب المصاحب لإنسان اليوم.

والمسلمون عندما أهملوا نواميس الكون تقهقروا إلى الوراء ليحتل غيرهم مكانهم، وبعدما كانوا سادة الموقف أصبحوا يلهثون وراء حضارة لا تمت الى دين ولا تقيم وزنا لخلق. ونلاحظ أن الوضع عند غيرهم مختلف تمام الاختلاف في المظهر لا في العمق الذي هو أصل الدين. فقد اهتدوا الى استخدام نواميس الطبيعة التي طبع الله هذا الكون عليها في سلوكهم الخاص. وواضح أن الأخذ بهذه النواميس يضمن التقدم الدنيوي ولا شك ويأخذ بيد الانسان الملتزم بها إلى الانتفاع بما أودع الله في الدنيا من مزايا مادية صرفة.

فالزارع المجد يحصد أوفر الحبوب وأجود الثمار، والصانع المخلص ينتج أبرع المصنوعات وأثمنها، والعامل الوفي ينال أكبر المكافآت وأعلاها، والتاجر الصدوق تنمو تجارته وتتسع مكتسباته وتتكاثر أرزاقه، والموظف النزيه يرقى أعلى الدرجات وأرفعها، والمؤتمن على مصالح الأفراد والجماعات والمصانع والشركات والهيآت والمؤسسات يصل الى ذروة المراتب وأشرفها. وهكذا يتضح أن الاخلاص والوفاء والصدق والأمانة من النواميس الأساسية الكفيلة بالتقدم والرقي والحضارة في هذه الدار **«سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا»** (2).

جراثيم الفناء

وهنا لا مناص من وقفة لكشف الغطاء عن حقيقة يجهلها الغافلون ويتجاهلها المغرضون، وهي أن ما يتصف به الذين تقدموا ماديا وتأخروا روحيا لا يتعدى - كما أسلفنا - حضارة مزيفة لا جزاء أخروي عنها، ذلك أن النواميس التي أخذوا بها لا يطبقونها الا فيما بينهم، وحظ غيرهم المراوغة والخديعة والاحتكار والاستعلاء والدسائس كعملة رائجة وبضاعة صالحة للتصدير الى من لا يدور في فلكهم ولا يخضع لتوجيهاتهم وجبروتهم.

ومما يؤكد أن الله تعالى لا يقبل من عباده الا الإيمان الصادق والعمل الصالح لم يوفق هؤلاء للانتفاع بحضارتهم المادية أحسن انتفاع في الدنيا نفسها، فمجتمعاتهم اعتراها التفسخ العائلي والانحلال الخلقي والارتباك النفسي، ودولهم في نزاعات متلاحقة وسباق مريع لإعداد وسائل الدمار واتقان صواريخ الخراب التي لا يستطيع أحد التكهن بنتائجها المفجعة عند لحظة جنونية تعتري المهيمنين عليها أو حدوث خلل بسيط في جهاز من أجهزة مراقبتها أو انطلاقها. الأمر الذي يدل على أن هذه الحضارة تحمل في تضاعيفها جراثيم الفناء والبوار وميكروبات الموت العاجل أو الآجل. وإن نحن عدنا إلى دستورنا المقدس نستلهمه الحكم القاطع والنهائي لهذه الحضارة ومثيلاتها أسعفنا بقوله تعالى : **«وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا»** (3).

ولعل السر في هذه القضبة الإلهية التي تمحق مثل تلك الأعمال يوم الجزاء العادل يكمن في أنها أعمال مجردة من لب اللباب المتمثل في الإيمان بالله وبرسالة خاتم أنبيائه. والقاعدة التي تكررت عبر مراحل تاريخ الإنسانية أن كل شيء لا يرتكز على الإيمان بالله والانصياع لتوجيهاته لا بد وأن يفشل في نهاية المطاف ويلاقي ما يستحق من عقاب في الدنيا أولا وفي الآخرة ثانيا **«وما ربك بظلام للعبيد»** (4).

ونستخلص من هذا أن المسلمين متى أرادوا استرجاع مجدهم وتطلعوا إلى تحقيق عزتهم لا وسيلة لهم إلى بلوغ هذه الأهداف سوى تطبيق سنن الله ومناهجه كما طبقها السلف الصالح في فجر نهضته، وهذا ما أعتقد أنهم فهموه حق الفهم بعدما استيقظوا من غفلتهم وبعدما تخلصوا من سيطرة الأقزام.

الصحوة الاسلامية

ومما يلفت النظر ويسترعي الانتباه أن المهيمنين على حضارة هذا العصر أصابهم الذهول عندما ظهرت في الأفق بوادر الصحوة الإسلامية الجديدة، فجندوا ساستهم للكشف عن مصادر هذه الصحوة ومدى فعاليتها. مما يؤكد خشيتهم من يقظة العالم الإسلامي، وخوفهم على مصير حضارتهم المزيفة، وهلعهم من أن يستفيق العملاق الإسلامي من غفوته، مع أننا على يقين راسخ بأن الصحوة الإسلامية سوف لا تكون إلا في صالح الإنسانية بأجمعها كما كانت في عهد الرسالة المحمدية وأثناء حكم الخلفاء الراشدين. ولن يقوم بنيانها ان شاء الله إلا على أساس ديننا الذي لا يعرف ولن يعرف تعصبا ولا طغيانا ولا هضما ولا تطاولا على حقوق العباد.

---

2) سورة الفتح (23).
3) سورة الفرقان (23).
4) سورة فصلت (46).

وبعد، فأملنا أن لا تنطلق مسيرة المسلمين إلا على هدى من الله وشعارها قوله تعالى : «**وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا**» (6).

فهذا الوعد الالهي الصريح بالنصر والتمكين هو الشحنة التي ينبغي للمسلمين أن يستخدموها في انطلاقتهم المباركة. والله ولي التوفيق.

تطوان　　　**محمد العربي الزكاري**

المسابقة الكبرى لحفظ وتجويد القرآن الكريم

●● اختتمت (المسابقة الكبرى لحفظ وتجويد القرآن الكريم) التي نظمتها سفارة المملكة العربية السعودية بالمغرب بتعاون وتنسيق مع وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية. وقد وزعت الجوائز على الفائزين. وكان نصيب الفائز الأول (مصطفى غزني من الدار البيضاء، بالإضافة الى الجائزة المالية تذكرة سفر الى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج. وقد بلغ عدد المرشحين للمسابقة نحو ألف شخص ●●

الأبعاد الثقافية لعهد الموحدين

هدف التقليد في الأدب المغربي

للأستاذ عبد الكريم التواتي

كان من ابرز مظاهر اهتمام دولة الموحدين بالثقافة عامة، عنايتهم منذ قيامهم بانشاء دور الطلبة والمتعلمين، والانفاق عليهم، ومراقبة نشاطاتهم الفكرية والدينية معا. فقد حفظ لنا التاريخ الناطق المكتوب والصامت المتجلي في الآثار العمرانية الباقية عن هذا العهد. ما يؤكدان حركة كبيرة لبناء المدارس العلمية قد بوشرت بمختلف العواصم المغربية.

وهكذا، فبالاضافة الى بيت الطلبة الرئيسي، الذي كانوا أنشأوه بعاصمتهم مراكش، حيث استقبل علماء محدثون كبار، مثل أبي عمر بن عات الذي تولى لفترة مادارته كانت هناك مدارس أخرى، كمدرسة سبتة التي انشأها أبو الحسن الشاري، ومدرسة مسجد سلا الأعظم التي مازالت آثارها حية الى اليوم.

وكان للتربية التي نشأ عليها رجال هذه الدولة منذ خطواتهم الأولى التي قطعوها، وهم يدرجون الى الشرق طلبا للاستزادة من العلم، وتطلعا الى المعرفة دخل عظيم وأثر طيب في تكوين شخصية الدولة الموحدية العلمية، وشحذ تذوق ملوكها للعلوم والآداب، وتعميق ادراكهم لقيمة ما يلقى بين ايديهم.

وفي سنهم استدراج اقطاب الفكر العربي، وخاصة من الأندلس الى حضرتهم، ثم الاحتفاظ بولاء هؤلاء الاقطاب، الذي كان دعما لمركز الدولة الناشئة، وتثبيتا لوجودها العلمي، وشخصيتها في مجالات الثقافة والحضارة، ففي هذا المجال، يذكرون أن عبد المومن مثلا كان يشجع العلماء ورجال الشعر الى الدرجة التي جعلتهم يتقاطرون على بلاطه من كل اصقاع العالم الإسلامي بما فيه مصر، وان من آية تشجيعه اجازته محمد بن أبي العباس السمعاني بالف دينار على بيت مفرد من الشعر.

وذكروا أن عبد المومن استعاده هذا البيت مرات آمرا اياه بالاقتصار عليه وهذا البيت المفرد هو :

ما هز عطفيه بين البيض والاسل
مثل الخليفة عبد المومن بن علي

على أن المؤرخين يؤكدون بأن جل أمراء هذه الدولة كانوا شعراء، أو كانوا يقرضون الشعر ويعالجونه، وأن يكن أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المومن الموحدي واسطة عقدهم، في هذا الميدان، حيث حفظ له ديوان شعر متداول معروف.

أما ابن تومرت، فقد نسبوا إليه الأبيات التالية :

اخذت بأعطادهم إذ نــأوا
وخلفك القوم إذ ودعــوا

فكم أنت تنهى ولا تنتهــي
وتسمع وعظا، ولا تسمــع

فيا حجر السن حتى متــى
تسن الحديد ولا تقطــع ؟

أما عبد المومن بن علي فقد أوردوا له شعرا يستنفر به عرب بني هلال لغزو جزيرة الاندلس، ومنه هذه الابيات :

اقيموا إلى العلياء هوج الرواحل
وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر
وشدوا على الاعداء شدة صائل
فما العز الاظهر أجرد سابـح
يفوت الصبا في شده المتواصل
وابيض مأثور كان فرنـــده
على الماء منسوج وليس بسائل
بني العم من عليا هلال بن عامـر
وما جمعت من باسل وابن باســل
تعالوا فقد شدت إلى الغزونيـة
عواقبها منصورة بالاوائــــل
هي الغزوة الغراء والموعد الذي
تنجز من بعد المدى المتطاول
بها تفتح الدنيا، بها تبلغ المنـــى
بها ينصف التحقيق من كل باطـل
اهبنا بكم للخير والله حسبنا
وحسبكم والله اعدل عــادل
فما همنا الاصلاح جميعكـم
وتسريحكم في ظل أخضر هاطل
فلا تتوانوا فالبدار غنيمــــة
وللمدلج الساري صفاء المناهل

ونسبوا لحفيده المنصور أبياتا كان وجهها لبني سليم النازلين بافريقيا (تونس) يحذرهم مغبة التمرد والعصيان وهذه هي :

يا أيها الراكب المزجي مطيته
على عذافرة تشقى بها الاكم
بلغ سليما على بعد الديار بها
بيني وبينكم الرحمن والرحم
ياقومنا لاتشبوا الحرب ان خمدت
واستمسكوا بعرى الإيمان واعتصموا
كمجرب الحرب من قد كان قبلكـم
من القرون فبادت دونها الأمــم
الله يعلم أني ما دعوتكـــم
دعاء ذي قوة يوما فينتقــم
ولا لجأت لأمر يستعان بــه
من الأمور، وهذا الخلق قد علموا
لكن لاجزي رسول الله عن نسب
نمى اليه وترعى تلكم الذمــم
فإن أبيتم فخيل الوصل متصل
وإن أبيتم فعند السيف نحتكـم

وكان للمرأة الموحدية في كل المجالات التي عالجتها ثقافة هذه الدولة مشاركة واهتمام، فقد برزت في ميدان علم الكلام والعقائد كل من ابنة الخليفة يوسف بن عبد المومن، والسيدة المدعوة (خيرونة الفاسية)، ولهذه ألف (اللالجي) كتابه : (العقيدة البرهانية)، وكانت السيدة المدعوة (محلة المراكشية) من اللائي برزن في الفقه، كما اشتهرت ابنة أبي الحسن الشاري، مؤسس مدرسة (سبتة) المدعوة (مريم) في علم الحديث والسنة، أما في التصوف فقد اشتهرت امينة بنت ميمون الدكالي).

أمافي الأدب والشعر فقد خلد التاريخ الكثيرات منهن مثل :

1) الشريفة أمة العزيز بنت أبي محمد بن الحسن بن أبي الحسام السبتي ومن شعرها :

لحاظكم تجرحنا في الحشا
ولحظنا يجرحكم في الخـدود
جرح بجرح فاجعلو، ذا، بذا
فما الذي أوجب جرح الصدود ؟

2) حفصة بنت القاضي ابي حفص بن عمر، ولم تنشر لها اشعار.

3) - لساء بنت عبد المومن التاجر الفاسي، التي ورد جنون في كتابه (النبوغ) - نقلا عن محاضرات ابن عربي الحاتمي الابيات التالية التي انشدتها في ابي علي صاحب فاس، قالت :

جاء للبشر بوعد كان ينتظر
فاصبح الحق ما في وصفه كدر
من خير هاد غدا بالهدي يأمرنا
وفي اوامره التسديد والنظر

ليث، اذا اقتحم الابطال حومتها
يفني الكتائب لايبقي ولايذر

4) رميلة الموحدية، عشيقة ابن غرلة الزجال، الذي قتل بسبب انشاده فيها موشحته المعنونة بـ (العروس)، والتي مطلعها :

من يصيد صيدا
فليكن كما صيدي

صيدي الغزالة
من مراتع الأسد

ونحب أن ننبه إلى أنه اذا كانت الموسوعية أو المشاركة بالتعبير القديم هي السمة الغالبة على مثقفي عصور المغرب الأولى، بل وحتى على مثقفي عصرنا الحديث، وبالأخص أولائك الذين تخرجوا من المدارس المسجدية وكانت العناية بالفقه وعلم التشريع من تفسير وسنة وأصول من أهم ما يميز مثقف ذلك العصر، ويجعله محط أنظار مؤرخي رجال الطبقات، فأنه في العصر الموحدي لوحظ وجود طبقة مثقفة ذات اختصاص تقني إن صح التعبير. وكانت هذه الطبقة تتخفى وراء الفقهيات حتى لا تثير شكوك الناس الذين كانوا يومئذ يعتبرون كل من يبحث في غير علوم الدين مارقا من الدين.

ولعل هذا الاعتبار هو الذي حدا بالخليفة عبد المومن بن علي أن يقف من ابن رشد الحفيد موقفه الشائن في الاندلس، وأن يحاول اصلاحه أثر عودته الى عاصمة ملكه، باستدعائه الرجل إلى حضرته واغداق حلل الرضى عليه والكرم الحاتمي.

ومن بين هؤلاء المتخصصين (أبو العباس التيفاشي) القاضي القهري (580 هـ 653) (1) فقد كان الرجل تخصص في موضوعين اثنين، هامين إحدهما (علاقات التوالد) الذي وضع فيه كتابه : (نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب)، والموضع الثاني دراسة الاحجار الكريمة، حيث وضع فيه كتابا بعنوان (ازهار الافكار في جواهر الاحجار).

وتخصص ابن طفيل وابن رشد في دراسة الفلسفة بوجه عام، وتخصص كل من أبي بكر بن زهر الأندلسي والقاضي أبي حفص بن عمر، في الموشحات أما ابن عمر الأندلسي وابن غرلة، فقد تخرجا في الشعر الملحون (وعروض البلدي) كما كانوا يسمونه، تابعهما ابن شجاع التازي والكفيف الزرهوني على نفس الدرب، أي الزجل أو عروض البلدي أي الشعر الملحون.

تلك نظرة عامة ووجيزة عن أبرز مظاهر الثقافة لعهد الموحدين، ولكن رغم شموليتها الظاهرية فان السمة الغالبة عليها كانت الفقه، وأصوله، والتشريع، وعلم الكلام، والعقائد.

وكانت الآداب بمفهومها التقني، أو الحقيقي إن صح التعبير نادرة جدا، الا اذا مططنا ذلك المفهوم بما يشمل ما رآه صاحب النبوغ المغربي من ادراج النحو واللغة والعروض والتاريخ والسير ضمنه، الشيء الذي لاتستسيغه في نظرنا على الأقل المعايير الأدبية.

وهكذا فنحن حين نحاول وضع جرد لأدباء هذا العصر المغاربة، بالمعنى الضيق أو القومي، أو لمؤلفاتهم الأدبية لا نستطيع أن نعثر على شيء كبير يستحق الذكر، وحتى كتاب ابن دحية أبي الخطاب المعنون بـ (المطرب من أشعار المغرب) مثلا ليس الا تسجيلا للانتاج الأندلسي، وليس فيه من شعر المغاربة الا النزر اليسير. كما أن الجذاذات التي عرفت من كتاب (صفوة الأدب وديوان العرب) لأبي العباس الجراوي، كان معظمها من شعر القيروان وشعراء الأندلس والشرق ورغم ما قيل عن تشجيع الموحدين للحركة الأدبية، ورعاية روادها مما أوردنا صورا منه فيما سبق، ورغم محاولة أدباء المغرب منافسة أدباء الأندلس بالمناظرات والمساجلات بما فيها مثل تلك التي قامت بين أبي الوليد الشقندى وأبي يحيى بن المعلم الطنجي، والتي كانت فيما قيل بايعاز من ولي سبتة أبي يحيى بن أبي زكرياء، وانتهت بكتابة كل واحد من المتنافسين رسالة تفضيل لبلده على بلد الاخر فان الحركة العامة لم تخرج عن الإطار العلمي البعيد عن الأدب في مفهومه القائم أو الذي يجب أن يقوم على معالجة قضايا

1) خص الأستاذ عبد القادر زمامة بحثا خاصا له في مجلة (دعوة الحق) ص 45 عدد 3 السنة 7.

الإنسان في مجتمعه وأحلامه وتطلعاته للمستقبل واستطلاعاته للماضي.

فقد كانت غاية ماكان ينشده أولئك الأدباء محاكاة أدباء الشرق والأندلس حتى يشبه كل واحد هنا باخر هناك فيقال مثلا : ابن هانئ متنبي المغرب، وسليمان الموحدي هو شبيه بابن المعتز العباسي.

وهكذا فكلما ذهبنا نتقصى للشعر المغربي في تلك العهود ميزات خاصة لم نر إلا تقليدا للشرق والأندلس التي هي بدورها تقليد للشرق شكلا ومضمونا، صيغة ومحتوى مع شيء قليل من البساطة في التعبير وصدق في المقصد اقتضتهما بساطة الحياة هنا عنها هناك.

ذلك لأن العصر كان عصر اهتمام متزايد بالعلوم الدينية التي كانت ترضى رأي العامة في الشعب، واغداق الهبات والصلات على بعض الشعراء في الوقت الذي يحرم فيه منها الحكماء، دليل على أن تلك الهبات انما اريد بها درء مثالب الشعراء واسكات ألسنتهم الحداد، ما دام الشعر كان وما يزال أسير على الألسن واعلق بالنفوس.

ولكن ظاهرة التقليد في أدبنا المغربي في نظري ذات مغزى عميق وجليل في نفس الوقت، اذ هي تعبير صارخ عن رفض هذه الأمة احداث أي تفكك في وحدة العروبة ووحدة الدين الاسلامي الذي جمع شملها وكون منها العملاق الذي أسس الامبراطوريات وكون الامارات. فكأن الشعراء حين أصروا على أن ينسجوا جميعهم وبدون استثناء على منوال واحد، وأن يصبوا انتاجهم في قالب واحد، ويتجمعوا بشكل واحد حول مضمون واحد، مهما تناءت ديار العروبة، وتناثرت أصقاعها أرادوا أن يذكروا الأجيال المتلاحقة أن المنبت والمنطلق واحد فيجب أن يكون الشكل لا الانتاج واحدا، وحيث أن المنبع متحد فيجب أن يكون المصب كذلك متحدا الا فيما تقتضيه صور التعبير التي هي مراة تعكس اثار البيئة والمناخ.

ومن هنا نرى أن تحامل الأستاذ ابن تاويت التطواني على تقليد شعرائنا للشرق، ومحاولته رد جميع انتاجهم الى هناك والى الدرجة التي اظهرت أثارهم بمظهر ما يطلق عليه السرقات الأدبية أو الانتحال (2) فيه أنه تجاهل للحقيقة التي كان يعترف من معينها أولئك الشعراء الذين لم يعترفوا أبدا بتمزق وحدة العرب، ولم يقيموا وزنا للحدود السياسية، لأنهم كانوا يعرفون أنهم طلائع الأمة ويعرفون أن رسالتهم هي بلورة أهداف الأمة وتقييم وجودها.

على أن هناك جوا عاما لا بد أن يسود فترة معينة من الدورات التاريخية فتوحد فيها مظاهر الحضارة الإنسانية. كما يحدث حاليا في الموسيقى الصاخبة والفنون التشكيلية التي اخترعها الرسام الإسباني (بيكاسو) وفي البحوث أيضا بما فيه المقفى والموزون والحر المنثور، لأن وحدة الإنسان تجعله مرغما على التجاوب مع التيارات العامة المعيشة. ومن هنا صح لابن خلدون أن يلاحظ تقليد الأمم الصغرى للكبرى او المغلوبة للغالبة. ولنقل نحن بلغة عصرنا تقليد الامم النامية المتخلفة للتي هي متقدمة ومصنعة.

وها نحن الان وقد بدانا ندرك دورنا في الحياة العالمية، نرفض التمزق للامة العربية الإسلامية، ونرفض تفكك عرى الانسانية جمعاء، وندعو في حرارة وايمان الى قيام وحدة حقيقية لا في الاساليب والاشكال ولكن أيضا في كل شيء يتصل بالحياة مأكلا ومشربا وملبسا وعادات.

ذلك لأن الانسان، مهما تناءت الديار بين أجناسه، وتباينت السياسات بين اقطاره، يبقى في الاعماق انسانا واحدا شكلا ومضمونا.

ويوم يأتي نقاد الشعر والاداب في العصور المقبلة ليبحثوا وينقبوا عن خصائص وامتيازات هذه المجموعة البشرية التي تقطن هذا الجزء من المعمور أو ذاك، فسيعوزهم حتما الوقوف على ميزات أو خصائص متمايزة، لأن الإنسانية منذ كانت، هي سائرة وتسير حثيثا الى رفض التمايز، وان حاول بعض الضيقي الافاق ان يعتبروا التمايز بين مختلف الناس دليلا على اثبات الوجود وقيام الذاتية...

فاس عبد الكريم التواتي

2) دعوة الحق ، ص 93 العدد 9 السنة 11.

جهود الفقهاء في تدوين الوقف وتقنينه

للأستاذ محمد بن عبد العزيز بنعبد الله

الوقف ليس من أركان الدين.. ولم ترد بشأن تنظيم أحكامه نصوص شرعية من الكتاب أو السنة. كما أن الدين في كتاب الله غير الوقف. وان من الأسراف في التعبير أن يقال عن الاحكام التي استنبطها الفقهاء، وفرعوا عليها، واختلفوا فيها، وتمسكوا بها حينا، ورجعوا عنها حينا، أنها أحكام الدين. وأن من أنكرها، فقد انكر شيئا من الدين.. فانما الدين هو الشريعة التي أوحى بها الله الى الانبياء جميعا. وأما القوانين المنظمة للتعامل، والمحققة للعدل، والدافعة للحرج، فهي آراء للفقهاء مستمدة من أصولها الشرعية تختلف باختلاف العصور، والاستعدادات، وتبعا لاختلاف الأمم، ومقتضيات الحياة فيها، ومستلزمات التطور، وتبعا لاختلاف البيئات والظروف. ولو جاز أن يكون الدين هو الفقه مع مانرى من اختلاف الفقهاء بعضهم مع بعض وتفنيد كل الاراء مخالفيه، وعدها باطلة لحقت علينا كلمة الله.. «وان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء...».

بيد ان فقهاء المسلمين كانوا قد قدحوا زناد قرائحهم وملكاتهم الفقهية، واعملوا آراءهم، فرسخوا قواعد الوقف، وأمدوا رواقه، وبينوا التطبيقات الواضحة، وعمدوا الى الاجتهاد والإستنباط. وأوجدوا لنا هذه الثروة العظيمة من هذا النظام الشرعي القائم بذاته، والتي تعتبر بحق ثروة علمية، عظيمة الفائدة والعائدة، جديرة بالاعتزاز، خليقة بالبحث والدراسة، حرية بالاكبار والاجلال، قمينة بالاعجاب والتنويه، والإشادة والتقدير..

لقد أصبحت الأمة الإسلامية في صدر الدولة العباسية واعقاب الدولة الأموية، مترامية الاطراف بعيدة الاكناف، تضم بين جنباتها انماطا من الناس، واخلاطا من الأجناس، وصورا من الأشياء، كما تضم رقعتها الرحبة الحدود أمما مختلفة، وشعوبا متباينة، لكل أمة عادات اجتماعية، واعراف قانونية، وطرق في المعاملات، ولكل أمة لهادين، له تقاليده وطقوسه... فلما دخلت هذه الأمم في الإسلام، واستقرت الأمور في العهد العباسي، وصبغت كلها بالصبغة الدينية.. وتفرق الأئمة في الأمصار، عرضت هذه العادات والتقاليد على أئمة الفقه، فكان من مميزات هذا العصر التشريع والتدوين الذي ظهرت حركته في هذا العصر، في كل فروع العلم، ومنها الفقه الذي اصطبغ بصبغة قانونية، بعد أن كانت صبغتها قبل صبغة حديث.. وظهر في كتب الفقه أثر الخلاف في المذهب، وأثر الجدال.

وقد اتجه العلماء، في هذا العصر الى التدوين، وأخذت العلوم الدينية والعربية تتميز، وصار كل علم له علماء قد اختصوا به، يتفننون فيه، ويضبطون قواعده، لذلك أخذ الفقهاء، والمحدثون في تدوين علومهم...

فكان علماء الحجاز يجمعون فتاوي عبد الله بن عمر، وعائشة، وابن عباس ومن جاء بعدهم من كبار التابعين في المدينة، وينظرون فيها، ويستنبطون منها، ويفرعون عليها..

كما كان العراقيون يجمعون فتاوي عبد الله بن مسعود، وقضايا علي وفتاواه، وقضايا شريح وغيره من قضاة الكوفة، ثم يستخرجون منها ويستنبطون..

فلما جاء العصر العباسي إتسعت آفاق التدوين في الحديث مرتبا ترتيبا فقهيا.. ولم ينتصف القرن الثاني حتى كانت حركة الجمع والتدوين انشط واقوى، وكان ممن سبق إليها من رجال هذا القرن، ابن شهاب الزهري، وابن جريج الملكي، وابن اسحق، ومعمر اليمني، وسعيد ابن أبي عروبة البصري والربيع بن صبيح، وسفيان الثوري، ومالك بن انس، والليث بن سعد، وعبد الله بن المبارك، ثم تتابع الناس (1).

وقد اختلف في أول من صنف، فقيل : الامام عبد الملك ابن عبد العزيز بن جريج البصري (2)، (ت 155 هـ) وقيل أبو النصر سعيد بن أبي عروبة (ت 156 هـ) ذكرهما الخطيب البغدادي، وقيل ربيع بن صبيح (ت 160 هـ) قاله أبو محمد الرامهرمزي، ثم صنف سفيان بن عيينة، ومالك بن انس بالمدينة المنورة، وعبد الله بن وهب بمصر، ومعمر وعبد الرزاق باليمن، وسفيان الثوري، ومحمد بن فضيل بن غزوان بالكوفة، وحماد بن سلمة، وروح بن عبادة بالبصرة، وهشيم بواسط، وعبد الله بن المبارك بخراسان، وكان مطمح نظرهم، ومطرح بصرهم بالتدوين ضبط معاني القرآن والحديث، ثم دونوا فيما هو كالوسيلة اليهما.

وقد تم التدوين واتسع، وتضخم الفقه، ونما نموا كبيرا في هذا العصر الذي نشط فيه العلم نشاطا واسعا، وإن كانت بذرة النشاط بدأت في آخر العصر الأموي الذي كان الفقه في عهدهم محفوظا في الصدور، ومضبوطا بالحفظ، لا مخطوطا مضبوطا بالجمع والتدوين..

وقد ذكر المؤرخون انه على راس المائة أصدر عمر بن عبد العزيز امرين اثرا على الفقه كثيرا بالرقي العظيم، فقد أمر بتفريق العلماء في الآفاق لتعليم الأمة وتهذيبها، ونشر الدين، ومحاسن الاخلاق، ومن جملتهم عشرة من التابعين، أرسلهم الى افريقية لتعليم أهلها الفقه والدين، فانتشر الفقه وتم التعليم.. كما أمر بكتابة العلم وتدوينه، فعمر، كما هو معروف، خاف دروس العلم، وذهاب العلماء، فكانت بداية التدوين في عهده..

نضجت الحضارة في هذا العصر، وأدركت رشدها، واستكملت قوتها، وأخذت توتي ثمرها طيبا شهيا لذيذا في كل فرع من فروع العلم والفلسفة والفن والأدب، وفي هذا الإطار، نشط التأليف، وشمل كل فرع من فروع العلوم، وغدا المؤلفون والمؤلفات فيه بالمات، واستعراض لفهرست ابن النديم فيما ألف في ذلك العصر يقفنا موقف الدهش والاستغراب..

وهكذا نرى أن الفقهاء والمؤلفين لكتب الفقه في هذا العصر قد جمعوا المسائل التي تتعلق بموضوع واحد في باب بعينه، ولكنهم في عرضهم عرضوا الجزئيات دون القواعد غالبا... فكان هذا العصر، بحق، أكثر عصور الإسلام نشاطا في التدوين والتشريع، وأكثر عددا من الفقهاء المجتهدين، وقد سببت تلك الاختلافات والخصومات التي كانت، أحيانا، تحتدم بين رجال الفقه، وتسكن في كثير من الاحايين، في صهر المسائل الفقهية، والجد في تحريرها وتصفيتها، ثم تصنيفها، حتى أخذ العلم يتركز، وتتسع دائرته، وتكثر جزئياته، وأصبح أكثر العلماء لا تتسع قدرتهم للاحاطة بها، فغلب على كل طائفة منهم ميل خاص الى بعض المسائل التي اشتهر بها... فمنهم من غلبت عليه نزعة الحديث، ومنهم من غلبت عليه نزعة الفقه، وهكذا الى بقية العلوم الأخرى..

وبوضوح هذه النزعات، على توالي الزمان، اخذت المسائل المتشابهة يتجمع بعضها حول بعض، فتميزت الابواب والعلوم نوعا ما..

وهكذا وجد العلماء مسائل الفقه مبعثرة، وقضاياه مكدسة، واتجهت أفكارهم الى فرزها وتنظيمها والتاليف

---

1) رجال الفكر والدعوة في الاسلام.. ص : 84.

2) أبجد العلوم، او الوشي المرقوم، في بيان أحوال العلوم لصديق حسن القنوجي (ت 1889 م - 1307 هـ) ج : 1 / ص 178.

فيها.. فادخلوا عليها التنظيم شيئا فشيئا. يجمعون الأشياء والنظائر في موضع واحد. ويبونون لها بابا خاصا. ثم جاء من بعدهم. فزاد في ذلك التنظيم حتى كان من ذلك تاليف الكتب التي تتضمن ما أثر عن المفسرين والمحدثين الأول من تفسيرات وشروح...

وقد رووا أن ابراهيم النخعي جمع فتاوي الشيوخ واراءهم ومبادئهم القانونية في كتاب. وان حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة. كان له مجموعة منها. وقد وصل الينا كتاب الآثار لمحمد بن الحسن. جمع فيه آثار هؤلاء العلماء واراءهم. وأقدم ما وصل إلينا في الفقه العراقي كتاب الخراج لأبي يوسف ثم كتاب محمد بن الحسن. كما وصل الينا كتاب الأم للشافعي...

ويقال أيضا أن فتاوي الزهري كانت تقع في ثلاثة كتب. وفتاوي الحسن البصري كانت تقع في عشرة أسفار. وأقدم ما عثر عليه من هذه الكتب مخطوطة تسمى «مجموعة زيد بن علي» (ت 122 هـ) وقد نشرها المستشرق الايطالي أ. جريفيني سنة 1911.

وقد خلف الامام مالك رضي الله عنه كتاب الموطأ. وقيل انه أول كتاب ألف في الإسلام. كما في كشف الظنون. وهو كتاب حفيل. اشتهر أنه كتاب حديث. ولكنه في الحقيقة كتاب فقه. وان ملىء حديثا. فلم يكن غرضه أن يجمع فيه الأحاديث المعروفة في عهده. والتي صحت عنده. وانما غرضه الاتيان بالتشريع مستدلا عليه بالحديث... حيث خطا فيه خطوة جديدة في تقنين الحديث فجمع الأحاديث المتعلقة بموضوع واحد. في باب واحد.

وهكذا دونت في هذا العصر كتب الفقه. واصطبغت صبغة قانونية بعد أن كانت صبغتها قبل صبغة حديث وظهر فيها أثر الخلاف في المذاهب وأثر الجدال. واصطبغت الكتب. وخاصة كتب العراق. بالمنطق...

وفي اخر الترمذي مانصه : «أنا وجدنا غير واحد من الائمة تكلفوا من التصنيف ما لم يسبقوا اليه. منهم هشام بن حسان. وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج. وسعيد بن أبي عروبة. ومالك بن أنس وحماد بن سلمة. وعبد الله بن المبارك. ويحيى بن زكريا ابن أبي زائدة. ووكيع ابن الجراح. وعبد الرحمن بن مهدي وغيرهم من أهل الفضل والعلم. صنفوا. فجعل الله ذلك منفعته كثيرة.. فنرجو لهم بذلك الثواب الجزيل. مما به المسلمين. فهم القدوة فيما صنفوا..» (3).

وممن صنفوا وألفوا في الفقه في عصر مالك عبد الملك بن جريج بمكة. والأوزاعي بالشام. وسفيان الثوري بالكوفة. وحماد بن سلمة بالبصرة. وهشيم بواسط. ومعمر باليمن. وجرير بن عبد الحميد بالري. وكل هؤلاء في عصر واحد. فلا يدرى أيهم أسبق...

ويقال عن عبد الله بن المبارك أنه : «دون العلم في الأبواب والفقه» (4) وعن أبي ثور أنه «صنف الكتب وفرع السنن (5).

ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النسج على منوالهم. وقال أبو طالب في «القوت» : أن هذه الكتب حادثة بعد سنة عشرين أو ثلاثين ومائة.. ويقال : أول من صنف ابن جريج بمكة في الآثار وحروف من التفسير. ثم معمر باليمن. ثم الموطأ بالمدينة. ثم ابن عيينة. الجامع والتفسير في أحرف من علم القرآن. وفي الأحاديث المتفرقة..

وممن دون في هذا العصر الامام أبو حنيفة النعمان الذي اشتهر بقدرته ألف كتابه «الفقه الأكبر» الذي سبق به الامام مالك. لكن اختلف الفقهاء هل تصح نسبته إليه. أو هو من تأليف أصحابه. ولم يقع له من الإقبال. وتواتر الرواية. والقبول ما وقع لموطأ الامام مالك...

وقد ألف أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة في الفقه كتبا عديدة. فقد روى ابن النديم في «فهرسته» (6) أن أبا يوسف ألف كتاب الصلاة - كتاب الزكاة - كتاب الصيام - كتاب الفرائض - كتاب البيوع - كتاب الحدود - كتاب الوكالة - كتاب الوصايا...

---

3) «صحيح الترمذي». للحافظ ابي عبد الله محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ص : 332 - 333 / ج : 2

4) «تذكرة الحفاظ» للحافظ شمس الدين محمد بن احمد الذهبي

5) نفس المصدر. ج : 2 / 95.

6) نفس المصدر. ص 203. ص : 250 / ج : 1.

كما روى ابن النديم، أيضا في «فهرسته» (7) أن محمد ابن الحسن ألف كتابا في «أصول الفقه»..

وكان ابراهيم النخعي جمع فتاوى الشيوخ وآراءهم ومبادئهم القانونية في «كتاب».

وأن حماد ابن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة، كان له مجموعة منها، قد وصل إلينا «كتاب الآثار» لمحمد بن الحسن جمع فيه آثار هؤلاء العلماء وآراءهم..

قال في الازهار الطيبة النشر : «المذاهب المقلدة أربابها المدونة كتبها بعد الصحابة ثلاثة عشر مذهبا على ما تحصل من كلام عياض في باب ترجيح مذهب مالك من المدارك، والسخاوي في شرح الفية العراقي، والسيوطي في فتاويه بزيادة ونقصان بعضهم على بعض (8)، وانظر «تدوين العلم» للخطيب البغدادي، والمقريزي في الخطط، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ومقدمة وشروح الامامين البخاري ومسلم، «وقوت القلوب» للمكي، و «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» لمصطفى عبد الرزاق، و «فجر الإسلام»، والجزء الثاني من الظهر للمرحوم الأستاذ أحمد أمين.

ويلاحظ بأن علماء هذا القرن كانوا على الغالب علماء بما في الكتب، حرثوها حرثا، وقتلوها تنقيبا وبحثا، ولكن وقف أكثرهم عندها، ولم يجاوزها، ولم يفكر أن يزيد عليها، ولقد بدأت هذه العلوم كما تبدأ الأنهار الكبار، ينابيع كثيرة تخرج من السواقي الصغيرة، ثم تتجمع في الجداول، ثم تتجمع الجداول، فيكون النهر.. ولو رسمنا خطا بيانيا لهذه العلوم لوجدناه يرتفع ويعلو.. حتى اذا جاء القرن الرابع الهجري بلغ القمة أو كاد، ثم يستوي لا يصعد الا قليلا، الى القرن الثامن، يصدق هذا الحكم على النحو والبلاغة وعلوم العربية، كما يصدق على الفقه والحديث وعلوم الدين، أو كالمحصولات الزراعية تأتي من المزارع، ثم تتجمع في الأسواق، ثم تجفف أو تحفظ، ثم توضع في المستودعات الكبار.. لقد كان القرن التاسع عصر المستودعات تكدس فيها البضاعة، وهذه المستودعات هي دوائر المعارف، (المعلمات.. الانسكلوبيدات).

في هذا القرن ألف «الاتقان» في علوم القرآن، و «المزهر» للسيوطي في علوم اللغة، وفيه أو قريب منه ألفت «نهاية الأرب» للنويري، و «صبح الاعشى» للقلقشندي، و «فتح الباري»، و «لسان العرب» وهذه المجموعات الكبار لم تؤلف في قرن واحد، ولكنها ألفت كلها بعدما وقف الابتكار، وانقطع التجديد، فصار الفقه رواية لا قوال الأئمة، لا استنباطا من كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم... (9).

يخلص مما سبق ان قوة الفقه في القرن الثاني للهجرة ازدادت قوة ورسوخا بدخوله في طور التدوين، وخروجه من طور التكوين، لما وجد في أهله من ألف وصنف، بعد ما كان عرضة للتلف... وكان هذا العصر زاهيا زاهرا متحركا بسادات كبار، أساطين الإجتهاد، وقواعد المعرفة والفقه، ومرتكزات الفهم النير، والعقل الناضج...

وان جل أحكام الوقف الإسلامي، إنما هي إجتهادية، تتجلى فيها أصول مذاهب الفقهاء، وعمق تصورهم، وسعة مداركهم واطلاعهم، وقوة الملكة التشريعية عندهم...

وكان فضل البداية في تقعيد قواعده، وتدوين شروطه ومسائله، وتوضيح أحكامه ومراميه، يعود لفقهاء القرن الثاني الهجري، الذي بلغ فيه الفقه الإسلامي درجة من الروعة والنضج ما بلغه التشريع الحديث في أزهى مواطنه اليوم، ومع فارق أن هذا الأخير يعتمد على إجتهادات عقلانية، ونزوات بشرية، وينبثق - أحيانا - من جذور شيطانية، أما ذاك.. فهو يقوم على أصول من الوحي الإلاهي الأعلى، وينطلق من مجراه الممهد بين حصانات من هدي السماء...

كما أنه لا ينكر ما كان لجهود الفقهاء الذين جاءوا من بعدهم في شتى العصور، ومختلف الحقب من جهد موصول وهمة عالية، وجد رائع، ونظر ثاقب، وتجربة رائدة

7) نفس المصدر : ص 204.

8) «الفكر السامي، في تاريخ الفقه الإسلامي»، للعلامة محمد الحجوي، ص 118 / 2؛ «قوت القلوب» : متن في الفقه لأبي الفتح عثمان الدمشقي الحنفي نزيل المدينة المنورة (ت 1214 هـ)

9) «مذكرات على الطنطاوي»، الحلقة : 54 الشرق الأوسط، ع : 1477 / 14 / 12 / 1982.

في تطوير أحكامه الإجتهادية التي بنيت في الأصل على قواعد فقهية عامة، وعلى اعراف الناس وعاداتهم وتعاملهم..

فالفقهاء والمؤلفون جمعوا المسائل التي تتعلق بموضوع واحد في باب بعينه، ولكنهم في عرضهم قد عرضوا الجزئيات دون القواعد غالبا ويرجع سبب سير الفقه في النظر إلى الجزئيات أن الفقه والتدوين فيه بدأ بجمع مانقل من الحديث عن رسول الله، وفتاوي الصحابة والتابعين، ثم تبويب كل جمع في الجزئيات في باب، فكان طبيعيا أن يكون الباب الفقهي حكاية عن فروع وردت، ثم كان عبارة عما يراه المجتهد في هذه المسائل حسب أصوله، وحسب مشايخة وحسب مسلكه في الإجتهاد (10).

وقد استوت سوق الوقف، واستد فرعه، وبسقت أغصانه في القرن الثالث الهجري وما بعده إلى القرون الأخيرة.. وأصبح للوقف كيان في أبواب الفقه، ومقام مستقل له مجال للبحث، وميدان خاص يبحث فيه على حدة من طرف الفقهاء والولاة والنظار...

قال أبو عمر الكندي في كتابه «قضاة مصر» : قدم هرون ابن عبد الله الزهري المكي مصر في رمضان سنة سبع عشرة ومائتين من قبل المامون، وجلس في المسجد الجامع، ولم يبق شيئا من أمور القضاء إلا شاهده بنفسه، وحضره مع أهل مصر، وتقصى الأحباس وأموال اليتامى، ووقف على وجوهها بنفسه، وحاسب عليها، وضرب رجلا على حال رآه منه في مال يتيم كان ينظر له، وأطافه.. (11).

وروى القاضي اسماعيل في «المبسوط» عن أبي الحكم المعروف بالبربري مسائل من الأحباس... ثم سأل القاضي ابن اكتم، عبد الملك ابن الماجشون، فاجابه فيها (12).

ولمحمد ابن ابراهيم بن زياد الأسكندراني المعروف بابن المواز : كتاب : «الوقوف» وأن الكتاب رواه بكماله قوم من أهل تاد مكة (13).

قال القاضي عياض رحمه الله في ترجمة عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة، أن العلماء يفضلونه في علم الأحباس.. قال القاضي اسماعيل : «عبد الملك عالم بقول مالك في الوقوف...» (14).

---

10) «ضحى الإسلام» لأحمد أمين ص : 176 / ج : 2.

11) «المدارك» للقاضي عياض، ج : 3 / 354.

12) «المدارك». ج : 4 / 150.

13) «المدارك» : ج : 4 / 169، وتاد مكة بمالي، ذكرها البكري في المسالك والممالك / باريس 1965، ص 182،

L'Hote, sur l'emplacement de la ville de Tademekka, ancienne capitale des Berbères Soudanais (Notes Afr. Nº 51, Juillet 1951).

وقد نقد ابو عبد الله محمد بن محمد العبدري الحاحي في رحلته بعض المؤرخين والرحالة، فقال : «ومازال أهل الاتقان يقعون في مثل هذا ...الا ترى إلى أبي عبيد البكري مع تحققه وفرط اعتنائه، ونبل تواليفه، قد اودع في مسالكه من الغلط في صفات البلدان وتحديدها، وترجمتها مالا غاية وراءه، فمن ذلك أنه ذكر من بلاد الصحراء بلدة يقال لها : «تادمكة»، وترجمها فقال : معنى «تاد الهياة» أي أنها على هياة مكة.. وليس معنى «تاد الهياة» كما ذكر، ولا لهينة إسم في لسانهم البتة، وإنما معنى تاد : هذه، وهي من أسماء الإشارة عندهم، يقولون لهذا : «واذ» ولهذين وهؤلاء : «ويد»، ولهذه : «تاد» ولهاتين وهؤلاء : «تيد»، وليس للمثنى عندهم عبارة سوى عبارة الجمع، إلا في ألفاظ العدد، فمعنى تادمكة، هذه مكة أي مشبهتها : (رحلة العبدري ص 158 ـ 159، تحقيق الأستاذ محمد الفاسي) هكذا ذكر العبدري في رحلته أن ببلاد الصحراء مدينة يقال لها : تادمكة، أي هذه مكة أي مشبهتها، كما وصف المدينة المنورة بالأوصاف التي قدمنا، وقد تبع ياقوت على هذا التصحيف كما قدمنا صاحب القاموس في ذلك.. وقد كان صاحب كتاب «إظهار الكمال» نبه على غلط صاحب القاموس في ذلك، والعذر لهما أنهما ليسا من أهل البلاد، وذلك غير مستنكر، فان من لم يشاهد الشيء يصعب عليه وصفه، فقلما يسلم فيه من الغلط، كما قال العبدري، والعجب من محشي القاموس العلامة ابن الطيب الشرقي الذي يحققه أخونا الأستاذ الراجي الهاشمي التهامي حيث سكت على ذلك في حاشيته، مع أنه مغربي، وتبعه على سكوته تلميذه الشيخ مرتضى (الاعلام، بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام ص : 15 / 1).

14) «ترتيب المدارك» : ص 139 / ج : 3.

أن اعتناء رجال الشرع بالاوقاف قد بلغ شاوا بعيدا إلى أن جعل قضاياها على اختلاف أنواعها، فما صادقوا عليه، اعتمادا على النصوص الشرعية مضى، والا، فلا، وقصروا فصل قضاياها على خصوص القضاة الشرعيين دون غيرهم من بقية الحكام حتى قال صاحب المهذب : «والنظر في أوقاف المساجد والمدارس والزوايا من أهم ما ينظر فيه القضاة، وذلك رأس عمارتها، واهمالها داعية للخراب..»

وقال المشيطي : «وللقاضي تقديم صاحب الأحباس للنظر في حبوسات جامع حضرتها ومساجدها، واصلاح ما وهى منها، وكرائها، وقبض غلاتها، ويصرفه في مصالحها، وذلك من الأمور التي لا بد للقاضي منها» ثم أن اعتناء الفقه بشروط المحبس، ووجوب تنفيذ رغباته في أوجه البر لا يقل عن اعتنائه بمطلق القضايا الأخرى، فقد نقل الفقهاء أن ألفاظ المحبسين كألفاظ الشرع، في وجوب العمل بمقتضاها، وأن شروطهم تتبع إن لم يكن بها مانع، وأنه يجب صرف ريع الأوقاف في الأوجه التي عينوها بواسطة نظارهم المعينين من طرفهم، أو القضاة أن اهملت، وكان مستحقوها غير معينين.. كما هو مبسوط في قواعد الفقه...

وقد كثرت الكتب الخاصة بالأوقاف، ولا سيما بعد القرن الرابع الهجري، واقبل عدة علماء يصنفون في هذا الباب نظرا لظروف سياسية واجتماعية واقتصادية، وكان لاضطراب أموال الدولة العباسية السياسية والاقتصادية والإدارية من مطالع القرن الثالث الهجري، وانتشار المظالم، وعدم احترام الحكام للملكيات الخاصة كان لكل أولئك أثره القوي في تشجيع حركة الأوقاف على المرافق العامة بين كبار الملاك، وتشجيع حركة التأليف حولها... فقد بلغ من استهتار الحكومات بحقوق التملك ان «عمت المصادرة سائر رجال الحكومة حتى الرعية، وأصبحت بتوالي الأيام المصدر الرئيسي لتحصيل المال، والعامل يصادر الرعية، والوزير يصادر العمال، والخليفة يصادر الوزراء، ويصادر الناس على إختلاف طبقاتهم، حتى أنشأوا للمصادرة ديوانا خاصا مثل سائر دواوين الحكومة» (15) وكما أصبح هذا «العدوان» الحكومي قاعدة من قواعد الإدارة وعملا مشروعا في نظر مقترفيه، فلم يلبث أن انتقلت شروره وويلاته الى خارج العراق في الولايات، وهذا أحمد بن طولون يجعل من المصادرة موردا من موارده المالية، ويفرض الاتاوات على كبار الأغنياء في دولته (16) كما شجعت منازعات المماليك في مصر على كثرة حوادث المصادرة والاعتداء على حقوق الملكية الخاصة (17).

أما مصادرة العمال، فاننا نعرف من مصدر جدير بالثقة أن الاخشيد، صاحب مصر، وكان رجلا ماليا ماهرا، هو أول من نكب عماله وكتابه مرارا (18).

فهو مؤسس نظام مصادرة العمال، وفرض الاموال عليهم، وكان العامل اذا صودر، وثقل عليه عبء المصادرة، تبرع له أصحابه، وجمعوا مالا للتخفيف عنه (19).

وقد صادر الحاكم بأمر الله أحد أصحاب الدواوين، وقطع يديه عام 404 هـ 1013 م ثم أكمل بقية تصرفاته العزيبة، فقلده ديوان النفقات عام 418 هـ 1027 م (20).

ومعلوم أن الحاكمين من المماليك ولا سيما المتأخرون منهم كانوا كل شيء في الدولة، وكان اتباعهم من الأمراء ورؤساء الجند لا يتقيدون بدستور يلزم ويلجم، اذ يكفي أن يكون الأمير موضع الرضا من السلطان حتى يبطش ويقهر، ويفرض الاتاوة كما يشاء، بل ان نهب المتاجر، وسلب الأموال، وتفتيش منازل من يتوهم لديهم الثراء للاستيلاء على كل ما يجدونه، من مدخرات، كان ذلك يمضي طبيعيا دون اعتراض، وكأنه أمر مشروع !! ودون اعتراض من السلطان، ومن بيدهم الأمر، اذ أنهم في أكثر الأمور كانوا محرضين موجهين، فكيف يحرصون بعد ذلك على احقاق الحق، ونصرة المظلومين

15) «الادارة الاسلامية»، لمحمد كرد علي، ص 169.

16) احمد يوسف : المكافأة، ص 8، (قصة هارون بن ملبول التاجر الذي صادر ابن طولون امواله).

17) تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى، محمد عبد الرحيم غنيمة ص 243، ط : معهد مولاي الحسن بتطوان.

18) المغرب لابن سعيد : ص 39.

19) كتاب الوزراء ص : 306 ـ 307 ـ 308.

20) الحضارة الاسلامية لادم ميتز ص : 164 / 1.

وقد تمتزج الرغبة في الخير والإصلاح بالرغبة السياسية كما فعل نظام الملك، ونور الدين، وصلاح الدين من وقف الأحباس على المدارس لنصرة المذاهب والعقائد السنية، ومحاربة التشيع.. وكذلك كان الفاطميون إذا اختلطت لديهم عاطفة الخير بفكرة العمل على نشر دعوتهم على نحو ما صنع العزيز والحاكم في أوقافهما على الأزهر ودار العلم (21). وقد ذهب الأستاذ «بندلي جوزي» الى اعتبار الحركة الإسماعيلية حركة إشتراكية من أغراضها توزيع الأراضي على المحتاجين مجانا (22). وتحدث الأستاذ كارل بروكلمان عن المالية العباسية. فقال: «وكان الاثرياء كثيرا ما يقفون ممتلكاتهم للفقراء، وللدفاع عن ثغور الدولة وتخومها، وللمدينتين المقدستين. وما الى هذا كله من أبواب البر. وبذلك يتخلصون من أداء الضريبة عن هذه الممتلكات ويقونها غائلة المصادرة... وكان الواقف يحتفظ لنفسه بإدارة ما وقفه من ممتلكات حتى إذا توفي، انتهت الإدارة الى أكبر أبنائه وهكذا.. ولقد نشأت في مصر عن هذه الأوقاف أوقاف ذرية صحيحة» (23) وأصبح نظام الوقف في العصر المملوكي بمصر سنادا للنظام الإقتصادي الذي انتهى في مصر وسورية الى غاية من الغنى تكاد تكون خيالية. «ذلك بأن كبار المثرين السوريين والمصريين كانوا كزملائهم العراقيين من يقفون ممتلكاتهم الضخمة على وجوه البر، وخدمة العلم وصيانته لها من المصادرة، فتدر على الأقل دخلا ما، للواقف وذريته» (24). وفي هذه الظروف المضطربة القلقة المحرومة من الإستقرار والأمن على الحقوق الفردية، وجد أصحاب الثروات في وقف أملاكهم على المرافق الخيرية العامة، واقيا لها من مخاطر العدوان الحكومي والاستصفاء، فيجنوا من وراء ذلك منافع ثلاث حماية موارد رزقهم من أطماع الطامعين، بأن يجعلوا لأنفسهم ولذرياتهم نصيبا من التنظر عليها، وإكتساب الثواب عند الله، والحمد عند الناس بمساهمتهم في أعمال البر والخير. وهذا ما أشار اليه أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته بقوله: «.... إن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة، يجعلون فيها شركا لولدهم ينظر عليها، أو يصيب منها مع ما فيهم غالبا من الجنوح الى الخير، والتماس الأجور في المقاصد والأفعال، فكثرت الأوقاف لذلك، وعظمت الغلات والفوائد، وكثر طالب العلم ومعلمه، بكثرة جرايتهم منها، وارتحل اليها الناس في طلب العلم من المغرب والعراق، ونفقت بها أسواق العلوم، وزخرت بحارها» (25).

ذلك هو حال كثرة الوقوف التي بدت خلال هذه العصور من الواقفين الذي أصبحوا يجدون في هذه المؤسسة ملجأ وملاذا من الحاكمين القاسطين، وبالتالي فقد استتبع ذلك كثره التأليف في هذا الموضوع، وقد اهتم علماؤنا الأقدمون والمحدثون بالدراسات الفقهية التي لها وشيج الإتصال بأحكام الوقف، وفي جل الكتب الفقهية والحديثية عدة موضوعات لها إتصال عميق وواسع بالوقف.. فالإمام البخاري يعقد في صحيحه بابا للوقف، والإمام مالك يعقد هو الآخر في آخر كتابه «الموطا» كتابا للترغيب في الصدقة، كما اهتم بهذا الباب الحافظ بن حجر العسقلاني في كتابه «بلوغ المرام» حيث عقد بابا للوقف.. وللشيخ الإمام هلال بن يحيى البصري الحنفي (ت 245 هـ) كتاب «أحكام الوقف» (26)، «وإجارة الأوقاف، زيادة على المدة المعروفة» للشيخ برهان الدين إبراهيم بن علي بن عبد الحق الدمشقي الحنفي المصري (ت 744 هـ) (27)، «وتحقيق الكلام، فما لاجارة متولي الوقف المنحصر استحقاقه فيه إذا مات في أثناء المدة من الأحكام» لابن الحمصي محمد بن علي بن منصور الحصفكي الشافعي أبي اللطف (ت 858 هـ) (28)، وكذلك «تلخيص الوقوف، على الموقوف» لسراج الدين عمر بن علي ابن الملقن

21) المصدر السابق: ص 244.

22) «تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام»: ص: 109 / ج: 1.

23) «تاريخ الشعوب الاسلامية» ج: 2 / ص: 80 / الترجمة العربية.

24) بروكلمان. ص: 249.

25) مقدمة ابن خلدون: ص: 991 / 3.

26) كشف الظنون ص: 21 / 1.

27) هدية العارفين. ج: 5 / ص: 15.

28) ذيل كشف الظنون. ص: 267 / 3.

الشافعي (ت 804 هـ) (29). «ورسالة الوقف» للشيخ علي بن غانم المقدسي (30). «وكتاب الانصاف، في تمييز الأوقاف» لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي. (ت 911 هـ) (31). و «تسهيل الوقوف، على غوامض أحكام الوقوف» لزين الدين عبد الرؤوف المناوي الشافعي المصري ألفه عام 999 هـ (32). و «كتاب الوقف» للمولى يوسف بن حسين الكرماستي المفتي (33) الرومي الحنفي من قضاة أسطنبول (ت 906 هـ) مختصر. وهو مشتمل على اثنين وأربعين بابا ومسائل. وكتاب لحسن بن زياد في الموضوع (34). و «التأييدات العلية، للأوقاف المصرية». وهي رسالة للشيخ نجم الدين محمد بن أحمد الغيطين الشافعي (ت ، 984 ه) (35). ونجد كتابا آخر ألف في موضوع الوقف وهو متعلق بـ «وقف النقود، وجوازه». للمولى أبي السعود بن محمد العمادي المفتي (ت 982 هـ) (36) و «السيف الشهير، على من جوز إستبدال الوقف بالدراهم والدنانير» تأليف حنيف الدين بن عبد الرحمن ابن عيسى بن مرشد العمري المكي الحنفي (ت 1067 هـ) (37).

و «القول المسدد، في الوقف المؤبد» لمحمد بن محمد الطرابلسي (38). وكتاب أبي بكر أحمد بن عمرو الشيباني الخصاف المروف «بأحكام الوقف» وقد اختصره عبد الله بن حسين الناصحي (39). كما ألف عالم الحرمين الشيخ يحيى بن أحمد الرعيني الحطاب المغربي الأصل، المكي المولد كتابا بعنوان ، «شرح ألفاظ الواقفين، والقسم على المستحقين» جمع فيه أشتات ألفاظ الوقفين. وما قيل فيها من فتاوي العلماء المتقدمين والمتأخرين. لما تغيرت الأوقاف عن صبغتها السلفية، وتنوعت على مشارب شتى غالبها لا يخرج عن قصد المنفعة الشخصية. فاختلفت عبارات الواقفين. جاهلين أو متجاهلين. فنجم عن ذلك كثرة العبارات. واختلف الناظرون فيها اختلافا كثيرا يعسر عنده الوفاق. وسارت رسوم الأوقاف نهبة للمقسم. والموقوف عليهم ما بين منجد ومتهم. وممن ألف في الوقف. الشيخ محي الدين محمد بن سليمان الكافيجي (ت 879 هـ) «له ، رسالة في طبقات البطون. لبيان أحكام الوقف على أولاد الأولاد (40). وتحقيق الأعلام الواقفين. على مفاد عبارات الواقفين» لابن الاخلاص حسن بن عمار الشرنبالي الحنفي (41). «وتحقيق السؤدد. بإشتراط الريع والسكنى في الوقف للولد» تأليف حسن بن عمار الشرنبالي الحنفي (42). «وحسام الحكام المحقين. لصد البغاة المعتدين عن أوقاف المسلمين» لابن الخلاص حسن بن عمار الشرنبالي المصري الحنفي (43). «وتيسير الوقوف. على غوامض أحكام الوقوف» لزين الدين عبد الرؤوف المناوي (44). وكتاب ، البرهان في أوقاف السلطان» للشيخ محمد حجازي ابن محمد بن عبد الله الشهير بالواعظ القلقشندي المصري الشافعي (ت 1035 هـ) (45). «وغاية البيان. في أن وقف الاثنين وقف لاوقفان» لابن بدين محمد أمين الدمشقي الحنفي المفتي العلامة الشهير بابن عابدين (ت 1252 هـ)

---

29) كشف الظنون ص : 479 / 1. هدية العارفين : ص : 15 / 5.

30) كشف الظنون : ص : 899 / ج : 1.

31) كشف الظنون ص : 182 / 1. هدية العارفين ص : 536 / 5.

32) كشف الظنون : ص : 408 / 1. هدية العارفين للبغدادي ص : 511 / 5.قال المحبي في «خلاصة الأثر» : «وهو كتاب لم يسبق الى مثله» ص : 414 / 2.

33) هدية العارفين ص : 563 / 6.

34) الكشف : 1470 / 2.

35) كشف الظنون ص : 336 / 1. هدية العارفين : 252 / ج : 6.

36) كشف الظنون : ص : 898 / 1.

37) ايضاح المكنون : 35 / 4. هدية العارفين : ص : 339 / 5.«خلاصة الأثر» للمحبي ص : 126 / 2.

38) ذيل كشف الظنون ص : 254 / 4.

39) الكشف : 1400 / 2.

40) كشف الظنون : ص : 876 / ج : 1. هدية العارفين ص : 208 / 6.

41) ذيل كشف الظنون. ص : 264 / 3.

42) ذيل كشف الظنون. ص : 265 / 3.

43) ذيل كشف الظنون. ص : 402 / 3.

44) المصدر السابق. ص : 344 / 3. مخطوط في مكتبة الأزهر تحت رقم : 709 / 5581.

45) المصدر السابق ص : 179 / 3. هدية العارفين. ص : 274 / 6. «وايقاظ العارفين على اهم اوقاف السلاطين» لمرعى بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن يوسف الكرمي المقدسي الفقيه الحنبلي (ت 1033 هـ) هدية العارفين : ص : 426 / 6.

(46). «وغاية المطلب، في اشتراط الواقف عدد النصيب الى أهل الدرجة الاقرب فالاقرب» لابن عابدين محمد أمين الدمشقي (47) «وفتح باب الألطاف، بجدول طبقات مستحقي الأوقاف» للشرنبالي حسن بن عمار (48)، «والطوالع المشرقة، في الوقف على طبقة بعد طبقة» لتقي الدين السبكي الفقيه الشافعي، (ت 756 هـ) (49).

و «النقول المشرقة، في حكم الوقف على طبقة بعد طبقة» لتقي الدين السبكي الفقيه الشافعي (50). «وكتاب الوقوف» لابن الشجري البغدادي القاضي الحنفي (ت 350 هـ) (51). ونجد كتابا لجلال الدين السيوطي بعنوان: «الوجه الناضر، فيما يقبضه الناظر في الوقف» (52). «واختلاف آراء المحققين، في رجوع الناظر على المستحقين» للعماد المفتي الدمشقي الحنفي (ت 1171 هـ) (53) وكتاب «الوقوف» للكواشي الضرير الموصلي الشافعي (ت 680 هـ) (54). «وأحكام الوقف» للخصاف الحنفي البغدادي (ت 261 هـ) (55). «ومختصر أحكام الوقف» لعبد الله بن الحسين الناصحي الحنفي نزيل بخارى (ت 447 هـ) (56). «والاسعاف، في أحكام الأوقاف» لعلي جلبي بن أمر الله المعروف بابن الحنائي الرومي القاضي (ت 979 هـ) (57). «ورسالة في وقف النقود تتعلق ببعض أحكام الوقف» (58). «ورسالة في الوقوف» لمحمد ابن عبد الله التمرتاشي الغزي الحنفي (ت 1004 هـ) (59). «واتحاف الاحلاف، في أحكام الأوقاف» لعمر حلمي بن عبد الرحمن القريني آبادي الرومي الحنفي، رئيس محكمة التمييز في دائرة العدلية العثمانية (ت 1307 هـ) (60). «والانصاف، في تمييز الأوقاف» نسبه السيوطي لنفسه في حسن المحاضرة، ونسبه السيد حاجي خليفة في الكشف، وجميل العظم في العقود. والبغدادي في هدية العارفين. وهو رسالة يقوم مبناها على سؤال هذا نصه: «أمير وقف خانقاه، ورتب بها شيخا وصوفية، وجعل لهم دراهم وزيتا وصابونا وخبزا ولحما
ولحما. فضاق الوقف، فهل يقدم الشيخ على الصوفية؟ أو يصرف بينهم بالمحاصة؟ وهل يقتصر على صنف من الأصناف التي عينها الواقف، ويترك الباقي؟ أو يأخذون من جميع الأصناف التي عينها الواقف بالمحاصة؟ يوجد مخطوطا بدار الكتب المصرية، وهو أحد الرسائل التي طبعت ضمن «الحاوي للفتاوي (93 ـ 94).» وتنبيه الواقف، على شرط الواقف نسبه السيوطي لنفسه في حسن المحاضرة. «والقول المشيد، في وقف المؤيد» نسبه الى السيوطي حاجي خليفة في الكشف، وجميل العظم في عقود الجوهر، والبغدادي في هدية العارفين. وقد جاء في أوله: «وقع السؤال عن وقف الملك المؤيد شيخ، وذلك اثر وقف، وقال فيه: مهما فضل بعد المصارف يصرف لأولاد الصلب. وقد حرر السيوطي المسألة تحريرا وافيا في هذا التويلف الذي سماه «بالقول المشيد، في وقف المؤيد» وهو من التويلفات التي طبعت ضمن كتاب: «الحاوي للفتاوي».

بل اننا نجد في جل كتب الفقه، وفي مختلف المذاهب أحكاما ونوازل تتعلق بأحكام الوقف الى جانب الأبواب الأخرى. بل أن بعض الفقهاء يعقد كتابا مستقلا بباب الوقف، كما هو الشأن في: «المعيار المعرب، والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب» لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريشي (ت 814 هـ). فقد أفرد لباب الوقف جزءا كاملا من كتابه هو الجزء السابع الذي استغرق نحوا من نيف وخمسمائة صفحة... أو نجد منظومة مشتملة على أحكام ونوازل الوقف كما نجده في «العمل

46) الذيل: ص: 138 / 4 هدية العارفين: 368 / 6.
47) الذيل: 141 / 4. هدية العارفين: ص: 368 / 6.
48) الذيل: 159 / 4.
49) هدية العارفين. ص: 722 / 5. «طبقات الشافعية الكبرى» ص: 214 / 6.
50) هدية العارفين ص: 722 / 5.
51) هدية العارفين ص: 64 / 5.
52) هدية العارفين ص: 544 / 5.
53) هدية العارفين ص: 261 / 5.
54) هدية العارفين ص: 98 / 5.
55) هدية العارفين ص: 49 / 5. ط: ديوان عموم الاوقاف المصرية عام 1322 هـ 1922 م الطبعة الأولى.
56) هدية العارفين: ص: 452 / 5.
57) هدية العارفين: ص: 748 / 5. ولبرهان الدين أحمد بن ابراهيم بن موسى بن أبي بكر بن الشيخ علي الطرابلسي (ت 922 هـ) كتاب: «الاسعاف في أحكام الأوقاف» المطبعة الكبرى المصرية: 1292 هـ.
58) هدية العارفين: ص: 748 / 5.
59) هدية العارفين: ص: 262 / 6.
60) المصدر السابق: ص: 802 / 5.

الفاسي». «والعمل المطلق» وشرحهما. وكما فعل ابن تيمية في فتاويه. حيث نشر في هذا المجموع في الجزء «الواحد والثلاثين» من الطبعة الأخيرة للفتاوي التي طبعت بأمر من جلالة الملك خالد رحمه الله. وعلى نفقته الخاصة. كتابا. أيضا. في أحكام الوقف. وقد وجد هذا الجزء محمد بن عبد الرحمن بن قاسم أستاذ في معهد امام الدعوة بالرياض لما كلفه والده بالذهاب الى الشام. فاتصل بالمكاتب الأهلية بدمشق. فوجد عند الشيخ حسن الشطي كتابين في الوقف ضمن مجاميع لشيخ الإسلام وغيره (61).

والوقف لم يكن قاصرا وخاصا بالدول العربية والإسلامية وحدها. فقد اهتم به مفكرون خارج الوطن العربي. والحظيرة الإسلامية. فراحوا يبحثون ويدققون حيث قدموا للمكتبة اقدم الوثائق المخطوطة من الوقف ودور الوقف. ولنكتف بما كتبه الدكتور حسن كلشي المعروف بثقافته وتضلعه في العلوم الإسلامية في المحيط البلقاني. والذي يعد مرجعا في شئون الحركة الإسلامية في البلقان. ومن أبرز علماء دول أوروبا الشرقية في مجال الاستشراق و «التركولوجي» أي الثقافة التركية فقد ألف كتابا (62). تناول فيه مسألة الوقف والوقفيات. وهي مسألة مهمة مانة تمنح الكتاب اعتبارا خاصا.. وقد دفعت هذه الدراسة الوقفية المؤلف الدكتور حسن كلشي الى ان يتوقف عن مسألة انتشار اللغة العربية في البلقان. فالعربية. كلغة للثقافة والحضارة الإسلامية. قد بدأ الإهتمام بها. ودراستها في البلقان مع بداية انتشار الإسلام. وعلى هذا. فمنذ بداية النصف الأول للقرن الخامس عشر بدأ تأسيس المدارس. حيث كانت المواد الأساسية يجري تعليمها بالعربية. وبقي حجم المدارس ينمو باستمرار حتى انه في نهاية القرن التاسع عشر. ووجدت أكثر من مائتي مدرسة داخل الأقاليم الحالية ليوغسلافيا..

وقد استعرض الدكتور حسن كلشي المؤلف. في الفصل الأول من كتابه بالصور والشروح أنواعا مختلفة أنواعها كتبت باللغة العربية. اذ أن الاتراك. جريا على عادة العرب. تركوا. مع تشييد كل مؤسسة. كتابة تخلدها. تتناول حسنات المشروع. وصاحب الوقف. وتاريخ تشييده..

ويرى المؤلف أن الوقفيات أكثر الوثائق العربية عددا وأهمية. ولهذه المجموعة افرد الفصل الثاني من كتابه لاستعراضها. وهذه الوقفيات كما يعرضها المؤلف هي الوثائق الرسمية المحمية التي تتناول تأسيس وقف ما. وهذه المجموعة يقسمها المؤلف ثلاثة أنواع : الكتابات الوقفية. الملاحظات الوقفية. النص الوقفي ذاته.

وكثرة النوع الأخير متميزة عن غيرها. لأنه كان محط عناية المتصرفين. أو أصحاب الوقف ذاته. أو أنه أعيد نسخه لدى تسجيل القضاة بسبب الخلافات التي كانت تنشب بين الورثة. ومما له أهمية تذكر. ما قام به صاحب الدراسة. في بداية هذا الفصل. من استعراض نقدي لطباعة هذه الوقفيات بين تركيا ويوغسلافيا. لما خالطهما من تسلسل الميول الذاتية للمحققين والناشرين.. ثم التفت المؤلف الى تناول مادته الأساسية وهي أقدم الوقفيات. وقد أضاف الى ترجمتها شروحا وتعليقات. تشتمل على معطيات مختلفة. فإضافة الى المشاريع الدينية والإجتماعية والثقافية. تذكر أيضا العديد من الطرق والحارات والحواضر السكنية. والمؤسسات المختلفة. وهذه المعطيات. على مايذكر المؤلف اضافة الى كونها تحل بشكل ما. كثيرا من المسائل التي تتعلق بالتاريخ السياسي والثقافي لبقعة جغرافية. هي يوغسلافيا الحالية. الا أنها. وبالنظر الى أهميتها ولغتها ومادتها وروحها وملاءمتها لثقافة عالمية. تتخطى الحدود المحلية لتدخل في الاستشراق بالمعنى الواسع. وفي الثقافة العربية والاسلامية بالمعنى الضيق.. (63).

وفي العصر الحاضر فقد أثرت المكتبة الإسلامية بعدة كتب في الوقف. ولعل أهمها كتاب : «أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية» لصديقنا الشاب الدكتور محمد عبيد عبد الله الكبيسي المدرس بجامعة بغداد. كلية الشريعة. وهو في جزءين. ومن أنفس ما يقرأ.. «والوقف في الإسلام» (64) «وفي نظام الأوقاف في الأندلس» كتاب للاستاذ لوفي بروفنسال (65). وهناك كتاب آخر بعنوان : «الوقف

61) انظر مقدمة مجموع الفتاوي لابن تيمية ج : 1.

62) «اقدم الوثائق الوقفية المكتوبة بالعربية في يوغسلافيا».

63) انظر مجلة : العربي ع : 210 / ص : 144 / س : 1976.

64) دائرة المعارف الاسلامية. 4 / 115 / 1162.

65) تاريخ 3 / 133.

والوصايا. ضربان من صدقة التطوع في الشريعة الإسلامية» لأحمد علي الخطيب (66). «وكتاب الوقف» للأستاذ عبد الوهاب خلاف، وكتاب «وقف القاضي عثمان بن المنجا» (67). «وكتاب أحكام الوقف» للأستاذ هلال بن يحيى بن مسلم (68). «وقانون الوقف الذري. مصادره الشرعية في لبنان» للأستاذ يكى زهدي (69). وللأستاذ محمد العريب كتاب بعنوان : «مجموعة القوانين : الوقف. الوصية. الميراث». ويوجد. أيضا. «كتاب للوقف» للأستاذ عزيز خايكن بعنوان : «قضاء المحاكم في مسائل الأوقاف». وهناك. أيضا. كتاب للأستاذ محمد زيد الابياني بعنوان : «مباحث الوقف». طبعة بطبعة وهبة 1924 ـ 1343 وللأستاذ ابراهيم بن موسى الحنفي كتاب : «الاسعاف. في أحكام الأوقاف» و «كتاب الوقف» للأستاذ عبد الجليل عشوب. وللشيخ أبي الفتح أحمد ابراهيم : «ملخص محاضرات الشريعة الإسلامية في الهبة والوصية» ويطالعنا كتاب أخر للأستاذ عزيز خانكي بعنوان : «الوقف والحكر والتقادم شرعا وقانونا» وهو بحث نشر بمجلة القانون والإقتصاد (70)وكتاب أخر في «الوقف» للأستاذ سليمان مرقس بعنوان : «حقوق الإمتياز. والحق في الحبس. وفقا للتقنين المدني الجديد» (71). «وقانون العدل والانصاف. للقضاء على مشكلات الأوقاف» للمرحوم عمر قدرى باشا. «وشرح قانون الوقف الجديد» للأستاذ محمد العيدروس نجم مدير دار التأليف والنشر بالدولة المصرية. «وقانون بأحكام الوقف» من تأليف ابراهيم حنفي مدير مكتبة وزارة العدل. و «قانون بأحكام الوقف» تأليف عبد الحميد فتوح حلاوة. وابراهيم صبري. «وأحكام الوقف» على ما عليه الآن بالمحاكم المصرية من مذهب الحنفية. و «قانون الوقف» تأليف عبد الوهاب خلاف أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق. و «أحكام الأوقاف» للأستاذ مصطفى الزرقاء. ونقرأ «بيان جمعية حراسة المسجد الأقصى. والأماكن الإسلامية المقدسة بالقدس» (72). ولأبي حفص عمر الفاسي (ت 1188 هـ) كتاب في الوقف بعنوان : «لواء النصر. في الرد على بعض أبناء العصر» (73). وللأستاذ : ابراهيم حنفي : «قانون بأحكام الوقف» الصادر بالقانون رقم 48 لعام 1964. وهناك مجموعة القانون رقم 36 لعام 1646 بشأن لائحة اجرآت وزارة الأوقاف من مجلس الأوقاف الأعلى. وكذلك «ادارة الأحباس التونسية» وهي كراسة شروط الانخزال في الأحباس. يليها قانون ادارة الأوقاف التونسية (74). وتوجد في المكتبة الوقفية. أيضا. أمر على ترتيب معاوضة الأحباس (75). وللبخاري المكي محمد بن عبد الباقي : «الطراز المنقوش في محاسن الحبوس» (76). وتأليف «في الوقف» للحطاب يحيى بن محمد بن محمد المالكي (ت 932 هـ) (77). و «الوقف . لابن زيدان في الاتحاف (78). «وتقاييد لأحمد القصري حول الأوقاف (79). وكراسي العلد المحبسة (80). «الأحباس في المغرب وأعمالها في خلال ثلاثين سنة مع ترجمتها للفرنسية» (81). والبيان المعرب لابن عذاري (82). «اسبانيا المسلمة» (83). «الموسوعة المغربية للإعلام البشرية» (84). «الحبس في عهد

---

66) ط . بغداد ـ 1968.

67) نشره وقدم له، وعلق عليه صلاح الدين المنجد. طبع بيروت عام 1949.

68) طبع بحيدر اباد ـ الهند ـ عام 1355 هـ.

69) طبع ببيروت عام 1964. وله أيضا : «الوقف في الشريعة والقانون» دار النهضة العربية بيروت 1388.

70) عدد : 7. السنة السادسة عام 1936.

71) الباب الرابع، وهو ملحق بكتابة التامنيات العينية.

72) طبع بمطبعة دار الإيتام الإسلامية ببيت المقدس.

73) رد فيه على فتاوي بعض معاصريه الذين أجازوا بيع العقارات الحبسية.

74) طبع بمطبعة الدولة التونسية عام 1306 هـ.

75) طبع بالمطبعة الرسمية عام 1898. بالجزء الأول.

76) خم : 1898. د (66. ورقة).

77) خم : 6821. وله رسالة في حكم بيع الأحباس. مخطوطة في المكتبة المصرية برقم 427 (فقه مالكي)

78) ص : 39 / 3.

79) خم : 5483.

80) نشر المثاني ج : 1 / ص 20 ـ 38.

81) ط : على الحروف بالرباط ص : 51.

82) ج : 2 / ص : 246.

83) ص : 71 ـ 84 ـ 166.

84) ج : 4 / عبد العزيز بنعبد الله

الموحدين» (85). النظام الحبسي في المغرب (86). ثم أننا نجد في الحوالات الحبسية التي تزخر بها وزارة الأوقاف ومكاتبها أو الخزانة العامة. ويمكن القول أنه لو طبعت الوثائق المتعلقة بالوقف كالحوالات وغيرها من المستندات في إطار علمي وتقني ونقدي من طرف موثقين خبراء، فإنه من الممكن أن يتوصل المرء الى كتب مفيدة حول التاريخ الإقتصادي وتاريخ التموين والتوطين والطوبوغرافيا التاريخية والإدارية والمالية. بل وحول إنتشار الإسلام في كثير من الاقطار.. (87).

وأننا لنجد أن مادة الوقف، كما استاثرت بها كتب ذات قيمة واعتبار. فإن هذه المادة، وجدت أيضا ساحة أخرى للدراسة الوقفية الإسلامية في مختلف المجلات الراقية قديما وحديثا. فقد نشر مقال بمجلة «المنار» (88)» بعنوان : «الوقف وأصح ماورد فيه، وأشهر أحكامه» كما نشر الشيخ عبد الحي الكتاني مقالا بعنوان : «الملاجيء الخيرية الإسلامية في الدولتين الموحدين والمرينية بالمغرب (89)» و «نظام المالية بالمغرب» فيه كلام عن الوقف (90). ونشر الأستاذ عزيز خانكي مقالا تحت عنوان : «الوقف والحكر والتفاهم شرعا وقانونا» (91). وللشيخ محمد أبو زهرة مقال، أيضا بعنوان : «الإستحقاق الواجب في قانون الوقف» (92). وقد نشر الأستاذ عبد الكريم غلاب مقالا بعنوان : «ثورة على الأوقاف» (93). كما نشر الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله بحثا في الموضوع (94). وللأستاذ السيد محمد الطنجي مقال بعنوان : «موقف الدولة العلوية، وفخرها المولى اسماعيل من مؤسسة الأقاف» (95). وللأستاذ السيد حسن السايح بحث قيد بعنوان : «تطور الوقف في الإسلام» (96) ولكاتبه «الفن والأوقاف» (97). وهناك موضوع هام يتعلق «بدور الأحباس في تنظيم المكتبة المغربية، ونوادر المخطوطات الحبسية» (98). وللأستاذنا المرحوم عبد الله الجراري مقال في موضوع «الأوقاف الإسلامية ونظامها بالمغرب في عهد الدولة العلوية» (99). وقد نشر الأستاذ السيد عبد الرحمن عواد مقالا بمجلة الإيمان بعنوان «الوقف في الإسلام» (100). وثمت كتاب «الولاية على الوقف» لسيد علي أبو السعود العقبي (101). وللشيخ بدر المتولي عبد الباسط «بحث في الوقف» (102). و «ترتيب الصنوف، في أحكام الوقوف» للأستاذ علي حيدر (103). كما نشر الأستاذ محمد سلام

---

85) هسبريس 1954 (3 ـ 4).

86) Anonyme la réorganisation des Habous au Maroc – Rabat 1916 Dr. J. LUCCIONI.
Les fondations Pieuses « Habous au Maroc depuis les origines jusqu'à 1956.
Mr : Jacques BERQUE : ________ وتقـدم لـ ________

87) حوالة أحباس القرويين بفاس : خم : 23. راجع الحوالات الحبسية الفاسية بوزارة الأوقاف، وقد أخذت وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمملكة المغربية على عاتقها، أخيرا، تصوير الحوالات الموجودة بالخزانة العامة، بالميكروفيلم تحت اشراف الأستاذين العزيزين محمد الطاهر بوهلال والعابد الوزاني رئيس قسم الفلاحة.

88) ج : 2 / من مجلد 29 / ص : 128 ـ 143.

89) «مجلة الزيتونة التونسية» عدد ربيع 2 / 1358 ـ 1939. من صفحة : 276 / 278.

90) مجلة الوثائق المغربية : ص : 192، عام 1907

91) مجلة القانون والاقتصاد س : 6 / ع : 7، عام 1936.

92) نشر في مجلة القانون والاقتصاد عددي مارس ويونيو 1950 / ص : 39 ـ 78. وله محاضرة في الوقف ط : دار الثقافة العربية للطباعة ـ الناشر : دار الفكر العربي : 1971.

93) دعوة الحق ع : 3 / س : 3 / عام 1957 : ص : 4 ـ 5.

94) دعوة الحق : ع : 3 / س : 1966 ص : 20 ـ 20.

95) دعوة الحق : ع : 3 / س : 1966 ص : 89 ـ 92.

96) دعوة الحق : ع : 3 / س : 1966 ص : 99 ـ 100.

97) دعوة الحق : ع : 3 / س : 1966 ص : نفس العدد..

98) نفس العدد السابق ص : 121 ـ 147.

99) نفس المصدر

100) مجلة الإيمان، عدد : 7 / يونيو 1965.

101) بحث مخطوط في كلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر / تحت رقم 178.

102) مخطوط في مكتبة كلية الشريعة والقانون تحت رقم : 275.

103) ترجمه وعلق عليه : المحامي أكرم عبد الجبار، والحاكم محمد أحمد العمر.

مذكور، «الوقف من الناحية الفقهية والتطبيقية» (104). «واحكام الأوقاف» لحسين علي الاعظمي، (105) و «أحكام الأوقاف» للاستاذ محمد شفيق العاني بغداد. و «أحكام الأوقاف» أيضا للاستاذ حسن رضا (106). و «الوقف وبيان احكامه» لأحمد ابراهيم (107). ولمعوض محمد مصطفى سرحان كتاب، «الوقف في نظامه الجديد» (108). و «الوقف مصطلحاته وقواعده» للاستاذ أحمد جمال الدين (109).

وبعدة فهذه طائفة من الكتب والابحاث والدراسات التي تمت بصلة واشجة بمادة الوقف التي طالما اهتم بها رجال الفقه وعلماء القانون. واستطاعت العبقرية العربية والاسلامية أن تأتي فيها بما يشهد لها بالفلج والتفوق.

وتلك هي المراحل التي طوتها هذه المادة في رحلتها الحافلة ذات النفس الطويل لاستكمال مقوماتها ضمن أبواب الفقه، فأصبحت قائمة الذات، لها أصولها وقواعدها، ومقاصدها وغاياتها...

وقد رأينا أن تلك الكتب والدراسات والبحوث والمظان الوقفية تناولها كثير من علماء المسلمين ورجال الفقه في مختلف العصور، ومن شتى المذاهب الإسلامية سواء كانت سنية أو شيعية، زيدية أو إباضية، أو جعفرية أو غيرها... وقد اختلفوا فيها حينا، واتفقوا أحيانا أخرى، وتمسكوا بها حينا، ورجعوا عنها حينا آخر...

بيد أن ذلك كله كان مستمدا من القواعد الكلية لمبادىء الإسلام، والأسس التي انبنى عليها زكامه العام...

وقد بقيت مادة الوقف مجالا للبحث، وموضوعا للدراسة والمناقشة، والأخذ والرد، باعتبارها ليست من أركان الدين، كما بني القرآن وحده سبب الهداية، والعمدة في الدعاية، اماما تراكم عليه، وتجمع حواليه من آراء الرجال واستنباطهم فينبغي، كما يقول السيد جمال الدين الافغاني، (110) ألا نعول عليها كوحي، وانما نستأنس بها كرأي ولا نحملها على أكفنا مع القرآن في الدعوة إليه، وارشاد الأمم إلى تعاليمه، لصعوبة ذلك وتعسره، واضاعة الوقت في عرضه.

وقد قال الشهيد السيد قطب حقا وصدقا في كتابه، (111) وقوله فصل وحكم، «يجب أن لا ندع الناس، حتى يدركوا أن الإسلام ليس هو أي مذهب من المذاهب الاجتماعية الوضعية كما أن ليس أي نظام من أنظمة الحكم الوضعية، بشتى أسمائها وشياتها وراياتها جميعا... وانما هو الإسلام فقط ! الإسلام بشخصيته المستقلة، وتصوره المستقل، وأوضاعه المستقلة... الإسلام الذي يحقق للبشرية خيرا مما تحلم به كله من وراء هذه الأوضاع... الإسلام الرفيع النظيف، المتماسك الجميل الصادر مباشرة من الله العلي الكبير».

الرباط : محمد بن عبد العزيز بنعبد الله

---

104) الطبعة العالمية - القاهرة - 1961.

105) ط : الاعتماد - بغداد : 1949.

106) ط : المطبعة الاهلية - بغداد : 1357 - 1938.

107) الناشر مكتبة وهبة - مصر : 1944.

108) ط : رمسيس - الاسكندرية : ط : 1 / 1957.

109) مطبعة الرابطة - بغداد 1955.

110) جمال الدين الافغاني - لعبد القادر المغربي ص : 60.

111) «معالم في الطريق» لسيد قطب : ص : 201.

نظرات في تاريخ المذهب المالكي (6)

أصول المذهب المالكي وقواعده

للدكتور عمر الجيدي

يذهب البعض الى أن الإمام مالكا لم يدون أصوله التي بنى عليها مذهبه، واستخرج على أساسها أحكام الفروع التي استنتجها، والتي قيد نفسه في الاستنباط بقيودها (1) إلا أن الحافظ ابن العربي لا يرى هذا الرأي، ويثبت جازما أن الإمام مالكا بين في كتابه «الموطأ» أصول الفقه وفروعه (2) كما يثبت أنه بناه على تمهيد الأصول للفروع، ونبه فيه على معظم أصول الفقه التي ترجع اليها مسائله وفروعه (3) ويستفاد مما ذكره عياض أن مالكا أخذ فعلا بهذه الأصول وعلى هديها كان يستنبط القواعد، ويصدر الأحكام (4)..

والحق أن الإمام لم يصرح بأنه التزم فيما كان يستنبطه من أحكام أصولا وقواعد، اعتمدها أساسا في الاستنباط والاستنتاج، إلا مايفهم من صنيعه في اعتماده على الأصلين، وعمل أهل المدينة، وما يستشف من عمله في «الموطأ» من أنه كان يعتمد أحيانا على القياس، الا ان عمله هذا يبقى دون اعطاء منهجية واضحة المعالم، تنهض دليلا على ما ذهب اليه ابن العربي في «القبس»، وعياض في «المدارك» ومن ثم يجوز القول بأن ذلك يبقى من عمل اتباعه الذين جاءوا الى الفروع، فتتبعوها ووازنوا بينها، فاستنبطوا منها ماصح لديهم أنه دليل قام عليه الاستنباط، فدونوا ذلك الأصول وأضافوها الى الإمام مالك تساهلا، فقالوا : كان مالك يأخذ بكذا ويستدل بكذا، وهي - كما علمت - ليست أقوالا له رويت عنه، وانما هي من عمل أتباعه الذين حددوها بناء على ما فهموه من طريقته في استنباط الأحكام، وما دونه من فتاوي ومسائل، وجمعه من أحاديث، وما أثر عنه من أقوال وآراء (5)..

وسواء أشار اليها بنفسه، أم دونها من أتى بعده من أتباعه، فانها أصبحت تؤلف الأسس العامة التي استند اليها المالكية في الاستنباط والتخريج، وحتى لو صحت نسبة تدوينها الى مالك، فان ذلك لايعني أن اتباعه ظلوا جامدين على ما أصله، ومقيدين بكل ما قاله، وتوصل اليه من استنباط واستنتاج، بل كانوا ينظرون في الأدلة كما كان ينظر، ويستخرجون منها كما كان يفعل، بدليل أنهم سيختلفون معه فيما بعد، اختلافا واضحا في مسائل لاتعد كثرة...

1) الفكر السامي للحجوي 1 ـ 387 ط ؛ 2 ومالك للشيخ أبي زهرة ص 215.
2) القبس ص 7 مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1916 ك.
3) المصدر نفسه 1.
4) المدارك 1 / 89 ط ؛ المغرب.
5) نظير ما فعله المحدثون بصحيح البخاري فهو لم يبين الشروط التي اشترطها وانما ذلك عمل من أتى بعده من المحدثين بعد أن تتبعوا منهجيته في قبول الرواية وردها.

الفرق بين الاصول والقواعد :

وقبل ان نعدد الأصول التي قام عليها المذهب المالكي، نشير أولا الى الفرق بين الاصول والقواعد، ونعطي نظرة عابرة عن القاعدة الفقهية من حيث تحديدها واقسامها، والمراحل التي مرت بها. فالأصول هي الأدلة الإجمالية او المصادر التي تستقى منها أحكام الفروع الجزئية كالكتاب والسنة وغيرهما من مصادر الاستنباط والاستدلال الراجعة اليهما.

اما القواعد فهي ما تحصل عن الاجتهاد في احكام الفروع من طرف المجتهدين واهل التخريج والاستنباط، باستقرائهم الأشباه والنظائر، وتبينهم العلة الجامعة بين كل فئة منها، مقيمين من هذه العلة الجامعة، أو مناط الحكم، قاعدة في شكل نص كلي يتضمن حكما تشريعيا عاما يطبق على كل المسائل والجزئيات المندرجة تحته، والمتضمنة لنفس المناط. فهناك اذن فرق بين أصول المذهب وقواعده، فأصول المذهب : هي مصادر الاستنباط، اي تلك التي تستقى منها الأحكام. أما القواعد، فهي ضوابط كلية توضح المنهج الذي سار عليه الفقهاء في استقراء المسائل الجزئية، وتحديد العلة الجامعة في كل فئة منها، مستنتجين قاعدة كلية عامة، تطبق على كل الجزئيات المندرجة تحتها بجامع وحدة المناط. وبذلك كانت القواعد متأخرة في وجودها عن الأصول. فالقاعدة الفقهية اذن هي الثمرة الناتجة عن الاجتهاد في أحكام الفروع.

تعريف القاعدة :

وهكذا عرفت القاعدة الفقهية اصطلاحا ، بأنها قضية كلية من حيث اشتمالها بالقوة على أحكام جزئيات موضوعها (6) وهي التي عناها المقرى بقوله : كل كلي هو اخص من الاصول وسائر المعاني العقلية العامة، وأعم من العقود وجملة الضوابط الفقهية الخاصة (7). أو بتعريف أوضح هي : حكم أغلبي ينطبق على معظم جزئياته. ومن خصائص القاعدة الفقهية : ايجاز صياغتها، وسعة استيعابها بكثير من الفروع الجزئية. والقاعدة الى ماسبق هي الأساس والأصل لما فوقها. وهي تجمع فروعا من أبواب شتى على خلاف الضابط، فهو يجمع فروعا من باب واحد (8)..

اقسامها :

ثم إن القواعد الفقهية تنقسم عموما إلى قسمين : عامة وخاصة، فالأولى تطلق على قواعد جامعة لأحكام كثيرة تستوعب أحكاما عديدة في عبارة قصيرة ذات دلالة واسعة، ومن خصائصها ، أن صيغتها تكون خبرية مثل : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح والضرورات تبيح المحظورات، والأمور بمقاصدها. واليقين لايزال بالشك، والأصل براءة الذمة، والأصل بقاء ما كان على ما كان، الضرر لايزال بمثله، إذ اجتمع ضرارن ارتكب أخفهما، الضرورة تقدر بقدرها، التعيين بالعرف كالتعيين بالشرط، العادة محكمة، المشقة تجلب التيسير، الضرر يزال.. وهكذا والثانية : قواعد تندرج تحتها أحكام متشابهة، وهي التي تسمى الضوابط أو الكليات، ومن أمثلتها ، كل من لاعن زوجته فلا تحل له أبدا، كل نكاح اختلف فيه فالطلاق فيه قبل الفسخ لاحق والميراث واجب، كل زوج عجز قبل البناء عن رفع الصداق طلق عليه بعد الأجل والتلوم، كل فرج يستبرأ من مسيس فلا يحل وطؤه حتى يبرأ الرحم، كل من نكح امرأته في عدتها وأصابها فيها فلا تحل له أبدا، كل طعام كان ثمنا للبيع فلا يجوز بيعه قبل قبضه، كل ما يجوز فيه التفاضل فلا يجوز بيعه بشيء منه حتى يعلم التفاضل، كل ولاء ضائع فانه للمسلمين وهكذا...

والقسم الأول هو مراد المقرى في قواعده، إذ يذكر أنه قصد إلى تمهيد ألف ومائتي قاعدة هي الأصول القريبة لأمهات مسائل الخلاف المبتذلة والقريبة، وأضاف أنه يعني بالقاعدة : كل كلي هو أخص من الأصول وسائر المعاني العقلية العامة، وأعم من العقود وجملة الضوابط الفقهية الخاصة (9) فهو لم يقصد في قواعده، القواعد الأصولية العامة، ككون الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس حجة، وكحجية المفهوم والعموم وخبر الواحد، وكون الأمر

---

(6) كليات أبي البقاء ص 290 وتسمى فروعا واستخراجها منها تفريعا.
(7) قواعد المقرى : 1.
(8) كليات أبي البقاء ص 290.
(9) شرح المنجور لقواعد الزقاق ص : 2 م 2 والفكر السامي 1 / 165.

للوجوب والنهي للتحريم ونحو ذلك. ولا القواعد الفقهية الخاصة، ككل ما لم يتغير أو صافه طهور. وكل طير مباح الأكل. وكل عبادة بنية ونحو ذلك وإنما المراد ما توسط بين هذين. مما هو أصل لأمهات مسائل الخلاف. فهو أخص من الأول. وأعم من الثاني وإن كان قد ذكر قواعد أصولية. وقواعد فقهية تكميلا للفائدة (10)...

ثم ان هذه القواعد أغلبية في معظمها غير مطردة. وترد عليها استثناءات في فروع الأحكام التطبيقية طبقا للقاعدة القائلة «إن أكثر قواعد الفقه أغلبية» (11) الا ان هذه الاستثناءات التي ترد على القاعدة لا تضيرها، ولا تقدح في قيمتها وأثرها، فقد أفادت الفقه الإسلامي فائدة عظمى رغم هذه الاستثناءات. وفي هذا يقول القرافي (684 ـ 1285) ان الشريعة الإسلامية اشتملت على أصول وفروع. وبعد ان تحدث عن الجانب الأول خلص الى القول بأن القواعد الفقهية الكلية جليلة كثيرة العدد، عظيمة المدد، مشتملة على أسرار الشرع وحكمه. لكل قاعدة من الفروع في الشريعة ما لا يحصى (12) الى أن يقول : «وهذه القواعد مهمة في الفقه، عظيمة النفع، وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر الفقيه ويشرف، ويظهر رونق الفقه ويعرف. وتتضح مناهج الفتوى وتكشف. فيها تنافس العلماء، وتفاضل الفضلاء، وبرز القارح على الجذع، وحاز قصب السبق من فيها برع. ومن جعل يخرج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية، تناقضت عليه الفروع واختلفت وتزلزلت خواطره فيها واضطربت. وضاقت نفسه بذلك وقنطت. واحتاج الى حفظ الجزئيات التي لاتتناهى. ومن ضبط الفقه بقواعده، استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في الكليات» (13). والحق ما قاله رحمه الله فان هذه القواعد أدت دورا هاما في تنظيم الفروع واكسبت الفقهاء، مكلة علمية مهمة لضبطها فروع الأحكام بضوابط يجمع كل طائفة منها وحدة المناط.. فاذا كان الأصولي ينظر الى الأصول على انها مصادر لاستنباط الأحكام الشرعية. فان الفقيه يعتمد القواعد الفقهية مسلكا لتجميع فروع الفقه في مجموعات يجمعها وحدة المناط. وبذلك تأتى للفقهاء أن يكتشفوا أسرار التشريع وقيمته. وسهل عليهم تتبع الجزئيات وادراجها في الكليات. فارتقوا بذلك من دراسة الجزئيات الى درس ما يسمى في العرف الحالي بالنظريات العامة. التي تهدف الى نقل الفقه من شكله الفرعي الى الشكل الموضوعي (14)..

المراحل التي مرت بها القواعد الفقهية

والجدير بالذكر ان هذه القواعد لم توضع دفعة واحدة. كما انها لاتنسب لشخص معين. وانما صيغت نصوصها بالتدريج في مختلف العصور. وعلى يد فقهاء كبار. وصلو درجة من النضج الفقهي أهلهم لأن يصوغوا هذه القواعد استنباطا من الأدلة التشريعية العامة. ومن ثم فلا نستطيع أن ننسب أي قاعدة لفقيه معين. ومن المؤكد ان هذه الصياغات القاعدية مرت بمراحل قبل ان تستقر على هذه الصيغ المعروفة لدينا اليوم. تناولها الفقهاء بالصقل والتحوير تابعا عن تابع. ويقال ان فقهاء الأحناف كانوا هم السباقين الى صياغة هذه القواعد. والاحتجاج بها. وعنهم نقلها غيرهم من أصحاب المذاهب (15).

وتشير بعض الروايات الى ان اول من جمع هذه القواعد الكلية في المذهب الحنفي هو أبو طاهر الدباس من علماء القرن الرابع الهجري. فحصر مذهب امامه في سبع عشرة قاعدة كلية. ثم أتى بعده الحسن الكرفي (340 ـ 951) فاضاف اليها قواعد عديدة أوصلها الى سبع وثلاثين قاعدة. ولاحظ الشيخ الزرقاء أن بعضها ليس من قبيل القواعد بالمعنى الحقيقي للقاعدة (16). ثم أعقبه أبوزيد الدبوسي (430 ـ 1038) فزاد عليها زيادات مهمة في كتابه «تاسيس النظر» ثم جاء بعده ابن نجيم (970 ـ 1562) فجمع في كتابه «الأشباه والنظائر» عديدا من القواعد ثم جاء بعده الخادمي (1176 ـ 1762) فجمع مجموعة كبيرة من القواعد الفقهية رتبها على حروف المعجم فبلغت أربعا وخمسين ومائة قاعدة.

---

10) المصدر نفسه.
11) تهذيب الفروق 1 / 36 على هامش الفروق للقرافي.
12) الفروق 1 / 2.
13) الفروق 1 / 3.
14) بعض النظر عن الفرق البسيط بين هذه وتلك اذ كلتاهما يسعى الى تجميع ما كان مفرقا..
15) انظر المدخل الفقهي العام للفقيه الضليع، الشيخ مصطفى الزرقاء 2 / 952.
16) المدخل الفقهي العام 2 / 952.

هذا بالنسبة للمذهب الحنفي. أما المذهب الشافعي فيذكر القاضي الحسين (642 ـ 1244) أن مبنى الفقه الشافعي على خمس قواعد وهي : الضرر يزال، والعادة محكمة، والأمور بمقاصدها، واليقين لا يزال بالشك والمشقة تجلب التيسير (17) وقد نظمها بعض الشافعية فقال :

خمس مقررة قواعد مذهـــب
للشافعي فكن بهن خبيـــرا
ضرر يزال وعادة قد حكمـت
وكذا المشقة تجلب التيسيـرا
والشك لاترفع به متيقنـــا
والقصد أخلص إن أردت أجورا

ولقد صنف في ذلك بعض الشافعية، ولعل أهم مؤلف في ذلك هو «المنثور في القواعد» لبدر الدين الزركشي إذ يعد في أهم وأنفع الكتب المعنية بالقواعد الفقهية الكلية وقد حقق أخيرا (18)..

وقد جمع ابن رجب الحنبلي (795 ـ 1392) في كتابه القيم «القواعد» مائة وستين قاعدة هي المعروفة في المذهب الحنبلي..

أما المذهب المالكي فلا شك أنه أغزر هذه المذاهب من حيث القواعد، ومن الذين ألفوا فيها ووصلتنا مؤلفاتهم : الإمام القرافي الذي ضمن كتابه «الفروق» ثمانية وأربعين وخمسمائة قاعدة (وضمن هذه القواعد توجد قواعد وكليات عديدة متناثرة هنا وهناك)، ثم جاء بعده أبوعبد الله المقرى (756 ـ 1355) فألف قواعده المؤلفة من مائتين وألف قاعدة. وجاء بعدهما أبو الحسن الزقاق (912 ـ 1506) فألف «نظم المنهج المنتخب في قواعد المذهب» وألف بعده أبو العباس الونشريسي (914 ـ 1508) «إيضاح المسالك» كما ألف فيها عصريه ابن غازى المكناسي (919 ـ 1513) «كلياته». وجاء بعد هؤلاء أبو مالك عبد الواحد الونشريسي (955 ـ 1548) والشيخ ميارة (1072 ـ 1661) فألفا بدورهما فيها. وفي القرن الحادي عشر الهجري ألف أبو الحسن علي بن عبد الواحد بن أبي بكر الأنصاري السجلماسي «اليواقيت الثمينة»، وهو نظم في قواعد المذهب ونظائر الفقه على غرار المنهج المنتخب للزقاق ـ سابق الذكر ـ وقد كان هذا الكتاب من ممتلكات الفقيه الحجوي (19)...

وهكذا نرى أن كل المذاهب الفقهية الإسلامية الكبرى ساهمت بنصيب في هذا المجال الفقهي. إذ اختار أتباع كل مذهب قواعد وأصولا اعتمدوا عليها في الاستنباط والتطبيق، وكل مذهب أراد أصحابه أن يجعلوه مبنيا على عدد محصور من القواعد والأصول..

وبعد هذا العرض السريع نعود على بدء لنعدد الأصول التي اعتمدها المالكية، ونشير في البداية إلى أن المالكية قد اختلفوا في عد هذه الأصول. فالحافظ أبو بكر ابن العربي (543 ـ 1148) عدها عشرة، حسبما يفهم في نقل ابن هلال (20) والقاضي عياض (544 ـ 1149) لم يذكر منها إلا أربعة : الكتاب والسنة وعمل أهل المدينة والقياس (21) ولما قسم القرافي (684 ـ 1285) الأدلة (22) قال إنها تسعة عشر بالاستقراء وهي : الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة، وإجماع أهل المدينة، والقياس، وقول الصحابي، والمصلحة المرسلة، والاستصحاب، والبراءة الأصلية، والعوائد، والاستقراء، وسد الذرائع، والاستدلال، والاستحسان، والأخذ بالأخف، والعصمة، وإجماع أهل الكوفة، وإجماع العترة، وإجماع الخلفاء الأربعة (23) ونلاحظ أن هذه الأصول مشتركة بين جميع المذاهب، وبعضها لايقول به المالكية، وفيها ماهو خاص بالفرق الشاذة، فالعصمة، وإجماع العترة لايقول بهما إلا من شذ...

أما الفقيه أبو محمد صالح (653 ـ 1255) فقد عدها ستة عشر أصلا، وهي : نص الكتاب وظاهره وهو العموم، ودليله وهو مفهوم المخالفة، ومفهومه (أي مفهوم الموافقة)، والتنبيه على العلة، ومثل هذه الخمسة من السنة، ثم الإجماع، وعمل أهل المدينة، وقول الصحابي، والاستحسان، والحكم بسد الذرائع، مع اختلاف قوله في مراعاة الخلاف

---

17) فتح الباري 4 / 276.
18) انظر أخبار التراث العربي العدد : 2 ص 9 ـ 1982.
19) الفكر السامي 2 / 278.
20) نوازل ابن هلال ص 8 م 29 ط.ف.

21) ترتيب المدارك 1 / 89.
22) قسمها إلى قسمين : من حيث مشروعيتها، ومن حيث وقوعها انظر شرح تنقيح الفصول ص : 445.
23) شرح تنقيح الفصول : 445.

(24)، فمرة يراعيه، ومرة لايراعيه (25). والشاطبي (790 ـ 1388) رد الأدلة الشرعية الى ضربين دون ان يفصلها، احدهما مايرجع الى النقل، والثاني ما يرجع الى الرأي (26) واقتصاره على هذا التقسيم كما قال المرحوم ابو زهرة له وجه معقول جدا لأن عمل اهل المدينة وقول الصحابي كان يعتبرهما مالك من شعب السنة. كما ان كلمة الرأي تشمل بعمومها : المصالح المرسلة، وسد الذرائع، والعادات، والاستحسان، والاستصحاب، والقياس، لأن هذه من مشمولات الرأي. وبعبارة، ما يدخل تحت كلمة الاجتهاد مما عدا النص. على ان بعض المالكية ينزل بها الى اربعة كما يفهم من صنيع الشيخ ماء العينين (27). ولا اراه الا مشيرا الى رأي القاضي الحسين الشافعي وذكر السبكي في «الطبقات» ان اصول مذهب مالك تزيد عن خمسمائة. ولعله يشير الى القواعد التي استخرجت من فروعه المذهبية. ولاحظ المرحوم الشيخ ابو زهرة ان مذهب مالك اكثر المذاهب اصولا. حتى ان علماء الأصول من المذهب المالكي يحاولون الدفاع عن هذه الكثرة وافاد بان اقل اصوله تسعة (28) وعلق على هذه الكثرة بقوله : «وان نوع الأصول التي يزيد بها المذهب المالكي على غيره، ومسلكه في الاصول التي اتفق فيها مع غيره، يجعلانه اكثر مرونة واقرب حيوية، وادنى الى مصالح الناس، وما يحسون وما يشعرون. وبعبارة جامعة، اقرب الى الفطرة الانسانية التي يشترك فيها الناس، ولا يختلفون الا قليلا بحكم الاقليم والمنزع والعادات الموروثة» (29).

اما ترتيب هذه الأدلة من حيث الحجية والاعتبار، فهو ما اثبته القاضي عياض في المدارك اذ يقول : «فانت اذ نظرت لأول وهلة منازع هؤلاء الأئمة، وتقرير مأخذهم في الفقه، والاجتهاد في الشرع، وجدت مالكا رحمه الله ناهجا في هذه الأصول مناهجها، مرتبا لها مراتبها ومدارجها مقدما كتاب الله ومرتبا له على الآثار، ثم مقدما لها على القياس والاعتبار، تاركا منها مالم يتحمله عنده الثقات العارفون بما تحملوه، او ما وجد الجمهور والجم الغفير من اهل المدينة قد عملوا بغيره وخالفوه» (30).

بقي ان اشير الى ان هذه الأصول نظمها الفقيه أحمد بن محمد بن ابي كف في تسعة وعشرين بيتا، وشرحها محمد يحيى بن عمر المختار بن الطالب عبد الله بشرح سماه : «كتاب ايصال السالك في اصول الإمام مالك» وقد طبع بتونس عام 1346 هـ. هذه نظرة عابرة عن قواعد المذهب واصوله، وربما كانت لنا عودة الى الموضوع، إذ هو خصب ثري...

د : عمر الجيدي

---

(24) ذكر ابو يحيى الفرناطي شارح التحفة وابن ناظمها في شأن مراعاة الخلاف مانصه «مراعاة الخلاف لا يطردونه في جميع المواضع، ثم مراعاة الخلاف اما ان تكون صحيحة، واما أن تكون غير صحيحة، فان كانت صحيحة جارية على اصول الشريعة وجب اعتبارها على الاطلاق واما اعتبارها في بعض المسائل دون بعض، فذلك يفتقد الى ضابط يعرف به الموضوع الذي يجب او يجوز أو يراعي فيه الخلاف من الذي لا يراعي فيه انظر شرح التحفة مخطوط خ. م. رقم 9856 ص 2 والموافقات 4 / 150.

(25) نقل عن الإمام الشاطبي قوله «قد عد الناس الأولة ولم أر من عد اصول مراعاة الخلاف أصلا منها، والظاهر أن الدليل هو المتبع، فحيثما صار صير إليه». انظر المعيار 2 / 272 ط.ف والبهجة 2 ـ 133.

(26) الموافقات 3 ـ 41.

(27) انظر دليل الرفاق على شمس الاتفاق 1 / 35 ط.ف.

(28) مالك ص 376 ط : ثانية.

(29) المصدر

(30) المدارك 1 / 89.



للشاعر الاستاذ
أحمد عبد السلام البقالي

وقع خطأ في تصفيف قصيدة الشاعر الاستاذ أحمد عبد السلام البقالي (شمس العرب) المنشورة بالعدد 230 بتاريخ شتمبر 1983 بباطن الغلاف.

فقد كان ينبغي الفصل بين العمودين لقراءة كل عمود على حدة.

وقد تسبب عدم الفصل في اختلاط الأمر على العديد من قرائنا، فاتصلوا بنا يتساءلون.

وحسما لكل ارتباك، نعيد نشر القصيدة كما كتبها الشاعر بنفسه فهي تستحق أن تقرأ مرات ومرات :

أشرقت في الأفق شمس العرب ... وجلا عنا ظلام الحقب
فخذوا الشعلة وامضوا قدما ... وارفعوها فوق هام الشهب

٥ ٥ ٥

شعلة العلم التي كانت لنا ... وانطفت، عادت لتمحو ليلنا
بضياء لم نزل نذكره ... بهر الدنيا، وأعشى الأعينا

٥ ٥ ٥

ياسماء المغرب الأقصى الأبي ... باركي كل لقاء عربي
واجعليه بذرة ميمونة ... تنبت البشرى بعصر ذهبي

٥ ٥ ٥

امطري الأنفس أمنا وهناء ... واملإي الأعين نورا وبهاء
وقلوب العرب حبا وإخاء ... وابعثي الإيمان فيها والرجاء

٥ ٥ ٥

أمل الأمة في وحدتها ... هي للعرب حياة وبقاء
لم يعد ثم خيار.. إنما ... وحدة تجمع قومي أو فناء

نحن بالوحدة أقوى وأشد   لا بمال، أو سلاح، أو عدد
فلنقف صفا قويا واحدا   صامدا يسبر أغوار الأبد

٥ ٥ ٥

آمنوا بالله يشدد أزركم   ويزدكم من لدنه رشدا
وانصروه.. إنكم «إن تنصروا   الله ينصركم». فتزدادوا هدى

٥ ٥ ٥

لن تنالوا (القدس) حتى تنفقوا   من دم القلب، ونور البصر
في سبيل الوحدة الكبرى التي   هي تحقيق لأسمى وطر

٥ ٥ ٥

وفلسطين التي تنتظر   وحدة في ظلها تنتصر
«فيد الله مع الجمع». فإن   شئتمو، يا عرب، شاء القدر

٥ ٥ ٥

قسما بالله، لن نتركها   أبدا تصرخ : «وامعتصماه»
كلنا معتصم من أجلها   يبذل النفس، ولا يرجو الحياه

٥ ٥ ٥ ٥

معارضة لقصيدة



وقرأ الشاعر العراقي الكبير الدكتور (باقر سماكة)، قصيدة الشاعر المغربي (احمد عبد السلام البقالي) في (دعوة الحق عدد 230 شتمبر 1981) فاهتز لها طربا، وجادت قريحته بقصيدة عارض فيها قصيدة الشاعر (البقالي) معارضة طبق الاصل.

و(دعوة الحق) اذ تنشر هذه المعارضة الطيبة، لا يفوتها ان تنوه بالشاعر العراقي المجيد، وبحيوية شاعريته، وسرعة انفعاله مع الاحداث العربية والاسلامية.

أنت يا (أحمد) رمز الأدب   فارس الشعر له يعنو الأسد
بخيال شاعري خصب   ويراع لا يجاريه أحد

قصصي وروائي سما ... للعلا، للعرب غنى وشدا

بدواوين وأثرى كتب ... كل ما فيها إبتكار لا يحد

٥ ٥ ٥

واضأت الدرب للجيل سنا ... هاتفا لا لا تجافوا فخركم

ليكن حب المعالي ديدنا ... لكم يامن سموتم محتدا

٥ ٥ ٥

بتليد عندكم وافره ... وبه من حقكم أن تفخروا

وله التأريخ إكبارا رنا ... فخرام مثله يمسي سدى

٥ ٥ ٥

غيركم سار لنيل الإرب ... فجدير بكم أن تلحقوا

ورحاب (القدس) مهوى العرب ... عودها للعرب كل الظفر

٥ ٥ ٥

حققوها وثبة محمودة ... أيها العرب لأقوى وحدة

من مغاني الشرق حتى المغرب ... إنها أنشودة للوتر

٥ ٥ ٥

للتلاقي لعناق وصفاء ... عبرة الحب بها يعتبر

بفلسطين لقد طاب اللقاء ... إنها في لهفة تنتظر

٥ ٥ ٥

شاعر المغرب يا معنى الوفاء ... ونجي المشرقي المفتتن

كم وكم قد هزني منك الحداء ... منه وجد في الحشا يستعر

٥ ٥ ٥

سبل العلياء في رفعتها ... أنت قد صممت أن تسلكها

فعزفت الشعر ألحان الفداء ... قد روى قصة (وامعتصماه)

٥ ٥ ٥

أنها ذكرى تثير الولها ... وتحن النفس إعزازا لها

شاعر المغرب مجدا وارتقاء ... دمت من روضك نجني الثمرات

* *

الفن المدجن

ودوره في حياة أواخر المسلمين بالاندلس

للأستاذ محمد قشتيليو

الفن المدجن هو ما خلفه المسلمون بالأندلس الذين بقوا تحت حكم النصارى في المقاطعات الأندلسية التي انتزعت من أيدي المسلمين قبل ذهاب الدولة الإسلامية نهائيا بسقوط غرناطة بيد النصارى.

إن هذا الموضوع يحتاج إلى مجهود كبير ودراسة طويلة وبحث عميق لأن له ارتباطات بجوانب متعددة. فالفن الأندلسي بل الفن الإسلامي كله له علاقة بفنون غيره من الأمم التي دخلت في الإسلام أو التي لم تدخل فيه بل احتكت به بكيفية أو أخرى أو تساكنت معه فجعلت فنها يمتزج بالحياة الإسلامية وينصهر فيها فيأخذ طابعها ويتأثر ببيئتها ثم يأخذ طابعا خاصا به فليس من الغريب مثلا أن يكون الفرس حين دخلوا في الإسلام غيروا بعض الشيء من فنهم فقد كان فنهم قبل اعتناقهم للإسلام يمثل عقيدتهم القديمة ويعبر عن تعاليمها. ولكن بعد دخولهم في الإسلام. فلا يمكن - والحالة هذه - أن يبقى لفنهم مظهره السابق. كما أن القوط والروم حين احتكوا بالإسلام طرأ على فنهم نفس الشيء، وكذا أخذ المسلمون عنهم فنهم النصراني وأصبغوا عليه صبغتهم الإسلامية ودعوا جانبا ما لا يتناسب وعقيدتهم الدينية. لهذا نجد أن الفن الإسلامي الأندلسي المدجن يمتزج بفن النصارى فتتجلى فيه بعض المظاهر المسيحية برسم بعض شاراتها وزخاريفها التي تعبر عن أفكار وآراء بعيدة كل البعد عن روح الإسلام إرضاء للحكام النصارى الذين كانوا يستخدمونهم في قصورهم ومعابدهم. كل هذا يجعلنا نرى الفن يتطور بتطور الأمم فيعبر عن نفسية أهلها وما تجيش به قرائحهم ومواهبهم حسب البيئة التي يعيشون فيها. لذا نجد أن الفن المدجن بالأندلس تأثر بالبيئة الدينية المسيحية الحاكمة والمسيطرة. وأهم ما خلفه لنا المدجنون من فنهم. يتجلى على الخصوص في فن المعمار وخاصة في بناء المعابد والأبراج والحصون وأهم الأمكنة التي احتفظت بقسط وافر من مآثرها الفنية هي مدينة طليطلة وإن كان يوجد لهم تراث فني في أماكن أخرى من مدن الأندلس والسبب الذي جعل هذه المدينة تزخر بمآثر فنية للمدجنين أكثر من غيرها لأنها المدينة الأولى من بين العواصم ذات الأهمية القصوى بالأندلس التي سقطت بأيدي النصارى وطالت إقامة المسلمين بها في ظل حكم المسيحيين بقرون قبل سقوط آخر حاضرة إسلامية بغرناطة فتعايشوا مع النصارى في أمن وسلام الأمر الذي جعلهم يطلقون عليهم لقب «المدجنون» (1).

1) فعل «دجن» أقام ولم يغادر المكان

كانت هذه المدينة من بين المدن الاندلسية التي تكثر بها الطائفة اليهودية والتي أيضا ساهمت بدورها في تشييد مباني المعابد على النمط العربي بيد فنانين مسلمين لأن اليهود كما هو معلوم، لا يتعاطون إلا التجارة بدليل أن لا توجد من بين المدن العربية الأندلسية مدينة تتوفر على اهم بيعة لليهود الا طليطلة وما زالت لحد الان اثارها وفنها سالما تقريبا من الاندثار ومكتمل البنيان، وحي يحمل اسمهم لحد الان.

ان ملوك النصارى الذين حكموا طليطلة اهتموا كثيرا بالفن العربي وخاصة الفونصو السادس، فكان يغدق الاموال على ارباب الحرف والفن والبناء فشيد القصور والمعابد على النمط العربي حتى لا ينعت بالجهل وعدم الذوق لانها عقدة كانت تسيطر على النصارى لتخلفهم عن العرب في ميدان العلوم والفنون وغيرها من المظاهر الحضارية التي كان للعرب فيها اذ ذاك القدم المعلى، دليل على ذلك ما اشار به القس المستشار الخاص لالفونصو العاشر الذي قال له : لا يمكن ان تكون لنا الغلبة على المسلمين بالاندلس الا محاربتهم بسلاحهم، فساله الفونصو ما هو هذا السلاح ؟ فقال له القس الريموندو : انه العلم، اي علم العرب، فكانت نتيجة ذلك ان عمل بمشورة مستشاره فاسس مدرسة للترجمة بعاصمة ملكه طليطلة فجمع فيها علماء من مسلمين ويهود فترجموا لاول مرة الى اللاتينية القرآن والتلمود وغيرهما من العلوم فكانت النواة الأولى للنهضة العلمية باسبانيا فحق بهذا ان يلقب هذا الملك بالفونصو الحكيم، كما ان ملوك النصارى كانوا يريدون مضاهاة المسلمين في حياتهم باقامة قصورهم ومعابدهم وزخرفتها على الطراز العربي ويقلدون ملوك المسلمين في مظهرهم وابهتهم، وبما ان العنصر العربي هو الذي كان يتوفر على الخبرة والمعرفة بفن المعمار والزخرفة فكانوا يلجأون إليه لتحقيق رغباتهم ويسخرونه فيما يريدونه مقابل السماح له بمزاولة طقوسه الدينية واقامة شعائره الاسلامية ومنحه كامل حريته الدينية والتجارية بل كانوا يسندون اليه مهام اخطر من ذلك لها صفة عسكرية كحماية الحصون والابراج وغيرها ارضاء له حتى لا يشعر باي ضغط عليه أو مضايقة، لذا كان المدجنون يتمتعون بمعنوية عالية جعلتهم ينتجون ويعملون زيادة على ان عصرهم طال امده اي من احتلال طليطلة سنة 1085 م الى سقوط غرناطة 1492 م. فكانت مدة كافية لتخليد كثير من الاثار وان كان ما هو موجود ومعروف لا يتناسب والمدة التي سطرها تاريخ وجودهم لأن التعصب المسيحي بعد حروب الاسترداد وانتهاء دولة الإسلام بالأندلس عمل على طمس كثير من المعالم الاسلامية على العموم، والمعالم التي تركها المدجنون على الخصوص، الى أن اثار الله بصيرة الجيل الجديد وخاصة منهم ذوو العقول النيرة والافكار المتفتحة من علماء وبحاث وغيرهم من المختصين في مجال التنقيب على الاثار الاسلامية بالاندلس، فاصبحوا ينقبون ويبحثون ويكتبون عما عثروا عليه والذي كان في حكم العدم اذ صارت المطابع الاسبانية تخرج بين الحين والاخر ابحاثا قيمة في هذا الباب من كتب ونشرات تبرز الشيء الكثير والنادر والجديد في الموضوع، وأهم ما عثر عليه من بحث في فن المدجنين كتاب باللغة الاسبانية بعنوان : «الفن الطليطلي المسلم والمدجن» لمؤلفه باسيليو بافون مالضوناضو طبع المعهد الإسباني ـ العربي للثقافة وهو كتاب ضخم يحتوي على 323 صفحة من الحجم الكبير و 158 صفحة خاصة بالصور للاثار وما اخرج من الحفريات زيادة على أن الكتاب يضم خرائط ورسوما للاماكن الاثرية بطليطلة وضواحيها انه بحق يعد هذا الكتاب من اهم المراجع في هذا الباب ومن اهم ما الف في هذا الموضوع، ونكتفي الان بما ذكر ولنا عودة الى الموضوع بحول الله.

الرباط **محمد قشتيليو**

المرابطون

وفضلهم السياسي والحضاري في مجال الفن والعمارة

للدكتور عثمان عثمان اسماعيل

ظهر الإسلام بين الملثمين لعهد المائة الثالثة بموطنهم الأصلي من أرض الصحراء والرمال الجنوبية بين بلاد البربر وبلاد السودان وهم من لمتونة إحدى قبائل صنهاجة (1). وكانت صنهاجة من أشهر وأهم قبائل البربر من البرانس (2)، بالمغرب العربي ولها دولتان عظيمتان احداهما دولة بني زيري بن مناد الصنهاجيين بإفريقية ورثوا ملكها من يد الشيعة العبيديين. والأخرى دولة الملثمين بالمغربين الأقصى والأوسط وقاعدتها مراكش (3).

استقرت فروع كثيرة من صنهاجة بالمغربين الأوسط والأقصى واستوطن بعضها الأطلس المتوسط وساحل الأطلسي كما ضربت صنهاجة في الصحراء الكبرى حتى نهر النيجر ونهر السنغال حيث أقام الملثمون رباطهم (4). وقد نقل الدكتور حركات عن هنري تيراس أن صنهاجة كانت تضرب في سهول الشمال الإفريقي قبال القرن الثالث الميلادي ثم تحولت بعض قبائلها نحو الصحراء الكبرى بعد أن شاع استخدام الجمل على يد الرومان وساعدهم على تحمل صعوبات الطبيعة والبيئة الصحراوية. وهكذا كان اندفاع الملثمين نحو الشمال رجوعا إلى مساقط رؤوس أجدادهم والقيام بمهمتهم الدينية. فمنذ قبيل ظهور دولة المرابطين كانت قبائل الملثمين تمتد في جنوب المغرب إلى ناحية سجلماسة ثم تنحدر إلى نهر النيجر والسنغال.

(لقد تكونت نواة دولة المرابطين في مدرسة ـ أجلوا ـ التي أسسها بالقرب من مدينة أغمات جنوب المغرب الفقيه وجاج بن زلو تلميذ العالم المغربي الشهير أبي عمران الفاسي وأسند أمر التدريس بها إلى تلميذه الداعية الزاهد عبد الله بن ياسين الذي أسس فيما بعد رباطا بمكان عند مصب نهر السنغال حيث توافد عليه الناس وقدمته القبائل لحمل لواء الدعوة والإصلاح تحت القيادة السياسية والعسكرية لأبي زكرياء إبراهيم الكدالي (5).

1) تاريخ شالة الإسلامية الفصل 6 ص 230 وما بعدها والمصادر التي أشرت إليها وشكل 21 ص 232.

2) من أهم المراجع المعاصرة (قبائل المغرب ج 1) لمؤرخ المملكة المغربية العلامة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور : البربر ص 261، معنى الكلمة ص 262، أصول البربر ومناقشة آراء النسابين ص 265، الخلاصة ونقد آراء ابن خلدون ص 277، ص 328 وما بعدها شعب صنهاجة وأصل الكلمة (صناك) بالصاد المسم زايا والكاف القريب من الجيم (زناك) فلما عربه العرب زادوا الهاء الوسطى فصار (صنهاج). ثم أضافوا هاء الجمع. ص 329 أهم قبائل صنهاجة وبطونها. وعن قبائل البربر وموطنها بشمال إفريقيا والأندلس إلى النصف الأول من القرن 4 هـ راجع المسالك والممالك للاصطخري ص 36.

3) كتابنا تاريخ شالة الإسلامية ص 218.

4) دكتور إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ 164/1.

5) مقال الأستاذ الخطابي بالمناهل ص 100، وكتابنا تاريخ شالة الإسلامية ص 231، والاستقصا 12/2، وروض القرطاس نشر الفيلالي 3/2 + 8، والمغرب الكبير للدكتور سيد سالم 690 وعن عبد الله بن ياسين وتاريخه من الأصول والمصادر كتابنا أصحاب الميمنة نشر دار الكتاب الدار البيضاء 55 ـ 60.

ويقول لسان الدين بن الخطيب في القسم الثالث من أعمال الاعلام تحت عنوان (ذكر ملوك لمتونة المسلمين المرابطين) انها طائفة صنهاجية تنسب إلى صنهاج من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير وتنقسم صنهاجة إلى سبعين قبيلة منهم لمتونة وكان ابتداء أمرهم أن لمتونة كثرت في بلاد الصحراء... لا يعرفون حرثا ولا ثمرا، إنما أموالهم الأنعام وأقواتهم لحومها وألبانها وكانوا على السنة والجماعة يجاهدون السودان (6).

وقيل لهم الملثمون لأنهم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم أصلا. قال ابن خلكان بأنهم توارثوا سنة اللثام خلفا عن سلف وأن حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد فعله الخواص وانتقل إلى (7) العوام.

لقد مرت بنا الآن أسماء : لمتونة وصنهاجة والملثمون، ويغلب اسم (المرابطين) على هذه الدولة منذ أسس عبد الله بن ياسين رباطه بجزيرة تقع في السنغال الأدنى. وواضح أن لفظ الرباط من المرابطة وهي ربط خيل المرابطين أي المجاهدين كما يدل على ذلك قوله تعالى، **(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وءاخرين من دونهم لاتعلمونهم)** فكان لفظ الرباط أصلا يطلق على مكان تجمع ورباط الخيل لمدافعة العدو **(واصبروا وصابروا ورابطوا)** ثم أصبح المرابط كل من يلازم الجهاد حربيا أو عبادة وأصبح الرباط مؤسسة للجهاد الحربي والديني فمن لم يستطع الجهاد حربيا ينقطع للعبادة متوجها إلى الله نصرة دينه الحنيف وتأييد المجاهدين.

ثانيا : حالة العالم الإسلامي شرقا والمسيحي غربا وقت انبثاق دولة المرابطين :

شهد القرن الخامس الهجري بالمشرق الإسلامي والغرب المسيحي أوضاعا سياسية لا تختلف كثيرا فيما بينها. فقد واصلت ظاهرة انفصال الأطراف عن جسم الدولة الإسلامية الكبرى مسيرتها التي بدأت منذ القرن الثاني (9). لقد اتسع نفوذ السلاجقة واستولوا على العراق. وغدت مصر قاعدة مستقلة للخلافة الفاطمية. وشق بنو زيري عصى الطاعة على أسيادهم العبيديين الذين كانوا قد خلفوا صنهاجة من ورائهم ردءا لهم بعد هجرتهم إلى مصر وتأسيس مدينة القاهرة.

استولى النورمانديون على المهدية (10) وزويلة سنة 476 للهجرة واقتطعوها من سلطان صنهاجة ثم عادوا إليها سنة 517 واحتلوا المهدية سنة 544 إلى أن طردهم منها الموحدون سنة 555 للهجرة (11).

الإمارات الصليبية بالشام بدأ تأسيسها باستيلاء النصارى على انطاكية سنة 491 وبيت المقدس سنة 489. وكان حروب الردة المسيحية بالأندلس تشهد فترة انتعاش كبير بانحلال سياسة المسلمين وتخاذل أمرائهم إبان العصر الذي أطلق عليه بحق اسم (عصر ملوك الطوائف). لقد كانوا شر خلف لملوك الأمويين الغربيين وأتباعهم المجاهدين أتباع الحاجب المنصور ابن أبي عامر الذين عاشوا فوق صهوة الجياد يذبون عن مملكة الإسلام وماضي المسلمين وحضارتهم الزاهرة بشبه الجزيرة الإيبيرية.

كانت أوروبا المسيحية ترزح تحت نير حكم الاقطاع واستبداد الجهل وقهر الفقر واستغلال رجال الدين لجهل شعوبهم والدفع بهم تباعا إلى ما أسموه بالحروب الدينية المقدسة في المغرب والمشرق على السواء.

في تلك الظروف وهذه الملابسات. لم ينتبه المسلمون شرقا وغربا لخطورة الحال وضرورة الاتحاد للدفاع عن كيان الإسلام وصيانة مكتسباته والذود عن أراضيه. وبدل الاتحاد بدأ التنافر الذي بلغ مداه عندما استغل الافرنج استدعاء المسلمين لهم في نزاع شاور وضرغام (12) على كرسي الخلافة الفاطمية والتربع على سلطان مصر. وفي نفس الوقت يشهد التاريخ تحالف بعض أمراء الأندلس مع خصوم الإسلام من النصارى ضد جيرانهم المسلمين. وبالجملة

---

6) القسم الثالث نشر إبراهيم الكتاني ص 225.

7) كتابنا تاريخ شالة الإسلامية 231 والاستقصا 3/2 والروايات الأخرى ص 4 وعن أسباب استعمال اللثام انظر المغرب عبر التاريخ 1/165 ـ 166.

8) المغرب الكبير للسيد سالم ص 694.

9) تفاصيل حالة التقسيم والانقسام السياسي بالشمال الإفريقي والأندلس بالمسالك والممالك للاصطخري المؤرخ المعاصر المتوفي في النصف الأول من القرن الرابع. طبع القاهرة 1961 ص 36 /37 ديار المغرب.

10) مهدية إفريقية أسسها العبيديون قبل ارتحالهم إلى مصر. خلاف مهدية المغرب الأقصى التي أسسها الموحدون كنواة لرباط الفتح. وخلاف مهدية المغرب الأقصى التي استرجعها اسماعيل العلوي.
عن مهدية إفريقية راجع المسالك والممالك للاصطخرى ص 33 والعمارة الإسلامية المبكرة بالانجليزية لكريسويل وورقات لحسن حسني عبد الوهاب مؤرخ تونس المعاصر.

11) د. إبراهيم حركات المغرب عبر التاريخ 1 / 161

12) وزير وحجت [illegible] على دولة المستنصر.

فقد كان الصراع على أشده بين الشرق والغرب أي بين الإسلام والمسيحية.

في ذلك الغسق الذي أضحى ظلاما انبثق نور المرابطين ولاح الأمل يبزغ في أقصى جنوب المغرب الأقصى فيما وراء جبال درن. وما هي إلا لمحة عين حتى ولدت دولة إسلامية موحدة عملاقة وحدت المغرب وأعادت إلى جناح الإسلام الغربي أرضه الضائعة وملكه السليب بشبه الجزيرة الايبيرية.

كان الغرب الإسلامي الإفريقي موطن الرجاء. وقد مر في المغرب الأقصى بدور النشوء الإسلامي العربي منذ الفتح الأول للإسلام أيام الأشراف الأدارسة ومن بعدهم الزناتيين ليعرف المغرب الأقصى دور التكامل والوحدة (13) وطنيا واقليميا واسلاميا ووطنيا. بأن تم للإسلام توحيد المغرب الأقصى في وحدة كلمة متكاملة نهائيا شمالا وجنوبا لأول مرة. واقليميا. بفضل المرابطين في توحيد الشمال الإفريقي. واسلاميا بإعادة الأراضي المنتزعة من مملكة الإسلام بالأندلس إلى حظيرة الأم الإسلامية الكبرى. ولا شك في أن تلك الأحداث التي يديرها ويوجهها المرابطون لم تكن دون احتكاك في الفكر وتلاقح في الثقافة والإنتاج الفني والمادي من صنائع وفنون ومنتجات وبنايات.

ثالثا : رقعة مملكة الاسلام الغربية في عصر المرابطين :

يبدأ بعهد يوسف بن تاشفين (453 ـ 500) دور العظمة الحقيقي في تاريخ الدولة المرابطية ففي عهده اختطت مدينة مراكش سنة 454 هـ (1062م) كعاصمة لمملكة المرابطين وتم فتح فاس الأول ثم الأخير سنة 462 هـ (1070م) (14) واخضع طنجة وسبتة سنة 470 هـ (1078م) وأرسل قواته شرقا ففتحت المغرب الأوسط واستولى يوسف بن تاشفين على تلمسان. وعندما استصرخه مسلمو الأندلس جازت قواته إلى بر العدوة وكان انتصاره الإسلامي الكبير الذي هز الغرب المسيحي وأحدث به رجة كبرى على إثر هزيمة النصارى في موقعة الزلاقة سنة 479 هـ (1086م) قرب بطليوس (15) كما جاز يوسف بن تاشفين إلى بر العدوة الأندلسية بعد ذلك لإصلاح حال ملوك الطوائف والذود عنهم ثم حسم الداء وبتر عضو الرجل المريض فيما وراء المضيق بضم الأندلس إلى المغرب لضمان حمايته العسكرية والسياسية والابقاء على سلامة المسلمين بشبه الجزيرة الإيبيرية من طمع جيوش النصارى وتخاذل أمراء المسلمين.

يقول مؤرخ المملكة المغربية المعاصر الأستاذ عبد الوهاب بن منصور أن البطل المغربي يوسف بن تاشفين ما كاد يموت سنة 500 هـ (1107م) حتى كانت أحكام المرابطين سارية من وسط السودان إلى وسط الأندلس ومن جزائر بني مزغنة إلى المحيط الأطلسي (16).

رابعا : أهمية دولة المرابطين :

بقيام دولة المرابطين انتقل المغرب الأقصى إلى طور تاريخي جديد يستمر طوال عصر المرابطين والموحدين يمكن أن نسميه بعصر التكامل والوحدة. ذلك العصر الذي تلى مرحلة النشوء الإسلامي العربي التي عرفها المغرب سنوات الفتح الإسلامي وطوال حكم الأشراف الأدارسة أصحاب الطبقة الأولى.

وهكذا كان (اثر المرابطين في الحياة السياسية والاجتماعية عظيما فهم الذين انشأوا بالمغرب الأقصى. على إنقاض الإمارات الزناتية الصغيرة المتنازعة (17). مملكة قوية جمعت شمل أهله ووحدت كلمتهم. فاستطاعوا في فترة قصيرة أن يبسطوا السلطة والنظام في جزء من المغرب الأوسط ويصدوا غارات النصارى على بلاد المسلمين بالأندلس. ويقضوا على فوضى امارات الطوائف التي شجعت بتفرقها وتخاذلها على ذلك فصارت العدوتان وطنا واحدا) (18).

(13) عرض جيد وممتع لعصر النشوء الاسلامي ثم عصر التكامل بالمغرب بمقال الوزير الأديب البحاثة الأستاذ محمد العربي الخطابي، مجلة المناهل الرباط 18 عدد يوليو 1980 ص 78 / 111 بعنوان (المغرب ومكانه من العالم الإسلامي) خاصة ص 91 وما بعدها + 99 وما بعدها.

(14) فتح فاس بروض القرطاس 2 / 43 ـ 44 والاستقصا 2 / 29 وكتابنا تاريخ شالة الإسلامية 241 ـ 243 «ففي سنة 462 هـ سقطت فاس في يد المرابطين بصفة نهائية وتم تخريب شالة وزوال مملكتها». وعن فتح فاس ووضعها تحت حكم المرابطين : بحث الأستاذ محمد بن تاويت (سبتة الأسيرة) مجلة البحث العلمي رقم 25 عدد يونيو 1976 الرباط. الفصل الثالث من البحث ص 132.

(15) قبائل المغرب 1 / 124 ـ 125. وعن الزلاقة أعمال الاعلام القسم الثالث 251 وبالقرطاس 2 ، استنجاد المعتمد وجواز ابن تاشفين برسم الجهاد وموقعة الزلاقة ص 47 ـ 53. والاستقصا الغزوة الكبرى بالزلاقة 2 / 30. وعن الزلاقة انظر المعجب للمراكشي ص 130 ـ 135.

(16) قبائل المغرب 1 / 124 ـ 125 وكتابنا أصحاب الميمنة ، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صانع أكبر نصر للإسلام بالأندلس ص 63 وما بعدها وعن الزلاقة ص 66.

(17) التي عاصرت اضمحلال دولة الأدارسة الأولى بفاس والثانية شمال المغرب.

(18) قبائل المغرب 1 / 125.

ولا شك أن تلك الحقائق تعنينا عند دراسة الحضارة المعمارية والفنون (فلقد كان لذلك التوحيد فائدته في زيادة التمازج والتعارف والتبادل بين سكان هذه المملكة الفسيحة كما كانت له فائدة في انتشار الثقافة العربية وازدهار الحضارة الإسلامية) (19).

لقد تم للمرابطين تطهير المغرب تطهيرا نهائيا من بدعة برغواطة الكفار وتحقيق وحدة المغرب الأقصى لأول مرة بعد انقسام مملكة الأدارسة صدر امامة المولى محمد الأكبر ابن ادريس الثاني وطوال الفترة الزناتية التي كاد أن يجمع المؤرخون على تسميتها بالعصر الغامض (20).

تحققت الوحدة كما تحقق العدل وتحقق الرخاء. يقول ابن أبي زرع في روض القرطاس عن وحدة ملك علي بن يوسف بن تاشفين (وملك جميع بلاد المغرب من مدينة بجاية إلى بلاد السوس الأقصى وملك جميع بلاد القبلة من سجلماسة إلى جبل الذهب من بلاد السودان وملك بلاد الأندلس شرقا وغربا، وملك الجزائر الشرقية وميورقة وبياسة وخطب له على ألفي منبر ونيف وثلاثمائة منبر وملك من البلاد ما لم يملكه والده لأنه وجد البلاد هادئة والأموال وافرة والملك قد توطأ والأمور قد استقامت (21) وهو خير دليل على سعة الملك واستقرار الأمن وتوفر الخيرات وكثرة الأموال والرخاء. وبالجملة كل ما يطبع في التاريخ مسيرة المرابطين بالحضارة والعمران.

لقد أكد الشيخ أبو العباس الناصري السلاوي صاحب الاستقصا ذلك كله بقوله (كانت لمتونة قوما غلبت عليهم البداوة وكانوا مع ذلك أهل دين متين. وكان لهم بالمغرب والأندلس ملك عظيم... ولم يجر في عملهم طوال أيامهم رسم مكس... ولا خراج لا في بادية ولا في حاضرة... وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن وتناهي القمح في أيامهم إلى أن بيع أربعة أوسق بنصف مثقال... والقطاني لا تباع ولا تشترى... وكثرت الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة (22)...).

خامسا : فضل المرابطين على الفن (الفن المغربي الأندلسي (23).

لقد كان عصر المرابطين (من أهم الفترات التي التقى فيها المغرب بشبه الجزيرة الايبرية. ولكنه شائك لأن عهد هؤلاء المرابطين بصفة عامة من حيث علاقتهم بالأندلس. طرح طرحا مغلوطا... ويتجلى الأمر من الأحكام المختلفة التي صدرت ضد المرابطين، تدينهم ـ لصحراويتهم وفقهيتهم ـ بعدم العناية بثقافة الأندلس وحضارتها، وترميهم بالعجز عن هضمها والعمل على تحطيم ما عرفته الأندلس في هذا المضمار من قبل... والمتأمل لهذه الأحكام لا يلبث أن ينتهي إلى أنها ناتجة عن مواقف مسبقة غير صحيحة... كمواقف صدرت معاصرة للمرابطين وقد اتخذت ضدهم وضد الفقهاء خاصة باعتبارهم طبقة حاكمة... ومثلها المواقف التي صدرت عن الذين كانوا ينعمون في قصور أمراء الطوائف... ومن إليهم من أدباء المعارضة في هذا العصر... ومواقف موحدية عبر عنها الموحدون أنفسهم بوصف المرابطين بالمجسمة (المبطلين)، وكذلك الموالين لهم من المؤرخين وغيرهم كالمراكشي.... ومواقف متأخرة... بدوافع وطنية... ودوافع وطنية دينية على حد ما نجده عند معظم المستشرقين الاسبان (24)).

وقد مر بنا أن المرابطين قضوا على فكرة القبليات وتعدد القيادات وانقسام التراب الوطني **وحققوا وحدة سياسية تحت لواء وحدة مركزية على نحو يلتزم به المغرب الى اليوم.** حققوا وحدة المغرب الأقصى لأول مرة، وفي نفس الوقت نجح المرابطون في تحقيق وحدة العدوتين المغرب والأندلس. بل نجحوا في تحقيق وحدة المغرب العربي إلى جزائر بني مزغنة فانفتح الطريق إلى تبادل التأثيرات مع فنون وصناعات أبناء عمومتهم الصنهاجيين بأراضي بني زيرى وبني حماد (شرقا) (25). كل ذلك كان بالإضافة إلى استقرار الأمن وتوفر الرفاهية وقيام العدل ونشاط وظيفة الحسبة التي شملت على عصر المرابطين القيام بمهام

19) نفس المصدر، وعن مشاهير رجال الفكر كالقاضي عياض السبتي وابن رشد المعاصرين لدولة المرابطين انظر المغرب عبر التاريخ 1 / 220 ـ 221.

20) راجع كتابنا تاريخ شالة الإسلامية للوقوف على تفاصيل صراعات الإمارات الزناتية فيما أسميناه بالعصر الغامض بين عصري الأدارسة والمرابطين.

21) القرطاس 2 / 78 ـ 79. Hispano Mauresque

22) الاستقصا 2 / 94. L'art Hispano Mauresque

23) يصر المستشرقون المتعصبون على تسميته
كما يفعل تيراس ومن نحا نحو من المقلدين العرب، هنري تيراس نفس المصدر ص 223.

24) دكتور عباس الجراري : تطور الأدب الأندلسي في عهد المرابطين، عدد 16 مجلة المناهل الرباط ديسمبر 1979 ص 39 ـ 53.

25) Golvin : le Magrib Central à l'époque de Ziras – Paris
أبحاث أثرية تاريخية كتب جورج مارسيه بها مقدمة عن تاريخ مملكتي بني زيري وبني حماد الفصل 1 وصف مسرح الأحداث ثم دور صنهاجة ابتداء من زيري بن مناد ص 28 وبلقين بن زيري ص 29، زناتة ص 30، مغراوة ص 53، الفصل 2 الأوضاع بشمال إفريقيا أواخر ق 3 هـ وظهور الفاطميين اص 47 . الفصل 3 الحماديون أبناء بلقين بن زيري ص 97 + 104 + انهيار دولتهم 120.

التعديل والإضافة اللازمة في المساجد والمباني العامة باتفاق مع أمير المسلمين على غرار ما فعل قاضي فاس سنة 529 هـ من زيادة مسجدها الجامع وكذلك زيادة القاضي عياض في جامع سبتة من جهته الغربية.

وفيما يتعلق بالعمارة والفن كان للمرابطين فضل كبير في قيام تجمعات عمرانية هامة مثل تلمسان ومراكش كما فتحوا طريق التلاقح الفني شرقا وشمالا.

فمن ناحية الشرق كانت الجسور قائمة في شكل تجمعات عمرانية لنقل وتبادل التأثيرات المعمارية والفنية بين المغرب الأقصى ودول المشرق العربي عن طريق بجاية وقلعة بني حماد وأشير (26) وجزائر بني مزغنة ومليانة والمدية وغيرها. وكانت تلك الجسور تسمح بعبور الروافد الفكرية والفنية في نطاق ما تسمح به الأوضاع السياسية.

فابتداء من تفوق المرابطين الصنهاجيين السياسي والعسكري منذ فتح سجلماسة سنة 447 هـ وفتح أغمات وتملك تامسنا سنة 449 هـ وبداية حكم يوسف بن تاشفين سنة 453 وتأسيس مدينة مراكش سنة 454 هـ ودخول المرابطين الأخير والنهائي لمدينة فاس قاعدة المغرب التاريخية سنة 462 هـ وإلى نهاية أيام المرابطين على يد الموحدين سنة 539 هـ كانت العلاقات قائمة مدا وجزرا مع المغربين: الأدنى والأوسط خاصة إذا ما تنبهنا إلى وجود أبناء العم الصنهاجيين بإفريقية والمغرب الأوسط ووقفنا وقفة متأنية للنظر في آثارهم المعمارية والفنية التي كانت همزة الوصل بين الأساليب والطرز العربية بالمشرق العربي ونظيرتها بالمغرب الأقصى، الأمر الذي يدفعنا إلى إلقاء نظرة موجزة على أحوال المغربين الأدنى والأوسط.

كان العبيديون قد أنابوا عنهم بلقين بن زيري (27) بجميع إفريقية قبل التوجه إلى مصر سنة 361 هـ وكان والد بلقين وهو زيري بن مناد قد بنى مدينة أشير (28) جنوب الجزائر وقيسارية لما استقل بولاية الزاب سنة 324 هـ وسميت اشير زيرى وقد وصفها البكري، وكان زيرى قد جدد مدينة مليانة من عمل الجزائر وأسكنها ابنه بلقين وأصلها مدينة رومانية ذات آثار وصفها البكرى كذلك.

وكانت قبائل بني مزغنة قد استقرت بموضع مدينة الجزائر التي خربتها هجمات الوندال فبنى بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي مدينة دعاها جزائر بني مزغنة (29) خضعت القبائل العربية في القرن الخامس وعصر المرابطين كما أعاد بلقين بناء مدينة المدية جنوب غرب الجزائر (30).

وأيام باديس بن المنصور بن بلقين الصنهاجي (المكنى بأبي مناد) نهضت عليهم زناتة للحرب والمخالفة فاستغاث باديس بعمه حماد سنة 405 هـ ثم وقع الخلاف وانقسام الملك الصنهاجي إلى كرسيين ، كرسي به المعز بن باديس بالمهدية وآخر به أولاد القائد حماد بقلعة بني حماد وبجاية **Bougie** (31).

---

26) عن بجاية وقلعة بني حماد وأشير راجع أبحاث **L. Golvin** عن المغرب الأوسط في عصر الزيريين ، تأسيس بجاية ص 113 + 192، الفصل 4 المجتمع والفنون الاسلامية ص 157، الملابس. قصر زيري في اشير ص 180 ثم ص 1983 عن تأسيس قلعة بني حماد ومسجد القلعة والصومعة. وراجع عن القلعة وبجاية حفائر قلعة بني حماد للجنرال دي بايلي الفصلين 3 + 4.

27) هو ابن زيرى بن مناد الذي كانت له الرئاسة في صنهاجة بالمغرب الأوسط وهو الذي بنى اشير جنوب الجزائر، انظر أعمال الاعلام للسان الدين بن الخطيب القسم الثالث نشر بروفنسال ص 63.

28) قبائل المغرب 1 / 165 وتعليق 31، تقع هذه المدينة إلى الجنوب الشرقي من مدينة البروالية ولا تزال اطلالها باقية إلى اليوم عند الكاف الأخضر على المنحدر الجنوبي الشرقي لجبال تطرى انشئت 324 هـ 936م.

29) لوجود جزائر صخرية كانت أمام المرسى، كتبها الاصطخري النصف الأول ق 4 هـ (جزيرة بني مزغنا) المسالك والممالك طبع القاهرة 1961 ص 33، وكتبها المقدسي في أحسن التقاسيم ص 217 (جزيرة بني زغناي)، وكتبها ابن أبي زرع في القرطاس (جزائر بني مزغنة) القرطاس 2 / 37.

30) أعمال الاعلام القسم الثالث ص 63 ـ 64.

31) قبائل المغرب 1 / 166 ـ 167 وأعمال الاعلام قسم 3 ص 75 ـ 76، وعن قلعة بني حماد وبجاية راجع الدراسة المفصلة للجنرال دي بايلي ،

G. de Beylie : Kalaâ des Beni Hammadas 1909.

فصل 1 ص 6 حماد أسس القلعة (القصر) 398 هـ 1007 م حوالي نهاية القرن 4 هـ اكمل بناء المدينة وزودت بمساجد ومبان عامة واسوار وازدهرت الحياة وانتعش العمران. ص 9 تطور الحياة بالقلعة بعد تخريب القيروان ووصف البكري تجارتها مع قوافل مصر والعراق وسوريا والحجاز. الفصل 3 وصف اطلال القلعة (الاسوار مبنية بالحجارة بسمك 20، 1 م ـ 1،60 م بطول 7 كم. ص 35 مجاري المياه والخزانات ص 38 ـ 39 قصر المنار او الفنار (بناء مربع ضلعه 22 م اعلاه جهاز كمرآة للاتصال نهارا وتتم الرسائل ليلا بالنار. ومثل ذلك ببجاية ومدن الساحل لتبادل الرسائل على طول مراكز الحراسة بالبلاد.

ص 53 قصر الأمراء ويشتمل على ثلاثة قصور متميزة تفصل بينها مساكن أخرى واروقة وبساتين وخزانات مياه ويسمى أكبرها بدار البحر. ص 77 مسجد القلعة وكان يشتمل على صومعة لازالت آثارها قائمة وشهيرة. والمسجد كبير الساحة يغطي مستطيلا أبعاده 66 × 54م. الفصل 4 دراسة عن مدينة بجاية **Bougie** ص 93 تاريخها وقد أسسها 1067م السلطان الناصر الحمادي فوق آثار مدينة رومانية قديمة وقد سماها الناصرية، لكنها حملت اسم القبيلة البربرية التي كانت ضاربة بتلك النواحي، ويذكر ابن خلدون أن الناصر بنى قصرا بارتفاع عجيب حمل اسم قصر الجوهرة ص 98 وصف مدينة بجاية في العصر الحمادي.

وعندما خلع المعز بن باديس دعوة الشيعة الفاطميين وخطب العباسيين وانحاز إلى مذهب الإمام مالك أرسل المستنصر بالله الفاطمي عرب بني هلال وسليم في حملة تأديبية. وبهذا أيضا لم تنقطع التيارات والاتصالات والمؤثرات الفكرية والفنية بين شقي العالم الإسلامي بالمشرق والمغرب وها هو مؤرخ المملكة المغربية يقوب بأن (ارتباط آل زيرى الاسمى بالخلافة في المشرق أفاد التعريب كثيرا إذ استمرت الوفود تتنقل بسهولة ما بين المشرق والمغرب العربيين كما ظلت معاهد القاهرة وبغداد والحرمين الشريفين مفتوحة في وجه الطلاب المغاربة وأتيح للحضارة العربية أن ترسخ سيما بعد أن هاجر الأعراب الهلاليون إلى هذه البلاد التي أخذت بهم طابعها العربي النهائي).

لقد عنيت هنا بالإشارة إلى مراكز العمران ومحاور الأحداث السياسية والعسكرية بالمغربين الأدنى والأوسط لحتمية دراسة المغرب العربي ككل متكامل وضرورة النظر في حضارة الغرب الإسلامي كواحد لا يتجزأ ثم لنستبين على ضوء ذلك كله فضل المرابطين الذين فتحوا الطريق نحو الشرق لاستلهام التأثيرات المعمارية والحضارية عبر الجسور المتتابعة على طول الشمال الإفريقي إلى القاهرة (32) ومن وراءها بغداد ودمشق ونتاج تفاعل الفنون الإسلامية المشرقية.

أما بالنسبة إلى الأندلس، فإن لم يكن للمرابطين فضل على الحضارة الإسلامية إلا ذلك الحصاد الرصين والرقيق الأنيق في ذات الوقت، الناتج عن ضم الأندلس إلى المغرب في وحدة حقيقية سياسية وعسكرية وفكرية وحضارية لأول مرة تحت حكم مركزي قوي يوقف الزحف العسكري النصراني ويطيل عمر الحضارة الأندلسية في رحاب السمو الإسلامي والتقدم المزدهر الذي عاشت عليه إسبانيا بعد زوال حكم الإسلام بها لعدة قرون. لكفى ذلك المرابطين فخرا في مجال مزج العبقريتين الإسلامية المغربية والإسلامية الأندلسية بميراثها اللامع.

ان الحصاد الحضاري الذي جنته مملكة الإسلام بالعدوتين المغرب والأندلس على السواء كان نتيجة جهاد المرابطين داخل القارة الأوروبية ذاتها. ولا زال ذلك التراث إلى اليوم أساس جميع فنون العمارة والصناعات التقليدية بالمملكة المغربية وريثة ذلك التراث.

ونحن لانبالغ أن قلنا أن الحضارة الاسبانية المعاصرة لازالت تعيش على ذكريات ذلك التراث وتستضيء بوهج تفوقه المشرق من وراء القرون ليلقى ضوءه القوي على مسيرة الحضارة والفن باسبانيا النصرانية ومن وراءها بقية القارة الأوروبية. تماما كما هو الحال في بلدان إفريقيا الغربية عبر الصحراء المغربية.

الدكتور عثمان عثمان اسماعيل



32) ذكر الجنرال دي بايلي في كتابه قلعة بني حماد الذي نشر فيه نتيجة حفائره ان عدة قطع من الفخار والخزف ذي البريق المعدني عثر عليها بموقع الحفائر ومن داخل قصر الأمراء وكان على بعضها نماذج لرسوم حيوانية وكان البعض من الخزف ذي البريق المعدني قد عرف بواجهة المحراب بالمسجد الجامع بالقيروان من القرن الثالث الهجري وجد فخار من نفس الاسلوب بالبريق المعدني بالقاهرة من القرن الخامس. فإذا أضفنا نتيجة أبحاث دي بايلي إلى ملاحظة ([illegible]) في أبحاثه التاريخية والأثرية بالمغرب الأوسط من حيث تبادل التأثيرات. فإنه يتضح لنا كما نرى في الشكل 22 هنا مدى التأثير المصري في تصميم الأزياء والملابس التي وجدت على الخزف المصري الفاطمي وانتقلت إلى المغرب الأوسط لتبدأ رحلة جديدة مع المرابطين في الاتجاه غربا للتأثير والتأثر بفنون المغرب الاقصى.

في الشعر الصوفي:

لا يأس من رحمة الله!

للأستاذ الشاعر محمد بن محمد العليمي

أيها المنهك العميق الجـــراح، من كوته قذائـــف الأتـــراح،
دمعة أنت في الوجـود تقاسي كل لحظ «تشقى» مهيض الجناح،
قد ثكلت الصبر الجميل، وقد صـــرت من الهم، في مهب الريـــاح،
كن وطيد الإيمان بالله حقـــا، وتشبث بالمعطيات الصحـــاح!
ما أراد الإله كـــان بلاريـــــب، وما دون ذاك غير متـــاح
إن بالصبر قد تطيـق احتمـالا للعثار النكراء في كـل ســاح
وسجود العبد المضـــام لمولا ـ ه، به القلب في المعيـة صاحي
وتـــذوب الجبـال خوفـا من الله تعالى، إذ هو عيـــن الصـــلاح
ليس من قوة ســواه استطاعـــت أن تقود الأكوان نحـو الفـــلاح
والأسير الشريد يرجو خلاصـــا من مليك الملـــوك، رب الســراح
كل شيء نلقاه خيرا وشـــرا، فهو من قسمة القضـــاء الصـــراح
أي ليل يطول في الهـــم والحـــز ن، سيأتي صباحـــه بانفتـــاح
فعلام اليأس المحطـــم أســـا للحياة البهيـــة الألـــواح ؟!
فالطريـــق المسدود يفتحـــه اللـــــه، بعفو منه، وحـــن سمـــاح
والوجود الجميل يبقى جميـــلا في ظلال الإيمان، رحـب المناحي
رحمة الله نغمـــة فـــي صداهـــا بسمة قد محت ســـواد النـــواح

إن باب الله الكريـــم دوامـــا، واسع الفضل في جميــع النواحـي
من يثق بالإله حـــا وممنـــى، عاش طبعا في راحـــة وانشـراح
وليكن ما يكون، فاللـــه حـــي، مستجيب لعبـــــده الملحـــاح
وذر الكائدين فيمـــا نـــووه، فهمو أهـل شقـوة وطـــلاح
إن ستر الإله ستـــر جميـــل، والعباد الضعـاف أهـل افتضـاح
من حباه الرحمان صبـرا جميـلا، فلقد صانـه بأقـوى ســـلاح
وانشغال القلـوب باللــه بشـرى بخــلاص الأشبـــاح والأرواح
إن تقوى النفـــوس فيهـــا أمان، والسلام المنشـــود في الإيضـاح
كل أمر بالكـاف والنـون فـورا، فيه للمستغيـث بـاب ارتيـــاح
سنـة اللـه في الحيـــاة، فـلا ينــــجاب ليل إلا أتـــى بالصبـــاح
وذوو الإفك يخســرون نفـــوسا لهمو في متاهـــة وصيـــاح
أي يـأس يبقى مـــع الأمـل الرحـــــب فكم في الله من مستـــراح !!!
يغفر الذنب، يرأب الصدع حقـا، فيعيش الفـــؤاد في الأفـــراح
قدري قد رضيتـــه من حكيـــم، فرج الكـرب، بالتئـام الجـراح !
أملي فيه وحـده قـــد تجلـــى، إذ هو اللـــه ضامـــن الأربـــاح
إن عفـو الحليـم، رحمتـــه الكبــــــرى، دليـل على الجايـا الملاح

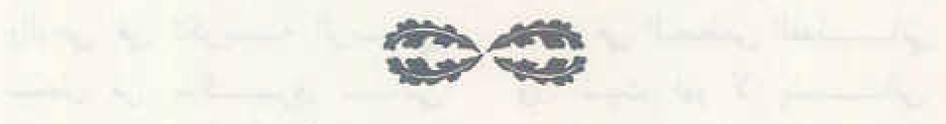
سُبْحَانَ رَبِّي

سبحان ربـــي واســـع الاحســـان، سبحان ذي السمـــاح والغفـــران
سبحان من يلطـــف بالأكـــوان، من حمده في القلـــب واللســـان
وشكره فـــرض علـــى الشكـــران، سبحانه من محســـن رحمـــان !
سبحان من يعطـــي بلا امتنـــان، فهو المهيمـــن عظيـــم الشـــان
قد جمع الآيـــات في الإنســـان، وصاغه معجـــزة الأزمـــان
علمـــه فضيـــلة البيـــان، وجوهر التعليـــم في القـــرآن !
والوحي في تكريمـــه الربـــاني، جمعه في المصطفى العدنـــاني !
سبحان من بذكـــري سبـــاني، وإن نسيت فهو لا ينســـاني !
سبحان من في حفظـــه وقانـــي، إن رامني نـــزغ من الشيطـــان !
وفضله يـــزداد في كيـــاني، فهو معي بلطفـــه حمـــاني
فطاعتـــي في العمـــق أو عصيـــاني، عند جمالـــه همـــا سيـــان !

سبحان من يسكن في الجنان، ومن هو العنوان للإيمان !
فالحمد لله الذي هداني، ومن كواثر الندى سقاني
إذا بكيت خشعة كفاني، وإن دعوته فقد لباني

سبحان من هو إذا أدناني، فلا يهمني الذي جفاني !
وفي المعية قد اجتباني محض الهوى للمبدع الحنان
سبحان ربي المحسن المنان ! سبحان ربي الملك الديان !
سبحان ربي ساطع البرهان، من أكرم الإنسان بالسلطان
ما أدركته أجمع الأذهان، فهو فوق الظن والحسبان ؛
والنور في القلب بلا نكران، فأين منه نظرة الأعيان ؟!
وهو منزه عن النقصان، فهو الكمال، رمزه : سبحاني !
والذات فيها ألطف المعاني، والله وتر، ماله من ثان
سبحان من نراه بالوجدان، يدعو إلى الأمن والاطمئنان
ففي رضاه جنة الرضوان، تطفح بالنعماء، والأمان
إذ تجلت بسمة الحنان منه، فبشرى بالحبيب الداني !
شواهد التمجيد والعرفان، ظاهرة حقا مدى الأزمان !
فقل لمن في بحثه يعاني : إن التقى جوهرة الألوان !
وفي التخلي حلية الشجعان، وفي التجلي صحوة اليقظان !
فلن يزول عطش الظمئان، إلا بمحض العشق والتفاني !
من كان يعتصم بالرحمان، فإنه الرابح في الرهان !

الرباط — محمد بن محمد العلمي



قراءة مختصرة لكتاب

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها

خلال القرن 10 الهجري 16 الميلادي

تأليف: الأستاذ عبد القادر العافية
عرض وتقديم: الأستاذ محمد بركاز

صدر أخيرا عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية كتاب عن: «الحياة السياسية والإجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي» لمؤلفه الأستاذ الباحث السيد عبد القادر العافية وبتصدير من السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الذي قال عن الكتاب إنه «ليعد بحق من خيرة البحوث والدراسات القيمة النادرة التي اهتمت اهتماما بالغا بموضوع الحياة الفكرية في فترة من تاريخ أمتنا العربية الإسلامية بالمغرب وفي ناحية مهمة من هذا المغرب بالشمال على الخصوص هي اقليم شفشاون العزيز...) الخ. ص: 3.

والكتاب هو في الأصل عبارة عن رسالة تقدم بها الأستاذ الباحث لنيل دبلوم الدراسات العليا بدار الحديث الحسنية بالرباط عام 1400 هـ / 1980 م.

يحتوي هذا الكتاب على مقدمة ومدخل تاريخ عن منطقة شفشاون مع لمحة سياسية لهذه المنطقة، وثلاثة أقسام ثم الخاتمة فقائمة لأهم المراجع والمصادر المعتمدة في البحث مرتبة ترتيبا هجائيا مع فهرس عام عن موضوعات الكتاب ففي المقدمة عرض الباحث للحافز الذي دفعه إلى الاهتمام بهذا الموضوع الصعب، وإلى الصعوبات التي لاقاها أثناء عملية البحث فقال إن «الحافز على هذا البحث في هذا الموضوع الصعب هو إيماني بعراقة وأصالة ثقافتنا العربية الإسلامية، وإيماني بتغلغل حب الثقافة في أعماق هذا الشعب المسلم سواء سكن الحواضر الآهلة بالسكان وبمظاهر الرقي والتحضر أو سكن الجبال المرتفعة والأماكن النائية إيماني بذلك كله - كما يضيف الباحث - جعلني أتحمل صعوبة هذا البحث ومشاقه، تلك الصعوبات التي تجلت في ندرة المصادر والوثائق وفي صعوبة قراءة القليل الموجود منها من مخطوطات وتقاييد وكنانيش عبث الزمان بها وبكثير من صفحاتها وحروفها».

وإلى جانب هذه الصعوبات هناك صعوبات أخرى تتمثل أساسا حسب رأي المؤلف - في «أن المادة المكونة لهذا البحث تلتقط من مصادر لاتمت إلى الموضوع بصلة ككتب النوازل والفتاوي الفقهية وكاستطرادات كتب الفقه والمعلقين عليها وكتب التراجم وسير الصالحين وفهارس الشيوخ والتقاييد الشخصية للأفراد والأسر».

ولتزكية هذا المجهود الجبار الذي قام به المؤلف في هذا الميدان ننقل عنه ماقاله مؤرخ تطوان الأستاذ محمد داود - شفاه الله - عندما حاول التأليف في هذا الموضوع الصعب. فقد قال بالحرف «هذا فصل لانستطيع أن نكتب فيه سوى كلمة مختصرة فقط لأننا لم نجد من المستندات والمعلومات ما يسمح لنا بالافاضة في القول».

ثم عرض بعد ذلك للوصف الطبيعي لهذه المنطقة فذكر أن «منطقة شفشاون هي اقليم من أقاليم الشمال الغربي لجبال الريف بالمغرب الأقصى. وهذا الاقليم يتسم بالسمات الجبلية ذات التضاريس الوعرة والانحدارات المفاجئة والأودية المنخفضة والانكسارات الحادة... الخ.

ثم إن «هذه المنطقة تتسم بصفة عامة بكثرة الصخور وبالمظهر الغبوي الجميل والجبلي الصعب».

وفي المدخل التاريخي لمنطقة شفشاون أكد الباحث أن هذه المنطقة عرفها الإنسان منذ القديم بحكم قربها من أوربا ومن بوغاز جبل طارق و«تلقت هجرات بشرية من مختلف الأجناس كالفنيقيين والرومان والوندال وغيرهم...».

وأن السكان الأصليين فيها «هم من ضمن المجموعة القوقزية من شعوب البحر المتوسط» ص ، 21.

هذا وأن المنطقة ماتزال لحد الآن تحتفظ ببعض الآثار القديمة التي يرجع تاريخها الى ماقبل الفتح الإسلامي كالقنطرة الرومانية ب «تلمبوط» وقنطرة مدشر «ماكو) وقنطرة في الصبانين بالمدينة. وكآثار مدينة «تامودة» قرب تطوان وآثار مدينة «تيغيساس» و «ترغة»...الخ.

وبعد الفتح الإسلامي اتخذت المنطقة من طرف بعض القواد المسلمين مقرا لتجييش الجيوش الإسلامية وخاصة في عهد موسى ابن نصير وقائده طارق بن زياد.

ولازالت آثارهم لحد الآن تشهد بذلك فهناك مسجد موسى ابن نصير وسط قبيلة بني حسان الواقع في منتصف الطريق المؤدية من شفشاون إلى تطوان وهناك ايضا مسجد طارق بن زياد الذي يحمل اليوم اسم مسجد الشرافات وفي المنطقة قبور لعدد من القواد والفاتحين المسلمين كقبر القائد يلصو العثماني القرشي. وقبر القائد حبيب بن يوسف الفهري. والقائد محمد زجل القرشي الذي تنتسب اليه قبيلة بني زجل الغمارية.

وغير بعيد عن هذه المنطقة شرقا وعلى مقربة من بادس أسس القائد العربي سعيد بن صالح «إمارة بني صالح بالنكور» التي كان لها الصدى الكبير كامارة مستقلة عن الدولة المركزية في المغرب وعن دولتين قويتين في ذلك العصر احداهما في الشرق والاخرى في الغرب أي في الأندلس.

ثم يضيف المؤلف بأن من أبناء هذه المنطقة كان طارق بن زياد يختار جيوشه وأبطاله الأشاوش الذين توجه بهم لفتح شبه جزيرة ايبريا سنة (92 هـ).

وبعبارة موجزة فان تاريخ هذه المنطقة هو تاريخ شيق وحافل بالأحداث والوقائع. ومليء بالمفاجآت السياسية التي وقعت خلال الحقب التاريخية التي شهدتها هذه الناحية سواء تلك التي وقعت في عهد الأدارسة او في عهد المرابطين والموحدين أو في عهد المرينيين والوطاسيين ويرجع سبب تأسيس مدينة شفشاون بهذه الناحية الى الأحداث التي وقعت سنة 876 هـ / 1471 م والتي انتهت باحتلال مدينة أصيلا من طرف البرتغاليين مما دعا بالمجاهدين المغاربة إلى التفكير في اتخاذ موقع حصين ليصبح مركز تخطيط للعمليات الحربية وكان «المكان الذي وقع عليه الاختيار هو موقع مدينة شفشاون» حاليا. وهذا يفسر لنا - كما يقول المؤلف - ربط تاريخ تأسيس هذه المدينة بتاريخ احتلال مدينة اصيلا سنة 876 هـ / 1471 م.

وبعد تأسيسها أصبحت دار امارة ومركز تخطيط للدفاع والهجوم ومأوى لأسر المجاهدين. «واختير موقعها ليكون في مأمن من متناول الغارات البرتغالية وبذلك اصبحت شفشاون مركز قيادة ودار امارة ومكان تجمع للمجاهدين ومقر سكن لهم» ص ، 42.

وفي اللمحة التاريخية عن الوضع السياسي لهذا الاقليم في القرن العاشر الهجري وهي فترة تجمع بين العهدين الوطاسي والسعدي يبرز المؤلف في البداية مدى الصعوبات التي يلاقيها الباحث لهذه الفترة نظرا لعدم الاهتمام بتدوين أحداث هذه الفترة بصفة عامة. ولتشعب أحداثها تشعبا كبيرا وخاصة في هذه المنطقة موضوع البحث ولضياع عدد كثير من الوثائق الهامة في الموضوع.

ورغم كل ذلك فان المؤلف حاول ان يصور لنا الوضع السياسي العام للبلاد خلال هذه الحقبة. والوضع السياسي الخاص بالمنطقة فذكر أن امارة بني راشد كان لها نفوذ قوي خلال هذه الفترة بهذا الاقليم. وكان لها من الأبهة

والعظمة مثل ما للدول المستقلة فـ «الغنائد كانت تدخل شفشاون على يد ولاتها الأشراف بني راشد. وكان لهم اعتناء بذلك جدا. ويدخلونها في أبهة عظيمة وزي عظيم ومعها آلات عظام من آلات الطرب كالطبل والترجل والغيطة والأبواق. ويمر ذلك ويخرج اهل البلد رجالا ونساء وصبيانا بحيث لا يبقى في الدار الا مريض او صاحب عذر اعتناء بذلك واظهارا لمزية الإسلام على الكفر» (ص : 52).

واستمر نفوذ الامارة الراشدية في المنطقة حوالي قرن من الزمان الى ان قضي عليها من طرف السلطان عبد الله الغالب السعدي بواسطة جيش قوي بقيادة الامير محمد بن عبد القادر سنة 969 هـ / 1561 م. وبذلك دخلت منطقة شفشاون تحت النفوذ السعدي بصفة نهائية.

وفي القسم الأول من الكتاب الذي خصه الباحث لشفشاون وأحوازها يتناول فيه بكيفية دقيقة ومفصلة المباحث التالية على التوالي : مدينة شفشاون، وبني راشد مؤسسي هذه المدينة. والحالة الاجتماعية بالمنطقة وظاهرة التصوف بها خلال هذه الحقبة ثم العنصر اليهودي بهذه الناحية مع دراسة عن المرأة في هذا الاقليم.

ومما قاله عن سبب تاسيس مدينة شفشاون كما جاء في نشر المثاني «ان شرفاء العلم اختطوا مدينة شفشاون بقصد تحصين المسلمين من نصارى سبتة اذ كانوا بعد استيلائهم عليها يتطاولون على تلك المداشر» ص : 63.

ومن اجل ذلك روعي في تاسيسها امران هامان هما :

1) البعد عن المناطق المهددة باخطار الهجومات المتوالية من طرف البرتغاليين.

2) الحصانة والمنعة الطبيعية حتى لاتباغت المدينة بسهولة. ولا ننس ما ذكر سابقا من ان تاسيس المدينة كان بعد احتلال اصيلا مباشرة من طرف البرتغال.

وعن بني راشد مؤسسي هذه المدينة قال المؤلف : «هذه الاسرة من الشرفاء العلميين من ذرية الشيخ الأكبر عبد السلام ابن مشيش الذي هو من ذرية المولى ادريس الأصغر ابن المولى ادريس الأكبر بن عبد الله ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي كرم الله وجهه» ص : 82.

وعن مؤسس المدينة الأمير علي بن راشد يحدثنا صاحب الكتاب فيقول «استمر علي بن راشد اميرا على شفشاون واقليمها مدة طويلة تقدر بنحو اربعين سنة الا انه بالرغم من طول هذه المدة فان المصادر لاتحدثنا عنه الا باختصار كبير».

ثم ينتقل بعد ذلك الى الحديث عن ابنه الأمير ابراهيم الذي كان في نظر المؤلف من ألمع شخصيات هذه الأسرة اذ كان مثالا للاناقة والشجاعة واللباقة السياسية مما جعله يحظى بزواج اخت السلطان احمد الوطاسي «للا عائشة» على اثر المصالحة التي قام بها بين السلطان الوطاسي وبين ابن عمه مسعود الذي كان قد تمرد عليه واعلن العصيان بمكناس ومما نقل عن هذا الامير انه «عاش يحكم المملكة - هكذا - كامير عظيم وقائد منوه به من الجميع مسلمين ومسيحيين ويهود على السواء» ص : 108.

وتقلد الحكم من بعد موته اخوه القائد محمد بن علي بن راشد الذي كانت له علاقة ود وصداقة مع السلطان محمد الشيخ السعدي الذي اخرجه من السجن بفاس عندما تغلب على منافسه في الحكم ابي حسون الوطاسي الذي سجن الأمير محمد من طرفه. وفي عهد الأمير محمد هذا قضى السلطان السعدي عبد الله الغالب على امارة بني راشد وفر اميرها مع بعض افراد اسرته الى المدينة المنورة فاستقر بها وبذلك اسدل الستار على هذه الامارة بصفة نهائية.

واذا كان الستار قد اسدل على هذه الإمارة من الناحية السياسية بفرار اميرها محمد وانضمامها الى حكم السلطان السعدي عبد الله الغالب وبذلك ينتهي تاريخها. فان البحث لا يتوقف عند هذه النهاية بل يستمر لوجود بعض الشخصيات الراشدية التي عاشت خارج الامارة ومن اهم هذه الشخصيات شخصية نسوية برزت خلال هذه الفترة وهي «الست الحرة» التي حظيت - كما يقول المؤلف - بشهرة واسعة النطاق في الشمال الغربي من افريقية الشمالية. واعتنى المؤرخون الأجانب بالحديث عنها والتعرض بالذكر لايام حكمها بتطوان فهي اخت الأمير محمد القاروانية علي بن راشد مؤسس امارة بني راشد - كما سبق القول - وزوجة قائد تطوان المشهور محمد المنظري، ثم زوجة للسلطان احمد الوطاسي. وهي حاكمة

تطوان في فترة من تاريخ المغرب ومما قيل فيها من طرف بعض المؤرخيين ـ حسب نقل المؤلف ـ «انها كانت شديدة الانفعال. ففي احدى المناسبات تشاجرت مع حاكم سبتة فلجات الى العنف والحرب لانها كانت مهتمة بتجارة الرقيق من المسيحيين على مستوى عال وكانت سفنها دوما تجوب البحار. وكانت المراكب الجزائرية تلقى حفاوة بمرسى تطوان» ص : 135.

وهذه مجموعة من الحقائق تؤكد ماكان للمراة المغربية من قوة ودهاء في ميدان المعركة ضد العدو الغاشم.

وهناك ايضا شخصية اخرى وهي شخصية ابي العلاء ادريس ابن علي بن راشد. وكان اديبا وشاعرا قال فيه المقري «نشا هذا المولى ـ حفظه الله ـ بحضرة الامامة ذا اخلاق حميدة وسراوة نفس وإيثار وبذل وله نظم رائق وجملة ميلاديات يمدح بها امير المومنين مولانا المنصور بالله ايده الله..» ص : 141.

ويقصد مولانا المنصور السلطان احمد المنصور الذهبي. ثم ان بني راشد انقرضوا جميعا كما يؤكد ذلك المؤلف في ختام حديثه عن هذه الاسرة وحكمها في المنطقة وينقلنا الباحث بعد ذلك الى الحديث عن الحالة الاجتماعية في المنطقة خلال هذه الحقبة فيركز على بعض العادات السيئة التي كانت منتشرة بين السكان انذاك كعادة الوشم مثلا التي يقول عنها «كانت المراة توشم في ريعان صباها وكان النساء يباهين بالوشم ويفخرن به. وكان بعضهن يبالغن في استعماله بحيث يشمن اعضاء كثيرة من جسمهن كالذقن والجبين والعنق والكتف والذراعين واليدين والساقين والقدمين» ص : 154.

وكان الوشام «يتزين بزي يجمع بين زي النساء والرجال فهو يلبس الشاشية الحمراء من تحت العمامة البيضاء ويستعمل الكحل في عينيه ويصبغ شفتيه بلحاء شجرة الجوز كالنساء» ص : 155.

ويتولى أثناء عملية الوشم سرد الحكايات الخليعة والنوادر الوقحة ويحتفل به اهل المنزل ويقدمون له الطعام والشراب وترحب به ربة البيت. ولا تحتجب منه النساء. «وهو يمارس عمله عادة وسط المنزل وتجلس الفتاة بين يديه وهي في لباس خفيف لا يعوقه عن مزاولة عمله في الوشم» ص : 155.

وكان «الشباب يقصد بيت الوشام ليشاهدوه وهو يمارس عمله ويسمع الفتيات والفتيان حكاياته وقصصه ونكته الخليعة والفتاة بين يديه ـ يداعبها بلمساته اللطيفة ـ ويضحك من حوله بالنكت والنوادر» ص : 156.

كانت هذه العادة منتشرة الى جانب عادات اخرى اقبح منها كعادة تناول الخمر التي كادت ان تكون عادية تشرب في المجامع و«بمحضر المئات والآلاف» وعادة «الزفان» الذي كان يرقص ويغني غناء خليعا يضحك له الحاضرون. وكانت حفلاته حفلات ماجنة تصحبها الخمر ويصحبها رقص النساء.

وكانت عادتهم في الحفلات والولائم اختلاط النساء بالرجال ورقصهن امام الجميع تحت تاثير اصوات الزفان ونغماته بالاضافة الى ماكان يسود هذه الحفلات من مظاهر الخلاعة والتهتك حيث يقع التغرير بالشابات والجميلات من النساء.

هذه العوائد السيئة تجند لمحاربتها بعض المصلحين والمشايخ في المنطقة كالشيخ عبد الله الهبطي وغيره من رجال الصلاح والاصلاح.

والى جانب ماكانت تشهده هذه المنطقة خلال هذه الحقبة من مظاهر الخلاعة والانحلال كانت هناك ظاهرة اخرى على العكس منها تماما وهي ظاهرة التصوف. ففي هذه الفترة ازدهرت الحركة الصوفية بالمغرب وكثرت الزوايا والرباطات وتشبع المجتمع المغربي بالافكار الصوفية ولاسيما بطريقة الغزالي في التصوف.

ومساهمة هذه المنطقة في ميدان التصوف كانت مساهمة ملحوظة حيث نجد عددا من أقطاب التصوف ينتمون الى هذه الناحية مثل : الشيخ عبد السلام بن مشيش. والشيخ ابي الحسن الشاذلي والشيخ ابي الحسن علي بن ميمون الغماري الادريسي. والشيخ عبد الله الغزواني. والشيخ ابي المحاسن يوسف التليدي. والشيخ ابي زيد عبد الرحمان بن عيسى ابن ريسون. والشيخ عبد الله الهبطي وغيرهم» ص : 193.

فظاهرة التصوف إذن كانت من الظواهر السائدة بين أفراد مجتمع هذه المنطقة في هذه الفترة التي يتحدث عنها الباحث في كتابه.

ومما يميز المنطقة أيضا وجود العنصر اليهودي فيها بكثرة فقد استوطن العدد الكبير منهم بهذا الاقليم لأنهم كانوا من جملة المهاجرين الاندلسيين الذين قصدوا هذه الجهة من المغرب للاستيطان بها بعد الغزو الصليبي لبلاد الأندلس. وكانوا يعملون بصفة عامة في التجارة وفي بعض المهن التي كادت أن تكون مقصورة عليهم وحدهم كالسروجية «البراذعية» أي صناع «البردعة» والصياغة والتلحيم... وكانوا يعملون كذلك باعة متجولين واسكافيين متنقلين.

وكعادة كل اليهود في العالم كان المكر والخداع والتعامل بالربا مع المسلمين والكيد لهم من السمات المميزة لهم. ففيهم يقول أحمد بن عرضون فقيه المنطقة «اليهود الذين يدورون على الديار فانهم يتعاملون مع النساء وليس لهم مقصود في الغالب سوى النساء» ص، 214.

وكان هدفهم دائما هو الحصول على المال بمختلف الوسائل وسلوك كل الطرق. والاتصال بذوي السلطة والنفوذ والتقرب إليهم والتأثير عليهم من أجل تسخيرهم لمصلحتهم وقد تحقق لهم ما أرادوا.

وعن المرأة في هذا الاقليم يقول المؤلف «كانت المرأة في هذا الاقليم الجبلي تقوم بدورها كعضو فعال في مجتمع ذلك العصر. فهي في البادية تقوم بأشغال البيت إلى جانب أشغالها في الحقل والغابة... وهي في المدينة تزاول الخياطة والطرز والعمل في تصنيع الصوف من تصبين وحلج وغزل... وتلوين» ص، 221.

كل هذا بالاضافة إلى أشغال المنزل من خبز وطهي وغسل للثياب وتربية للأطفال والعناية بهم... الخ.

وكانت العناية بها كبيرة حتى أن بعض الفقهاء في المنطقة أعلن في فتوى جريئة عن وجوب انصاف المرأة البدوية واعطائها النصف أو ما يناسب عملها في ترك زوجها مما تجمع لهما من عملهما المشترك وبالرغم مما أثارته هذه الفتوى من ردود فعل من طرف بعض الفقهاء فان صاحبها ظل متشبثا برأيه في الموضوع ص، 228.

كما اعتنى بتثقيفها وتعليمها أيضا وخاصة في شؤون الدين فظهرت المرأة المتعلمة والفقيهة والحافظة للقرآن كلا أو بعضا.. كما كان الشأن بالنسبة لوالدة صاحب الدوحة **السيدة عائشة أم أحمد الحسنية (ت 969 هـ) زوجة القاضي** أبي حسن علي بن عسكر... والسيدة الفقيهة أمنة بن طحو الحساني وزوجة الشيخ عبد الله الهبطي. والسيدة فاطمة بنت عبد الله أوثول من شرفاء أولاد أوثول ببني زجل ومنهن أيضا السيدة المشهورة ب «الست الحرة» التي تقدم الحديث عنها. والسيدة الفقيهة خديجة الحوات التي كانت تعلم النساء بزاوية الشيخ أبي الحجاج يوسف التادلي ص، 226.

ومن المأثورات في موضوع تعلم المرأة بهذا الاقليم قول أحمد بن عرضون «أن المرأة إذا كان لها زوج يجب عليه أن يعلمها إن كانت جاهلة فإن لم يفعل طالبته بذلك فان لم يفعل طالبته بالخروج إلى التعلم. فان لم يأذن لها في الخروج خرجت بغير اذنه» ص، 226.

وفي القسم الثاني من الكتاب تحدث الباحث فيه على التوالي، عن مظاهر الحياة الفكرية في هذا العصر. وعن دور المسجد وأثره الثقافي. وعن الحياة الثقافية بمدينة شفشاون ومعهد المواهب بالجبل الأشهب. ومعهد تلمبوط وقضاة شفشاون ودورهم الثقافي. وعن المراسلات العلمية بين شفشاون وفاس.

ففي النشاط الثقافي في الناحية يقول الباحث «يتضح من خلال التعرف على الصلات التي كانت تربط بين المثقفين في هذه المنطقة وبين إخوانهم بجامعة القرويين أن الحياة الفكرية بشفشاون وأحوازها كانت وثيقة الصلة بالحياة الفكرية بفاس التي كانت تمثل أهم مظهر من مظاهر الحياة الفكرية بالمغرب في هذا العصر» ص، 258.

فالمنطقة إذن من الناحية الثقافية كانت امتدادا للقرويين سواء من حيث مستوى التدريس بها أومن حيث المواد المدروسة. وعدد كبير من علماء هذه المنطقة كانوا أساتذة في القرويين مما يؤكد الدور الثقافي لهذه المنطقة لاعلى الصعيد المحلي فحسب بل على الصعيد المغربي ككل.

وكانت الثقافة هي إحدى الوظائف التي يضطلع بها المسجد الى جانب وظائفه الأخرى الدينية والاجتماعية، إذ كان طلبة العلم يفدون على العلماء بالمساجد ويسكنون حولها في مأو خاصة أعدت لسكناهم فيتعلمون عنهم قواعد اللغة العربية والأحكام الفقهية، ويدرسون البلاغة والعروض والأدب والحساب والتنجيم والطب والتصوف... الخ. ص : 263.

وأهم المساجد التي كانت تضطلع بهذا الدور في المنطقة مسجد «تلمبوط» ومسجد مدشر (سعادة) ومسجد «بني جبارة» وبني زرويل... ومسجد قرية (الخزانة) الذي كان من أشهر المساجد في الناحية والمسجد الجامع بشفشاون المدينة، ومسجد أبي خنشة بالمدينة أيضا... الخ.

وكانت للمساجد أوقاف أخذت بعناية بعض القضاة في المنطقة فضبطوها ونظموها تنظيما محكما لأنه بواسطة الأوقاف تصان الحياة الفكرية والثقافية - كما يقول المؤلف -

ولم يفت الباحث وهو يتحدث عن الحركة الثقافية بالناحية أن يذكر أهم المثقفين والقضاة بها كأبي الحسن علي بن عمر بن مصباح ابن عسكر، وعلي بن ميمون الإدريسي الحسني، والفقيه المفتي أبي الحسن علي العلمي والد القاضي أحمد العلمي المعروف بعلي الشريف، والقاضي أبي محمد بن أحمد بن الحاج، والحسن بن محمد العلمي... ص : 277.

ثم يفرد المؤلف بعد ذلك المبحث الرابع لمعهد المواهب بالجبل الأشهب فيعالج موضوعه في نقط خمسة وهي :

1) موقعه والغاية من تأسيسه.

2) أهم المواد الدراسية التي كانت تدرس به.

3) أشهر شيوخ هذا المعهد.

4) أشهر تلامذة هذا المعهد.

5) الاشعاع الثقافي لهذا المعهد.

فيذكر أن مؤسسه كان هو الشيخ عبد الله الهبطي (ت 963 هـ) في النصف الأول من القرن العاشر الهجري ص : 292.

وأهم المواد التي كانت تدرس فيه هي باختصار قواعد اللغة العربية من نحو وصرف ثم العروض والفقه والمنطق وعلم الكلام والتفسير والحساب وعلم الجدول وفنون التصوف... الخ.

أما أشهر شيوخ المعهد فهم عبد الله الهبطي مؤسسه، وولده محمد الكبير، وأخوه محمد الصغير، والشيخ العلامة أبو عمران موسى بن علي الوزاني، ومن زوار هذا المعهد الشيخ أبو القاسم ابن خجو.

وأشهر تلامذة المعهد هم، أبو القاسم بن خجو الحساني، وموسى ابن علي الوزاني وهذان من تلامذة المعهد وأساتذته في نفس الوقت ص : 301.

ثم محمد بن موسى القزوي، وأبو عبد الله محمد الحداد الزياتي ومحمد بن منصور (السكاج) ومسعود البكار، وأخوه سليمان وأبو العباس أحمد البوطي، والقاضي محمد بن عسكر صاحب الدوحة والقاضي أحمد بن عرضون وغيرهم كثير...

وفي المبحث الخامس تحدث عن معهد «تلمبوط» فعرف بموقعه وبشيوخه، كما عرض في المبحث السادس إلى قضاة شفشاون فعرف بوظيفتهم القضائية وبأهم الشخصيات التي تولت هذا المنصب في المدينة فذكر من بينهم : علي بن الحسين ابن عسكر وعلي بن ميمون الغماري، ومحمد بن أحمد الحاج، ومحمد بن علي بن عسكر، وأحمد بن الحسن ابن عرضون ومحمد بن الحسن ابن عرضون.

ثم خص النقطة الأخيرة في المبحث للدور الثقافي لبعض القضاة بالمدينة فذكر أن مشاركة هؤلاء «في الحياة الفكرية بهذه المدينة تجلت في التدريس والتأليف والافتاء وما الى ذلك...» ص : 340.

أما في المبحث السابع الخاص بالمراسلات الثقافية بين فاس وشفشاون فركز فيه على نماذج من هذه المراسلات التي تمت بين الشيخ محمد بن أحمد ابن الحاج وبين شيخ الجماعة بفاس عبد الواحد الونشريسي،

وبين الشيخ محمد ابن عرضون وبين شيخ الجماعة محمد القصار... وأيضا بين الشيخ محمد القصار وبين الشيخ احمد بن علي العلمي ص : 341.

ومما يميز هذه المراسلات عموما «انها كانت تجري في جو من التواضع وحب البحث فهي مراسلات تكتسي بالاضافة الى صبغتها الثقافية رونقا من التفاني في حب المعرفة لذات المعرفة. ومسحة من التواضع الذي هو من ابرز صفات العلماء الباحثين» ص : 342.

وفي القسم الثالث من الكتاب نقف على نماذج من مثقفي هذه المنطقة خلال الحقبة التاريخية التي تناولها موضوع البحث.

وممن عرف بهم المؤلف في هذا القسم : ابو القاسم بن خجو وأبو محمد عبد الله الهبطي وابو الحجاج يوسف التليدي وأبو عبد الله محمد بن عسكر وابو عبد الله محمد الصغير الهبطي وأبو عبد الله محمد بن الحسن ابن عرضون وابو العباس أحمد بن يحيى العلمي الشفشاوني وأبو العباس أحمد بن علي العلمي وبنو يلصو يون ص : 349.

فافاض في ترجمتهم وعرف بشيوخهم وتلامذتهم. وفي الختام اوجز الباحث مجموعة من الحقائق التي توصل اليها من خلال هذه الدراسة القيمة فركز منها على ما يلي :

1) الكشف عن مظاهر ثقافية في منطقة مجهولة لم يكتب عنها احد لحد الان.
2) التعرف على اسرة بني راشد امراء شفشاون تلك الاسرة التي حكمت المنطقة ما يقرب من قرن من الزمن...
3) التعرف على مدينة شفشاون وعلى الدور الثقافي الذي قامت به في وقت مبكر من حياتها.
4) الكشف عن الدور الثقافي للمعاهد الثقافية المحيطة بشفشاون وعن مدى الاشعاع الثقافي لها.
5) التعرف على مجتمع هذه المنطقة في ذلك العصر وعلى بعض عوائده. والتعرف بصفة خاصة على المراة الجبلية ووظيفتها الاجتماعية في القرن العاشر الهجري.
6) التعرف على شخصيات عديدة كنا نجهل مقدار ماساهمت به في الميدان الفكري وما بذلته من جهد في حمل مشعل الثقافة والعرفان. الى غير ذلك من الحقائق والنتائج التي توصل اليها صاحب البحث.

ثم ببليوغرافيا للمراجع والمصادر التي اعتمدت في البحث مرتبة ترتيبا هجائيا. ففهرس الموضوعات التي تضمنها الكتاب.

ولا يفوتني بعد هذا العرض الموجز ان اشير ان الكتاب مهم في بابه وقيم في موضوعه. وان اهميته تكمن في اعطائه صورة عامة وواضحة عن الوضع السياسي والفكري والاجتماعي لمنطقة شفشاون واحوازها خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي وهي فترة لا ابالغ اذا قلت انها ظلت مجهولة عند جل الباحثين الى حين صدور هذا المؤلف القيم لمؤلفه الاستاذ عبد القادر العافية.

وعساني بهذا العرض المختصر اكون قد اعطيت صورة عامة عن الكتاب في مضمونه الثقافي والسياسي والاجتماعي.

مُناجاة مع الذّات

للشاعر الاستاذ
أحمد بن محمد البوعمادي

الى استاذي الجليل الشاعر الفحل الكبير الاستاذ محمد الحلوي كهدية على قصيدته العصماء بعنوان : يوم ابصرتها، والمنشورة منذ ربع قرن على صفحات مجلة دعوة الحق في سنتها الاولى، وعددها التاسع لشهر مارس سنة 1958 ص 44.

نعم قد كان لي شان معها لما رايتها كما كان لشاعرنا الكبير محمد الحلوي شان معها يوم ابصرها، ولا اريد ان فضحها كما فضحتني، وانما اترك لكم فضل اكتشافها، فاليكموها :

هبطت اليك من المحل الأرفع
هيفاء في لون البياض الأنصع
بحيائها وجلالها ووقارها
كالعابد المتبتل المتخشع
بيضاء صافية الأديب بريئة
كالطهر لم تدنس ولم تتميع
حسناء بادية الجمال مضيئة
كالشمس لم تحجب ولم تتبرقع
في صمتها نطق وفي اشراقها
رمز يشير لسرها المستودع
ظهرت فاذكت في الفؤاد صبابة
وأرتك اي تمنع وترفع
عانيت منها ماأمض القلب من
صد وحرمان وطول توجع
حاولت أن أشكو لها فاستعصمت
بالصمت لا تصغي ولا تحيا معي

ترنو الى كأنها متوجس
يخشى الملامة من لسان موجع
فاذا بصرت بها توارت واختفت
خلف الظلام كهارب متسرع
مهلا عليك ! ولا عليك فانني
سمح كريم لا أرى أن تجزعي
ماانت الا باقة عطرية
تهدي العبير ولا تضيق بموضع
ماانت الا نفحة قدسية
تسمو بنفسي للمقام الأرفع
ماأنت إلا كالنبي بأمة
يدعو الأنام إلى الطريق الأنفع
لولاك ماعرف الشقي طريقه
ولتاه في قفر وأرض بلقع
ماانت الا واعظ متنسك
يهب النصيحة والخلاص لمن يعي

انت الشعيرة قد بدت في مفرقي
كالنور شع على الظلام بمطلع
أنت الصباح وأنت غرة فجره
أيلذ بعد الفجر دفء المضجع ؟
أنت النداء فهل يصيخ لصوته
قلبي فقد وصل النداء لمسمعي ؟
أنت اللهيب وأنت نار يكتوي
من حرها جسمي وتلفح اضلعي
انت الضياء لمن أضاع طريقه
واضل عمره في هواه الممرع
قد كنت قبلك طائرا مترنما
يشدو بلحن الحب غير مروع
كنت النسيم الطلق في رحب الفضا
يغدو طليقا كالفراش المسرع
أو كالهزار على الغصون مرددا
لحن الحياة ويرتوي من منبع
قد كنت اعتقد الحياة لذاذة
فاخذت منها بالنصيب المقنع
ورتعت كالنشوان في احضانها
حتى ارتوت نفسي بكاس مترع
لما رايتك هجت شوقا للصبا
وزمانه الغض الجميل الممتع
اه على ايامه الغـــر التــي
مرت كظل سحابة لم ترجع
كم عشت فيها ذكريات حلوة
ورتعت فيها. يالها من مرتع !
اني عليها اسف متحــــــر
ولاجلها ابكي واسيل ادمعــي
ان الشباب رؤى تموج لحالم
تنجاب حينا كالسراب المطمع
لله ما احلى الحياة شبابهــا
وربيعها قبل المشيب المفــزع
حتى اذا حل المشيب تبددت
احلام عمرك في الفضاء الاوسع
وذوت ورودك واستبان ذبولها
بعد النضارة والجمال الاينــع
وخبا اوار الحب فيك واصبحت
ذات الدلال تشيح عنك وتدعي
الشيب عند الغانيات نقيصــة
لاحظ الا للجميـــل الاروع
فاذ علاك الشيب يوما فاطرح
عنك الهوى وانس الشباب وودع
لما رايت الشيب حل بمفرقي
وبدا كتاج يعتليه مرصــــع
ودعت حبي عند ذاك وبهجتي
وتركت لهوي في الحياة ومطمعي
ورجعت من دنيا الخطيئة تائبا
لله رب العالمين المبــدع
يامن يجير ولا يجار عليه كن
للتائبين اذا انابوا واسمــع

فاس : احمد بن محمد البورقادي

حكاية واقعية من شاطئ الغيب:



المياح

للأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

حينما تعجز عدالة الأرض عن إنصاف بعض المظلومين، أو عقاب بعض الظالمين، تمتد يد إلهية خفية لتطبيق عدالة السماء.

وهذه صورة لاحدى تلك التجليات التي يرصدها الكاتب الاستاذ احمد عبد السلام البقالي في خضم حياة الناس اليومية. — المحرر

• • •

«خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها، وصل عليهم، ان صلواتك مسكن لهم».

صدق الله العظيم

هذه حكاية أخرى من شاطئ الغيب، يحكيها رواد (مقهى الزريرق) المتكئة على السور البرتغالي العتيق، والمواجهة للمحيط الأطلسي. يحكونها للغرباء، وهم نشاوى بسحائب دخان كيف (كتامة) وغرقى في كؤوس التواكل يستمرئون أحلام النهار، ويحتسون كؤوس الشاي الأخضر المنعنع، يقاسمهم حلاوتها النحل..

حكاية (المياح) ليست كحكايات (الهيشات)، وحيتان البحر الضخمة التي صادفها هؤلاء في مغامرات صيدهم بقواربهم الصغيرة، ولا كغيلان الشواطئ، وجنيات أودية ضواحي المدينة وغيرانها، وأرواح مساجدها، وأشباح مقابرها.. بل هي حكاية من صميم واقعهم، عاشوا أحداثها، وشاهدوا أهوالها بأعينهم، سمعوا تفاصيلها الخفية من زميلهم (الهاشمي)، أحد بطليها..

وتبدأ الحكاية في يوم صيف جميل، والبحر هادئ مرحب بركابه من الصيادين، وطلاب الرزق من أعماقه.

خرج (الهاشمي) وزميله المعروف بـ (الجبل)، لضخامة جسده، وقوته، وشدة بأسه، خرجا في قارب (الهاشمي) للصيد مع الفجر.. وما كاد ينتصف النهار حتى رجعا بالزورق مثقلا بالسمك لا يكاد يتحرك، وهما يجذفان بنشاط في اتجاه الشاطئ، على مرأى من رواد (مقهى الزريرق).

وعلى البر سارع إليهما بعض التجار الوسطاء لشراء السمك منهما وبيعه في السوق. ولكن (الجبل) أبى بيعه للتجار رغم ميل زميله (الهاشمي) إلى ذلك. كان (الهاشمي) يؤمن بفكرة «كل وأكل»، وكان دائما يرددها، إلى جانب

أن بيع السمك على الشاطئ سيريحهما من تعب بيعه والوقوف عليه في السوق إلى آخر النهار..

ولكن (الجبل) كان جشعا شديد الحرص على المال، لا يفهم معنى الخير أو الإحسان ! وانصاع (الهاشمي) لرغبته تفاديا للخلاف واللجاج مع زميله، فقد كان يحتاج الى قوة عضلاته للتجذيف، وخفة يديه في صيد الأسماك.

وحملا صناديق السمك على عربة حمال إلى السوق حيث نصبا ميزانا وجلسا يبيعانه.. تحولا في يوم واحد من صيادي سمك إلى تجاره، كما يتحولان، وبقية الصيادين، من (خرازين) - صناع أحذية - و (درازين) - حائكي أقمشة صوفية - الى حوّاتين - صيادين مع مطلع كل صيف..

ومع العصر كان كل ما صاداه من سمك قد بيع، ولم يبق إلا بضع سمكات صغيرة لم يقبل عليها أحد.

وكانت عادة الفقراء من أهل المدينة الوقوف بعيدا في مواجهة بائعي السمك في انتظار نهاية البيع ليوزعوا عليهم ما تبق من السمك الصغير على سبيل الصدقة.

وانحنى (الهاشمي) على السمكات الصغيرة، وجمعها من قعر الصندوق الخشبي، وأشار إلى أحد الفقراء العاطلين والكثيري العيال، فأسرع هذا نحوه داعيا له بالحفظ، والبركة، وفيض الرزق..

ولكن (الهاشمي) فوجئ بزميله (الجبل) الأجلف ينبح فيه بصوت آمر :

- ضع السمكات في «المياح»، أنا في حاجة إليها..

و «المياح» هو مجرفة خشبية يغرف بها ماء البحر من بين ضلوع الزورق إذا تسرب من شقوقه، أو قذف به الموج إلى داخله..

وانعقد لسان (الهاشمي) واحمر وجهه خجلا وحرجا أمام الرجل الفقير الذي يدعو له، وبقي مسمرا في مكانه، والسمكات الصغيرة في يديه، وانحلت عقدة لسانه فقال

- أتركها لهذا المسكين.. إنه أحوج منك إليها..

- قلت لك ضعها في المياح..

فوضعها (الهاشمي) طائعا، وأشار إلى المسكين الذي هم بالانصراف خائبا أن ينتظر. ومسح يديه في خرقة وأخرج من جيب سرواله درهمين أعطاهما للرجل الذي أمسك بهما داعيا له :

- نجاك الله من كل بلاء..

وذهب، وهو يردد : «الصدقة تنجي، والعبد لا يدري !»

● ● ●

وفي صباح اليوم التالي، خرج الزميلان، مرة أخرى إلى البحر، وكان أهدأ وأروق من بحر الأمس، وما كادا يلقيان ببعض (المراغة) وهي معجون من السردين والرمل، لاجتذاب السمك، حتى فاض حولهما البحر بالأسماك، فأخذا يغرفانه باليمين والشمال حتى ملأ الزورق في أقل من ساعتين.. وبصعوبة استطاع (الهاشمي) أن يوقف زميله عن الصيد حتى لا يغرق بهما الزورق تحت ثقل السمك، فقد أصيب (الجبل) الجشع بنوبة هيستيرية..

وقفل الزورق راجعا بحمولته الثقيلة إلى الشاطئ..

وما كاد يواجه (مقهى الزريرق) حتى تحرك البحر من تحته، وبدأ الموج يكبر فجأة ودون سابق إنذار.. كانت السماء صافية والهواء رخاء.. ورغم ذلك هاج البحر من حولهما، وأخذ يهز بهما الزورق الثقيل على رؤوس أمواج كقمم الجبال، ويلقي به في أودية عميقة زرقاء رهيبة..

وأحس الرجلان بالخطر يحيط بهما من كل جانب.. وأيقنا بالهلاك، فأخذ (الهاشمي) يَتَشَهَّدُ ويتضرع إلى الله بصوت عال، ويقرأ ما يتذكره من أيام الكُتَّاب من آيات القرآن، بينما استولى الرعب والذعر على زميله (الجبل)، فاصفر وجهه حتى بانت عليه زرقة الموت، وجحظت عيناه، وبانت أسنانه كلها، وكأنه تحول إلى هيكل عظمي، وهو ما يزال حيا..

وجاءت موجة من خلفهما فملأت المركب ماء.. وبحث (الجبل) حواليه كالمجنون وأخذ يصيح :

- المياح ! المياح ! أين المياح ونظر بعينيه الجاحظتين إلى (الهاشمي) وصرخ فيه :

- أين المياح ؟ أين وضعته أيها الحمار ؟!

وأجابه (الهاشمي) بأعصابه الباردة :

- المياح ؟! أنت الذي أخذت فيه السمكات التي رفضت إعطاءها للمسكين بالأمس !

وهنا تذكر (الجبل) فَعْلَتَهُ. فضرب على جبينه بكفه ندما..

وجاءت موجة أضخم من الأولى من خلف الزورق. فرفعته وقلبته على وجهه فوق سلسلة الصخور المتبقية في ميناء قديم..

وخرج (الجبل) من تحت الزورق إلى سطح الماء. وتوجه نحو الشاطئ دون أن يلتفت إلى زميله هنا ارتفع الزورق وهوى على رأسه فشذخها. وابتلعه اليمّ..

وفقد (الهاشمي) وعيه في تلك اللحظة موقنا أنه انتقل إلى العالم الآخر..

وحين عاد إليه وعيه. وجد نفسه ملقى على رمل الشاطئ والناس يحيطون به متسائلين هل هو حي أم ميت. وفتح عينيه وتنفس بعمق رئتيه. وحمد الله. فهلل الجميع من حوله فرحا بنجاته..

ووقف دون مساعدة. وكأنه استيقظ من نوم عميق مريح.. ولم يَحسّ بأدنى ألم في أعضائه. أو كسور في عظامه. أو رضوض في بدنه. وكأن يدا ربانية خفية حملته من داخل الزورق ووضعته على الشاطئ.

وسأل عن رفيقه فتحركت الرؤوس أسفا وحسرة.. (الجبل) لم «يبزقه» البحر بعد..

وسأل عن الزورق فجاؤوا به إلى حيث خرج. فوجده سليما لم يصب بشيء. ووجد أغلب السمك فيه. فقد جمعه رواد المقهى من الشاطئ.

وحمد (الهاشمي) الله على بقاء الزورق. وإفلاته من الصخور.. فقد كان مصدر رزقه الوحيد.

أما رفيقه (الجبل). فقد وجدوه عند الجزر حبيسا بين صخرتين. وقد تهشم كل عظم في جسده. وأكلت الأسماك والسراطين عينيه وبقي مكانهما حفرتين فارغتين. وبات يحلم بمنظرهما المرعب كل من رأى وجه (الجبل) الغريق ليالي عديدة.

• • •

ولم تُعرف قصة بخل (الجبل) بالسمكات الصغيرة على المسكين الجائع إلا حين حكاها هذا لإمام مسجد الجامع الكبير. فجعل منها موضوعا لخطبته لتلك الجمعة. وبدأها بالآية الكريمة : **«خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها. وصل عليهم. ان صلواتك مسكن لهم».**

ومنذ غرق (الجبل) حرص جميع الصيادين على العادة القديمة في جعل نصيب من أسماكهم للسائل والمحروم.

دمعة وفاء

على روح فقيد العلم مولاي العباس الأمراني

للشاعر الأستاذ عبد الكريم التواتي

وبعده فقد كان لوفاة شيخنا الجليل شيخ الجيل مولاي العباس الامراني اسى عميق في الاوساط العلمية بالمغرب كافة وبالاخص في فاس وعند الذين تتلمذوا عليه بجامعة القرويين وبدار الحديث الحسنية «او عرفوه كقاض ورع زاهد» وقد اقامت له المجالس العلمية اخيرا بفاس ذكرى تابينية بمناسبة مرور اربعين يوما على مواراته التراب.. وبهذه المناسبة انشدت هذه القصيدة، فان رايتم ان تنشروها على صفحات المجلة وفاء للعهد، وذكرى للراحل، فلكم الشكر والسلام..

اخوكم عبد الكريم التواتي

أرى الأيام أحلاما ووهما ... وآجالا ترصدنا وعدما
وعمرا لا يدوم لوارثيه ... ولكن يورث الوارث يتما
حرصنا عليه يزكو وينمو ... ولكن خلة قضى وخرما

ونحسب، والقضاء له حساب ... وكان حسابه فصلا وحسما
له يعنو الورى طوعا وكرها ... وينفذ حكمه، بدءا وختما

ويمعن في مراميه ويمضي ... لما يختار، أحكاما وهدما
على وجه البسيطة قد قذفنا ... وعام بنا التيار يموج عوما

وما تدري المراكب أين تمضي ولا الربان يدري أين أما
ولكنا نساق إلى قضاء قضاه الله إبراما وفصما
قضى أن نستقر هنا لماما إلى حين نمتع فيه نهما
فخلنا - والحياة بنا رخاء تسير حثيثة أمنا وسلما
وخلنا أن ذاك (الحين) خلد فهمنا غفلا بالغيب رجما
وما في الأرض للأحياء خلد ولكن رحلة تصوينا هما
ومن أمن الحياة غوى وضلت مساعيه وقضى العمر جهما
فما كانت سوى أشباح وهم وبؤسى خالها الانسان نعمى
أراها بالانام تسير ليلا تقود زمامها خطوات عمى
وغر بني الدنى حلو الأماني فضل رشادهم وأضل فهما
يعبون السراب ظمأ نفس ويقفون الخطى حدسا وشيما
أسارى وهمنا نغدو ونمسي ونعلقه اشتياقا ليس يظما
نراوده ونسكنه الحنايا وما يرثي لعان مات غما
فمن يؤمن بدنياه، فاني رثيت لحالتي وبكيت قدما

أنسأل ذا الزمان مديد عمر وهل لبى الزمان وراق يوما
ونسأله السلام ونحن ندرى بأن السلم منه كان حلما
ومن خبر الزمان وما توالت به الأحداث أيقن أن لا سلما
فلم يك سلمه إلا خبالا أصاب سهامه إلا حنافا أصمى
ولم تك ذي الحياة سوى متاع ولهو يأكل الأعمار لما
وما حي بها بلغ المرجى ولا قضى بها وطرا وغنما
واحزم واردي الأيام، حي قلى الدنيا وحقرها وذما
قضى العباس آه كل نفس ستقضى نحبها وتغور يوما
وربك باريء الأكوان - عدلا واحانا - قضى أجلا مسمى
وتلك مصائر الأنسام، آه تغولهم المنون أبا وأما
وكل في الطريق - بلا اختيار يواصل خطوه ويسير رغما
وتلك مشيئة الأقدار إنا سنجرع سمها غدقا وظلما
أشيخي، ما قضيت، وما المنايا تنال الخالدين حجى وعلما
ولكن رحت للأخرى وكل غدا يغدو لها ويروح حتما
فما نبكي رحيلك، لا وكلا رحيلك كان ميعادا وحتما
ولكنا سنبكي فقد فضل وإحسانا ونبكي الطهر جما

ونبكي العلم دفاقـــا ونبكـــي تقى زانت حجـــى يقظـــا وحلما
ونبكي في أسى شممـــا ونفســـا تفور عزيمة وتفيـــض حزمـــا
ونبكي كل جهبيـــذ تألـــى يفدى المغرب الأقصـــى الأشمـــا
وما فقـــد الأحبـــة يا رفاقـــي يهـــون فإنه الأحشـــاء أدمـــا

لحقت بربـــك الأعلى هنيئـــا بما قد نلت رضوانـــا ورحمـــى
برفقة طيبيـــن لحقت فأنعـــم برفقتهم فقـــد أغدقـــت نعمـــى
بجانب جدك المختار تجثـــو تقبل راحتيه تشـــم شمـــا
وآثر جسمك العطـــر المنـــدى جوارا طاب أحلامـــا ونومـــا
ستشملك العـــوارف إن طـــه أخى العباس للعلمـــاء أحمـــى
يناجي روحـــه الغالي ثراكـــم يضمك روضه الفينـــان ضمـــا
وتنعشك الفيوضـــات احتفـــاء ورضـــوان يحف ذماك جزمـــا
وتقطف من جني الفردوس قطفـــا وتكرع راحـــه عـــلا وغيمـــا
فتنسى الأرض والدنيـــا وترثـــي لمن ضل السبيـــل وغـــل إثمـــا
لقد قضيـــت عمـــرك غيـــر وان توجه، تشحـــذ الأفكار فهمـــا
نذرت حياتـــك الغـــر للـــدرس وكان الدرس في دنيـــاك مرمـــى
وآليـــت الثقافـــة تجتليهـــا فخضت غمارهـــا وبرزت نجمـــا
أساطين الجوامـــع شاهـــدات بما أسديت ، تعليمـــا وحكمـــا
عقدت لها المجالـــس فاشمخـــرت كراسي العلم ، إحكامـــا وهضمـــا
وقامت للبلاغـــة في شمـــوخ صـــروح، أمها النجبـــاء، هيما (1)
وذي (دار الحديث) زهت وتاهـــت منائر رصعت دررا ووشمـــا
وهبت مكارم الاخـــلاق حتـــى لها أصبحت تمثـــالا ووسمـــا
وإن أسموك (عباســـا) فأكـــرم بعباس ، أبـــا، وأخـــا، وعمـــا
ولم تك يا أخـــي يوما عبوســـا ولكن كنت فراحـــا... ونعمـــا
ولم يعـــرف محيـــاك ازورارا ولم تعرف شفاهـــك يومـــا ذمـــا
ولكن بلسمـــا قد عشت تأســـو جراحـــات تنز : دمـــا وكلمـــا
وقد ناضلت شهما لســـت تخشـــى في حق الله، إلا الله لـــومـــا
شمائل مالها في الطيـــب نـــد وتنمى للنبـــوة حيـــن تنمـــى
فقدك - يا أخي العبـــاس - رزء له الدنيا تهـــي وتنـــوءهمـــا
فإن نأسف لفقدك، مـــا أرانـــا أتينـــا في تأسفنـــا مذمـــا

وان نبك فانك كنـــت تحنـــو   على الطلاب بل قد كنت أمـــا

بكت فاس لفقدك، إن فاســـا   لفقدك تشتكي نصبا وغمـــا

مجامع علمها تبكيـك حزنـــا   تعزي فيك جامعهـــا الأشمـــا

وتنتحب المرابع فيـك رمـــزا   لاعلام سموا هديـــا وعلمـــا

وما (عبد السلام) أخوك ينســى   سنحفظ ذكره ، نثـــرا ونظمـــا

أرى قد عشتما تمثـال عـــز   لهم، ورفعتما علما ورسمـــا

وأنت لهم أخي العبـاس تبقـــى   شعـارا خالدا ابدا ورتمـــا (2)

أخي العباس قـد فدتـك نفسـي   وما تجدي فدتك وأنـت أسمــى

ولكني ـ وأنت بـذاك أدرى ـ   أحاول مهربا، أنكـــى وأصمـــى

وغيـر الدمـــع أذرفـــه، وآه   أصعده، فمـــا أغنيـك جمـــا

عزائي فيك ـ يا عبـاس ـ عـرش   يشيد للخلـــود ، بنـى ورسمـــا

أياد من جميل الصنـــع عمـــت   يواصلها على الأوطـــان نعمـــى

ومن يك ملكـــه الحسن المثنـــى   ينل ما يرتجيـــه ، سنى وغنمـــا

وما آل النبي سوى أســـــاة   وسيب صيـب الانـــواء عمـــا

اعزي العرش فيـك وما عزائـــي   سوى الصبر الجميـــل لما ألمـــا

أخي العباس تعلـم ، كـل زادي   دعائي، فاسمعـــن منه إلا همـــا

أرى الاوطان تبكيك اعتـــزازا   أراجلها وصبيانـــا وريمـــا

تردد في ابتهـــال ، ان ســـلام   على مثواك بل طوبى ورحمـــى

وهذي دمعتي وعظيـــم حزنـــي   واني غدا بما أرميـــت أرمـــى

فنـــم (عباس) نـــوم قريـر عيـن   وطب مثـوى فقد اغدقـت غيمـــا

جنان الخلد يحبـــوك التهـــاني وتـرعـــى روحـــك الاملاك دومـــا

فاس: عبد الكريم التواتي

(1) حيبا - والله

(2) الرتم - المحجة

في المكتبة المغربية :

الرموز السرية في المراسلات المغربية

تأليف : الدكتور عبد الهادي التازي

صدر كتاب جديد للدكتور الباحث السيد الهادي التازي مدير المعهد الجامعي للبحث العلمي وعضو أكاديمية المملكة المغربية. (1) تطرق فيه لأول مرة لموضوع **طريف** لا يستغنى عنه المؤرخ والأديب والدبلوماسي... ويتعلق الأمر بالرموز السرية المستعملة في المراسلات المغربية.

لقد فكر الإنسان القديم قبل مآت السنين في طريقة لنقل أسراره إلى الغير. لكن العرب كانوا من بين السباقين إلى وضع الأسس الأولى **للمخاطبات السرية**، وفي هذا الصدد ذكر د. التازي عددا من المؤلفين القدامى ، مشارقة ومغاربة، من أمثال ابن الوحشية، والصولي والاصفهاني، والعسكري وابن وهب الكاتب، والقلقشندي، والكلاعي، وابن عبد الملك المراكشي...

وبعد أن يأتي بنماذج متنوعة من الرموز مستمدة من كتب مشرقية ومغربية... يتخلص لشخصية دبلوماسية من العراق من مدينة الموصل تعرف باسم ابن الدريهم (ت 762 هـ - 1361 م) الذي أسهم بحظ وافر في إثراء موضوع «المخاطبات السرية»...



وقد كان د. التازي يقارن أحيانا بين بعض المناهج. الأمر الذي يزيد في تصور القارىء لهذا الموضوع الممتع إن هناك عالما من المبتكرات يتطور ويتنوع حسب الشخص. وحسب الموضوع. وحسب الزمان. والمكان كذلك.

وبعد أن يستغرب د. التازي إهمال ابن خلدون لهذا النوع من أنواع الكتابة... يتخلص للحديث عن اعتماد الدولة المغربية منذ العهد الإدريسي على ابتكار مناهج لما نسميه اليوم «بالشيفرة»...

---

1) من منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي سنة 1403 - 1983 من الحجم المتوسط 126 صفحة عدد الرسوم 16 وعدد الصور اثنتان. مطبعة المعارف الجديدة - الرباط رقم الايداعي القانوني 332 - 1983.

لقد عرف هذا التقليد بين سائر الملوك المغاربة... أما على عهد الدولة السعدية فان وفرة المصادر تدل على أن الشيفرة كانت تتنوع إلى عدد من الأشكال. فهناك ما يختص بولي العهد أو بالقيادة العليا أو الحقل الدبلوماسي أو جهاز عمال الأقاليم...

ويكشف الدكتور التازي هنا عن حدث دولي مثير عرفته الشهور الأخيرة من القرن السادس عشر. ويتعلق الأمر بالمحادثات المغربية الانجليزية على عهد المنصور الذهبي والملكة اليزابيث الأولى. تلك المحادثات التي كانت تخطط لتصفية الممتلكات الاسبانية في الهند الشرقية والهند الغربية ! كرد فعل لتجاهل إسبانيا مطالب المغرب... وكانت المراسلات بين ابن عنون السفير المغربي في لندن والمنصور الذهبي، تتم بواسطة «الشيفرة... !»

وقد تحدث الدكتور التازي عما كان يعرف في المغرب بالخط الفاسي أو القلم الرومي معا يتقارب مع ما نعرفه اليوم بالسطينوغرافي (Stenographie)

وعندما يتحدث عن عهد العلويين يقدم لنا وثيقة صادرة عن الدولة ذاتها، وهي ترجع لأواخر القرن الماضي... وتكمن أهمية هذه الوثيقة في أنها تقدم لنا المملكة المغربية وهي تتمتع بسائر مقومات الدولة. كما تقدم لنا الأرقام السرية للأطر العسكرية العليا للمملكة. فهنا رئيس الحدود الصحراوية والحدود الشرقية والحدود الغربية.

وقد كانت الوثيقة دليلا جغرافيا صادقا للمراكز والمدن الساحلية للمغرب فهي حجة ناطقة على أننا لم نسلم إطلاقا في حدودنا الجنوبية والغربية بقدر ما كنا يقظين بالنسبة لحدودنا الشمالية والشرقية.

وهكذا فهي تتحدث عن إقليم وادي الذهب وتعطيه رقمه بين الأقاليم الأخرى كما تعطي رقما لرأس بوجدور وطرفاية على نحو ما فعلته بسبتة ومليلية !!

وتتحدث الوثيقة عن المجموعة الدولية... وتعطي لكل عاصمة من عواصم العالم رقما خاصا بها وكانت بذلك تقدم لنا أيضا الجهات التي كان المغرب يتعامل معها... فهنا في أوربا زهاء عشرين دولة ممن كانت لنا بهم صلة. وهنا القارة الأمريكية : الولايات المتحدة في الشمال والبرازيل وفنزويلا في الجنوب. وهنا بعض الممالك الإفريقية والاسيوية...

وتعتبر الوثيقة سبقا في ميدان ضبط الأعلام الجغرافية عن طريق الرقم. وهكذا فقبل أكثر من نصف قرن، سبقت المملكة المغربية الدول الأمريكية والأوربية إلى استعمال الأرقام للدلالة على مواقع المدن (Zip Code) في أمريكا و (Cedexe) في فرنسا...

وكذلك سبق المغرب لابتكار ما يسمى الرقم الشخصي في بطاقات التعريف المستعملة اليوم في الدول السكندينافية ( ) وقد كان هذا هو ما حدا بالوفد المغربي لتقديم هذه الوثيقة أمام المؤتمر العالمي الرابع لتنميط الأسماء الجغرافية (جنيف، شتنبر 1982).

لقد اعطت الوثيقة لكل اجهزة الدولة أرقاما معروفة بها ، فرقم (55) يعين جلالة الملك، ورقم 58 خاص بولي العهد، ورقم 59 خاص بأخيه وهكذا... أما وزير الخارجية فله رقم 85، ووزير الداخلية له رقم 67 ووزير المالية له رقم 150...

ويحتوي «كتاب الرموز السرية» إضافة إلى هذا على عدد من الوثائق العامة التي لا غنى عنها لمن يشتغل بالتاريخ الدولي للمغرب في فترة ما قبل بسط الحماية الفرنسية 1912.

وقد كان في أبرز هذه الوثائق ما يتعلق بالنظام الداخلي لوزارة الخارجية في بداية القرن العشرين (4 جمادى الأولى 1318 = 30 غشت 1900). والكتاب مع هذا حافل بالتعليقات المفيدة التي تكشف عن بعض الجوانب الهامة في تاريخ المغرب الحديث...



الأمير الجليل مولاي عبد الله في ذمة الله

فجع المغرب، وهذا العدد قيد الطبع، في وفاة سمو الأمير الجليل مولاي عبد الله شقيق صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني. وفقد المغرب في سموه أحد أبناء محرر المغرب جلالة المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه، الذين شاركوه المنفى، وقاسوا مع جلالته السراء والضراء من أجل تحرير واستقلال بلادنا.

وكان الأمير الفقيد قد خضع لعلاج طويل المدى إثر مرض عضال.

وقد خلف الفقيد العزيز ثلاثة أبناء هم الأمراء الأجلاء: مولاي هشام. وللا زينب ومولاي اسماعيل.

ولد الأمير المرحوم مولاي عبد الله بالقصر الملكي سنة 1935 وتلقى دراسته الابتدائية والثانوية بالرباط والتحق بفرنسا بعد الاستقلال لاستكمال الدراسات العليا حيث نال شهادة الدكتوراه في القانون الدولي في موضوع (قانون البحار).

رحم الله فقيدنا العزيز، وعزاؤنا إلى حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، والى اسرته الشريفة والى الشعب المغربي كافة.

وإنا لله وإنا إليه راجعون

فهرس العدد 232

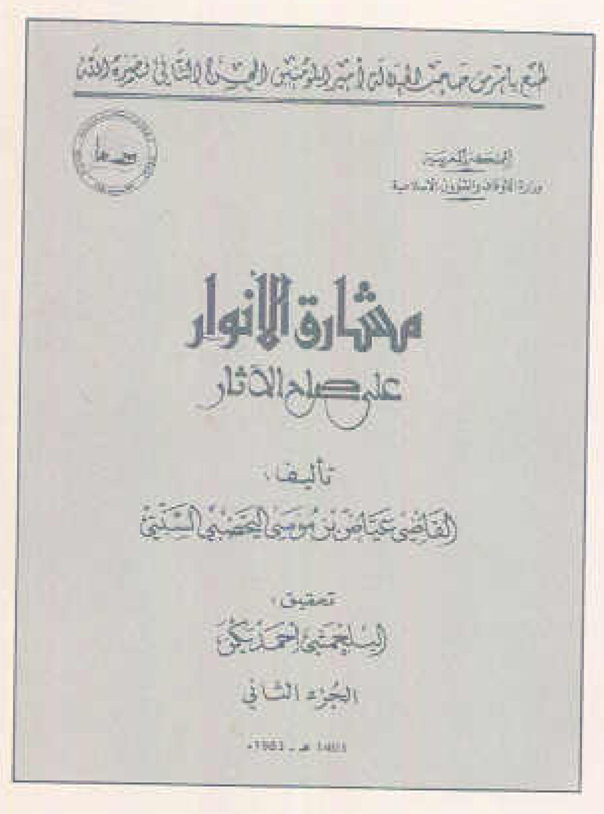
الافتتاحية :

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب

رقم الايداع القانوني 1981/3

من مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية





طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

إضاءة الراموس

وإضافة الناموس على إضاءة القاموس

لأبي عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي الشركي الصميلي

الجزء الثاني

تحقيق

عبد السلام الفاسي   الدكتور التهامي الراجي الهاشمي

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها

خلال القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)

عبد القادر العافية
أستاذ بكلية الشريعة بفاس

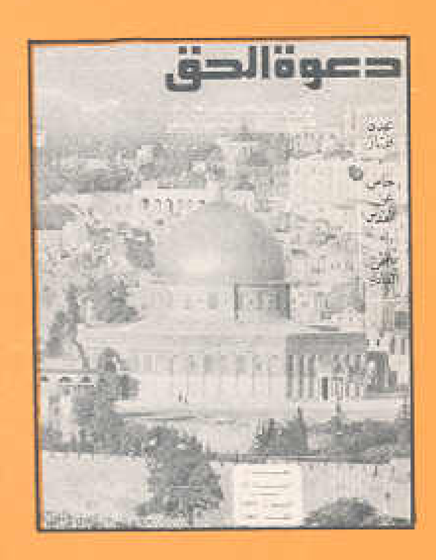
1402 هـ
1982 م

التوزيع: مكتبة الأوقاف، 5 زنقة بيروت، ساحة المامونية، الرباط



















صدر العدد الأول في يوليوز سنة 1957